كتاب

سبيل السعادة

(فى فلسفة الأخلاق الدينية وأسرار الشريعة الاسلامية)

« واثبات الروحانيات وفيه رد جليل على الطبيعيين »

تاليف

« فضيلة الأستاذ العلامة الجليل »

(الشيخ يوسف أحمد نصر الدجوى)

« حقوق الطبع والاعادة محفوظة للمؤلف »

سنة ١٣٣٢ هـ — ١٩١٤ م

« كل نسخة لم تكن مختومة بختم المؤلف تعد مسروقة ويحاكم حاملها »

مطبعة النهضة الأدبية أمام مدرسة الحقوق

تقاريظ

سبيل السعادة

﴿ الحيز الواحد لا يسع اثنين فى آن واحد ﴾

ستجلى عليك هذه التقاريظ مرتبة يتلو بعضها بعضا، لا لما يقصده الناس فى التقديم والتأخير من وضعها على حسب درجات مقرظيها ، فان ذلك يجب أن لا يكون فى كتاب أخلاق مثل كتاب (سبيل السعادة) بل يجب عليه أن يحارب تلك العادة وأمثالها ، وهاك ما كتبه أولئك الفضلاء ، أصحاب التوقيع

كتابك يادجوى فاتحة البشرى ومشرعة الاخلاق بل آية كبرى

أتى على الأمم الاسلامية حين من الدهر وهم فى غفلة معرضون لا يقرأون من العلم الا قشوره ، ولا يعلمون من الكتاب الا سطوره ، فضرب على آذانهم فى الكهف بضع قرون ، ومزقهم الشيطان فتمزقوا وهم عزون ، وذاق بعضهم بأس بعض بما نسوا ما يقرءون، أو ما علموا أن الكتاب انما نزل للهدى والرحمة ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم متمم لمكارم الاخلاق (وانك لعلى خلق عظيم)

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فذكرهم الامام الغزالى فى القرن الخامس ما أغفلوه ، وعلمهم ابن رشد فى السادس ما جهلوه ، فأعرضوا عنهما واستكبروا ، وعبسوا و بسروا وقالوا ان هذا الا ضلال مبين ، فعوقبت الامة بالتتار ، فاجتاحت

المملكة العباسية ، وبالاسبان فاستأصلوا الأمم الاسلامية الاندلسية ، ذات لغفلة علمائهم ، وجهل كبرائهم ، ونبذ حكمائهم ، وها هو الزمان قد استدار كهيئته ، فقام فاضل من فضلائها وحكيم من حكمائها يحاول أن يرجع الأمة سابق مجدها ، وقديم عهدها ، بارجاعها الى أصول دينها حتى تعرف أسراره وتجتلى أنواره ، وعسى أن يتبعه فى ذلك السبيل رجال الازهر الشريف فيتشبهوا بالسلف الصالح فى علوم الدين ، فقد فتح لهم الباب الاستاذ الدجوى فى علم الاخلاق ، وهذا لعمرى بارقة الامل ، وفاتحة العمل ، وان كتاب الاستاذ لنور على نور ، ولله عاقبة الامور

طنطاوى جوهرى

المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية فى عشرين نوفمبر سنة ١٩١٢

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله خلق فسوى ، وقدر فهدى ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى جاهد فى الله حق جهاده ، تارة بلسانه وطوراً بعضبه وسنانه حتى قوض أركان الرذيلة ، وتمم مكارم الاخلاق ، وعلى آله وصحبه الناهجين نهجه المقتفين أثره

وبعد فقد عنيت بقراءة كتاب (سبيل السعادة) للاستاذ الالمعى

البحاثة المدقق الشيخ يوسف الدجوي أحـد كبار المدرسين بالأزهر الشريف

فالفيته قد رق لفظه ، ودق معناه ، وافتنت أساليبه ، وتهدلت أفانينه ، وأينعت ثماره وطاب جناه

ووجدت منه بحراً ولكن عذب ماؤه ، واتسعت ارجاؤه،وبعد غوره ، وكثرت لآلئه حتى زاحمت ماءه وضاعفت رواءه

فالله أنت (أيها المفضال) كم لك من حسنات وراء حسنات تنقطع دونها أنفاس النظراء وتلتهب من أجلها قلوب الاعداء سرت فى (سبيل العادة) على منهج لم ينسج عليه قبلك ناسج وطرقت فيه أبوابا لم يطرقها دونك طارق

جلت بفكرك السامى وعقلك الثاقب فى مشارق الارض ومغاربها وارتقيت الى النجوم وأفلاكها ، ودخلت فى القلوب وسويدائها فأتيت على ما فيها من الاسرار وما تحويه من العجائب

أخذت بيد الطائشين من شبان اليوم حتى لمسوا الفضيلة وشعروا بضرورة الدين ،

وطالما تنزلت معهم (على رفعة قدرك) حتى سحرت عقولهم وخلبت قلوبهم فانقادوا الك خاضعين وامتثلوا ارشادك صاغرين

حاججت الطبيعيين فأدحضت حججهم،وأزلت شبهتهم، وكشفت عوارهم بعد ما أطلت جوارهم فلم تغن عنهم الخمريات شيئاً ولم تجدهم الماديات نفعا

واني وان كنت (أيها السيد) قد قرأت قبل كتابك هذا كتبا في الاخلاق كثيرة ولكن ما كل ماء كصداء ولا كل عطر عطر عروس

والحق الذى لا مرية فيه أن كتابك سبيل السعادة هو سبيل السعادة على الحقيقة وما سواه مجاز ولا غرابة فكل الصيد فى جوف الفرا

أمتع الله بك وبكتبك ووفقنا واياك الى ما فيه النفع العام للامة والدين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

كتبه مصطفى عنانى

المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية

(سبيل السعادة)

من شاء أن يرى الروح كيف يفيض من الملأ الاعلى، وما علاقة النفس الانسانية بذلك الروح الامين، وكيف تشرق بنوره المبين فتقشع ظلمات الكون ، ويطهر جثمانها من أدناس الطبيعة فتطيب اعراقا، وتكرم اخلاقا، وتلطف ادراكا وذوقا، حتى تتصل بالملأ الاعلى نزوعا وشوقا،وماعلاقتها بهذاالوجود،ومنزلتها منه ووظيفتها فيه، وكيف تعمره، وتهيمن على عوالمه، من شاء أن يكون على شريعة من أمره فى ذلك كله فليسلك سبيل السعادة ، وما سبيل السعادة، كتاب كريم

لأستاذ عليم عرف ادواء قومه الدينية و بلواهم الدنيوية وعللهم الاجتماعية وعوائقهم عن السعادة الحقيقية وتبين كيف يجلب الشيطان عليهم بخيله ورجله، وكيف تأخذهم جنود الباطل عن أيمانهم وعن شمائلهم، وكيف يعمهون فى ظلماته ويتيهون فى مجاهله، ذلك الاستاذ هو الشيخ يوسف الدجوى، خادم العلم ناصر الدين، فجاشت نفسه، والمرء من اذا أبصر قومه على خطر أخذته الحمية وثارت فى قلبه النجدة فلم يدخر وسعا فى نصرهم ولم يأل جهدا فى انقاذهم وانتشالهم من أوحالهم فاتاهم بهذا الكتاب المبين، فى الدين وأسراره، والاخلاق وفلسفتها والارواح واثباتها، والالحاد وادحاضه والمادة ونقضها وتزييف القول بها فجاء الكتاب فى تمكنه من النفس، وجلاله عنها، أشبه الكتب بموضوعاتها، فهو كالروح يظهر من حيث يخفى، ويقرب من حيث ينأى تذوقه النفس ولا تحده، وتدركه المشاعر ولا تراه، ويلمسه العقل وهو يعجزه، وكذلك روح الله اذا أمد به عبده بهر العقول وحير الافهام

فانى لمثلى أن يأتى على أسراره بيانا، ودقائقه حدا ووصفا وأنا حياله على حد قول سلطان العاشقين

وما عنه لم تفصح فانك أهله   وأنت غريب عنه ان قلت فاصمت

وحسبى من القول فيه ان أتقدم الى شباننا وأبناء عصرنا، ناصحا لهم ان يتصفحوه قراءة ويأتوا عليه دراسة ثم ليكونوا بعد ذلك كما شاءوا فأنا زعيم بانه لا يبقى فى نفس عاقل ريبا ولا فى صدر متدبر شبهة، الا من كابر جحدا،

اوعرض عناداوالله تعالى يقول (قد بينا الآيات لقوم يعقلون) وفق الله الاستاذ وأيده على سبيله فى خدمة قومه، وأكثر أمثاله فى أئمة المسلمين آمين

محمد عبد المطلب

بمدرسة القضاء الشرعي

وما الناس الا واحد بقبيلة يعدو الف لا تعد بواحد

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

الى فضيلة الاستاذ الدجوى رئيس جمعية النهضة الدينية الاسلامية

أيها الاستاذ أيدك الله، كم لك من أياد يعجز عنها الشكر، ويضيق عندها البيان، .... أبرزت للناس فى العام الماضى كتابك (الجواب المنيف) فكان سلاحا جديدا فى يد الاسلام، على أحدث طراز وأبدع منوال

نهضت نهضتك المعروفة، فأسست جمعية العلماء والاعيان، للمدافعة عن الدين، والاخذ بناصر المسلمين

حاربت أعداء الدين بما تكتبه من آن لآخر، على صفحات الصحف السيارة مما كان خطرا على جمعيات التبشير، وقضاءً مبرما على هيكلها الفخيم

نقلت لنا فى كتابك (الجواب المنيف) من شهادات فلاسفة أوروبا للدين الاسلامى مالا مزيد عليه مما احمر به وجه التبشير خجلا، وضحك له سن الاسلام سروراً

نظرت بعد أن فرغت من جهادك الخارجي الى أحوال أمتك الداخلية ، فقمت تقوم من أودها ، وتصلح من أبنائها ، فألفت لهم سبيل السعادة ، (وانه لسبيل السعادة)

كتاب أتى على أمراض الامة المتنوعة ، وأصول أدوائها المختلفة فقضى عليها بالحجة الناصعة ، والبيان الواضح

كتاب يذكرنا عيد ابن سينا فى القرن العشرين ، و يعيد لنا عهد الغزالى ، بعد ما تطاول عليه الامد ، فجهلته النفوس ، ونسيته الاقلام

كتاب يأخذ بيد الضال الى مناهج الهدى ، و يقى الغوى مصارع الردى

كتاب اذا نظر فيه الملحد تجلت له شمس الحق من سماء براهينه ، وان نظر فيه المؤمن الكامل ازداد بآيات بيانه كمال يقينه ، وان نظر فيه محب الفلسفة العلمية وجد ضالته المنشودة ، أو محب الدين المتعشق لما جاء فيه من اللطائف والاسرار وجد بغيته المقصودة وان نظر فيه المتعلم أوصله الى سعادته من أقرب طرقها ، وأوضح مناهجها ، فلله أنت من حكيم بعد نظره ، واتسعت فى الاصلاح خطاه ، فلم يدع الى الدين دعاء من ينحى على الدنيا انحاء الجامدين ولم يجعلها كل المقصد ، وغاية المرمى ، شأن الجاهلين (بل كان بين ذلك قواما) وراثة نبوية ، وحكمة محمدية ، وأنظار قدسية ، وتأييدات ربانية

ليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم فى واحد

فجزاك الله يا أستاذ أحسن ما جازى به المخلصين لدينهم وأمتهم ،
وأكثر من أمثالك ، ونفع المسلمين بجليل أعمالك ، انه على ما يشاء
قدير ، وبالاجابة جدير نور الدين محمد
أحد علماء الحنفية بالازهر الشريف ١٥ مارث سنة ٩١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ، وصلى الله على سيدنا محمد والآل والاصحاب ،

أما بعد فانك قد تعلم (عصمنا الله واياك من الزلل) أن من الناس من يأبون كبرا وعظمة أن يكون لهم اله يخضعون لأمره ، تنفذ فيهم ارادته ، وتتصرف فيهم قدرته ، وتهذبهم تعاليمه ويؤدبهم دينه ، ولكنك تراهم مع هذا الترفع الشامخ ، والعزة السامقة يأكلون من فضل ما أنكروه ، ويشربون من فيض من جحدوه ، ويعيشون فى ملكه ، ولا يستطيعون أن ينفذوا من أقطار سماواته وأرضه ، ثم اذا مسهم الضر فاليه يجأرون ومنهم من اعترفوا بمولاهم الذى خلقهم وسواهم ، ولكن أخذتهم العزة أن يعلمهم بشر رسول ، واستكبروا عن الاديان الالهية والكتب السماوية ، وزعموا أن فيهم من العقل ما يغنيهم عن هدى الرسل واتباع ما جاءوا به من دين الله (أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون) ومنهم من أسلمت ألسنتهم

فشهدوا بربهم وبرسوله ونديت قلوبهم برشحات من ألسنتهم لا تروى ولا تغني من صدى ، فاذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، ولكنهم مراض القلوب ، ربذت أيديهم فى أعمال دنياهم ، ولكنها عن زاد الآخرة شلاء

ومنهم من طابت نفوسهم فلما سمعوا مناديا ينادي للايمان استمعوا له وأنصتوا ورأوا الحق حقا فاتبعوه ورأوا الباطل باطلا فاجتنبوه ، وكانوا فى ذلك أزواجا اختلفت درجاتهم ، وتفاوتت مراتبهم ، وكلهم من خشية ربهم مشفقون ، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ،

وبعد فيأيها الاستاذ الحكيم لا تعرض عن هذا ولا ذاك ، واذكر أنهم عباد الله ، وأحب عباد الله الى الله أنفعهم لعباده ، فداو بالدين أمراضهم واشرح بالقران صدورهم واغذ بالسنة أرواحهم ، وأيقظهم من سباتهم ، وانصرهم على أنفسهم وشياطينهم ، وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم ، واصدع بما تؤمر ، وجادلهم بالتي هى أحسن ، فعسى أن يرى مبصر ، ويسمع واع ، وما أرى نفار أولئك الذين ذكرتهم عن هدى الاسلام ، واعتساف المعتسفين عن جادته ، وتنكب المتنكبين عن سنته ، وتخلقهم بغير أخلاقه ، واستشفاءهم بغير طبه ، الا لانهم رأوا صورة لم ترقهم فحسبوها صورته ، وسمعوا جرسا أزعجهم فتوهموه نداءه ، ولقنوا تلقينا ظنوه تعاليمه ، فتحسسوا من روحه فلم يجدوا به حراكا فزعموا أنه دينا عادى العقول أو كاد ، فيأيها الحكيم قل لهم هاؤم اقرأوا كتابيه ، وانى أرجوا أن تلبوا دعائيه ، فلعلكم ترون منه

صورة الاسلام غير ما رأيتم ، وتسمعون من حسن ندائه غير ما سمعتم وتطالعون من أخلاقه على خلاف ما اطلعتم ، وتعلمون من طبه سوى ما علمتم ، فيتبين لكم أنه لا روح الا روحه ، ولا اعتقاد الا ببرهانه ولا عقل الا بتعاليمه ، ولا عدل الا بقضائه . ولا أخلاق الا بتربيته ، ولا اعتصام الا بحبله ، ولا علم الا هو منه بسبب متين ، ولا سعادة الا بكتابه المبين ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، ان هذا القرآن يهدى للتي هى أقوم ، هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق . أيها الحكيم قد تلوت من كتابك ما تلوت ، فشكرته فشكر الله لك كتابك ، ونظرت فيه فرأيته قد أنار طريق الدين للسالكين ، فزاد الله بصيرتك نوراً ، وسألته ما ذا يراد بك ، فقال وجه الله تعالى ونفع عباده ، فقلت له بشر صاحبك بانه يدعو الى الله تعالى الذى يقول (ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها) (وهل جزاء الاحسان الا الاحسان)

حسن منصور

مدرس بمدرسة القضاء الشرعى فى شهر ابريل سنة ٩١٤

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذى أنعم على من اصطفى من النفوس البشرية بكؤوس المعرفة حتى أرواها وأرشدها بنور الالهام فلم يحد بها عن الجادة هواها وشرف الفضلاء بما أودع فيهم من الاخلاق المرضية ، وفضل العلماء

بما ورثهم من حفظ أسرار الشريعة الاسلامية ، والصلاة والسلام على من فضله الله على كافة الخلق على الاطلاق لتتميم مكارم الاخلاق سيدنا محمد الذى ما نطق فى تبليغ شريعته الغراء عن الهوى ، وما ضل فى هداية أتباعه عن الحق وما غوى ، وعلى آله وأصحابه الذين قاموا بتشييد الحق وتأييده ، وتقويض الباطل وتبديده ، ومن تبعهم فسلك بهم سبيل السعادة ، وفاز من فيض الله بالحسنى وزيادة

أما بعد فقد سرحت نظرى فى مواضع من كتاب سبيل السعادة فى فلسفة الاخلاق الدينية ، وأسرار الشريعة الاسلامية ، تأليف العلامة المحقق والفهامه المدقق ، من له فى سبل التحقيق الجمع والقصر ، الاستاذ الفاضل الشيخ يوسف احمد نصر ، فوجدته كتابا بديعا لم ينسج ناسج على منواله ، ولم يحم أحد من المؤلفين حول شكله ومثاله ، لما احتوى عليه من بدائع المعانى التى يخالها الناظر مثانى ، ومن فوائد تزرى بالدرر صيغت فى الفاظ حسان غرر لم تصدر الا عن ملكة رصينة البنيان ، اذ تكفلت بأحكام هاتيك المعانى فى قالب التبيان ، فناهيك به من كتاب جلت مقاصده ، وطابت مصادره وموارده ، تقتطف من أوراقه ثمرات التحقيق ، ويفوح من أدراجه عبير التدقيق ، ويفوق بحسنه كل مؤلف ، ويسمو برونقه على كل مصنف ، قد أودعه مؤلفه مايكشف عن الابحاث القويمة غشاء غمتها ، ويحل من صعاب المشكلات العقيمة وثاق عقدتها ـ فلعمرى أن مؤلفه جاد بهذا التأليف على فضلاء هذا العصر وأجاد ، وحاز بهذا التصنيف رتبة الانفراد ، تقبل الله منه هذا

العمل الجليل المبرور ، وضاعف له عليه جزيل الاجور ، ونفع به الطلاب ، وبلغنى واياه الطلاب ، وجعلنا ممن ائتمر بالكتاب والسنة وانتهى ، والى الخير والكمال انتهى

عبد الغني محمود

أحد علماء الازهر والمدرس بمدرسة القضاء الشرعى

ابراهيم الحديدى من هيئة كبار العلماء بالازهر أول مايو سنة ٩١٤

تقريظ المفضال الكبير صاحب العزة

﴿ حفنى بك ناصف ﴾

(وقد أرسلنا اليه بعض الموضوعات فطالعها ثم كتب عليها)

قرأت هذا الباب وهو بعض الكتاب ، فاستفدت منه مالم أستفده من عدة أسفار ، ووقفت منه على كشف كثير من الاسرار ، معان عالية وعبارات شافية فشكراً لفاتح هذا الباب وثناء على عمله المستطاب

(تقريظ امام اللغة الاستاذ العظيم الشيخ حمزه فتح الله)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيد رسله محمد وآله

أي شيخ الدين

تصفحت كتيبك الذى أسميته سبيل السعادة فأكبرته تكريماً وصغرته تعظيماً لكونى آنست منه مجتاحاً لأوهام الرين كخويخيه لبيد (١) (فى احدى الروايتين) مع جواهر عبارات يروق رواؤها كالخمر بعد الجمود ، والجمر قبل الخمود

أما مقدمته فقد تلوتها جمعاء لانها عين جواده النجلاء فأحمدته وما فررته ، بل قلت ان الجواد عينه فراره (٢) ومع وضوح الحق منه كيف يراد بالهوان عراره ، فلقد شخصت الداء فنجع الدواء أجل أن صحة التشخيص هى الطب بعينه غير انه قلما يهتدى اليها ،

---

(١) يشير الى قول لبيد

وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهية تصفر منها الانامل

وفى روايه خويخيةوهى بمعناها

(٢) مثل يضرب لمن يدل ظاهره على باطنه وأصله من فر الدابة كشف عن أسنانها لينظر ما سنها وهو مثلث الفاء

قالوا لان أعراض الاخلاق قد تتشابه لسبب ما وهنالك مزلة اقدام النطس ، لانها اذا عولجت حسب ظاهرها كان الدواء شراً من الداء ،

يألم الشيخ وحق له أن يألم من نبذ بعض أحداثنا دينهم ، ولو درى أن لا ثبب لذلك سوى استحكام الشهوات البهيمية فى نفوسهم الدنية لهان عليه الخطب فانهم قلدوا بعض متعلمى الفرنج وهم أولوا القوة الآن فى أن المروق من الدين شرط لكل مستنير بالعلوم التى يسمونها عصرية لانه يحظر عليهم تلك الشهوات بعد اطلاق الحرية

وثالثة الاثافى فقدان الوازع والاسوة ببعض من شأنه أن يقتدى به وزعمهم أن فى تلك العلوم ما لا ينطبق على الدين فنسبوه للقصور والجمود وعدم الصلاحية للقرن العشرين فاجترأوا عليه بالالحاد وطفروا لنحلة الاجتهاد ولو عقلوا ما أنتجه هذا المروق لأراحوا واستراحوا ، ياهيء مالى (١) مع كونهم لم يعرفوا من الدين غير اسمه ولا من علمه سوى رسمه ولا ان المرتد لم يكن مؤمناً والا انقلب العلم جهلاً ثم نضم الى السبب السابق جيشان سورة الراح الذى لم يبق من عقولهم الا مقدار ما بقى فى الاقداح وكأنما عناهم من وصفها بقوله :

مضى بها ما مضى من عقل شاربها وفى الزجاجة باق يطلب الباقى

ولولا أنه ليس فى الشر خيار لقلنا أنهم لم يحسنوا الكفر كما أحسنه

---

(١) كلمة أسف وتعجب

شيخهم ابليس اذ توكأ على شبهة عنصرية باطلة ، وما دروا أن تقليدهم من ذكر مقتض لثباتهم على الدين فجعلوا المقتضى مانعاً والموجب سالبا ذلك لان صاحبه عليه الصلاة والسلام صح عنه الاخبار بما كان وما يكون (١) حتى هذا التقليد وحتى المسألة الشرقية (٢) التى تجيش مراجلها الآن مشبهاً لهـا بما شبهتها به أوروبا وتلك معجزة أخرى ونسوا أو تناسوا أن أساطين الفلاسـفة فى أوروبا وأمريكا مجمعون الآن على أن كثيراً من مكتشفات هـذه العلوم حدس وتخمين ورجم بالغيب وانه عسى أن يثبت لهم غداً ضد ما أثبتوه اليوم كما ثبت لهم اليوم ضد ما أثبتوه أمس

ونحن لا نبخسهم أشياءهم فى تقدمهم المادى وانهم فى ازدياد منه

---

(١) الاخبار بما كان وما يكون فى صفحة ١٠٦ من الجزء الرابع من صحيح البخارى

(٢) قال فى مشكاة المصابيح عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم توشك الامم أن تتداعى لمقاتلتكم وكسر شوكتكم وسلب ما ملكتموه من الديار والاموال كما تتداعى الآكلة الى قصعتها فقال قائل أمن قلة يومئذ قال بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل (اى) لقلة شجاعتكم ودناءة قدركم وخفة أحلامكم وعدم اتحادكم ثم قال فى آخر الحديث ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن رواه أبو داود والبيهقى فى دلائل النبوة

كل يوم ونؤيد اجماعهم هذا بأن ظواهر الكون لا تكاد تتناهى وانه يجوز أن يكون لها دواع خفية هي أسبابها الحقيقيــة المطابقة للدين ، فالاوباء مثلاً سببها الديني فشو الكبائر فان لم ينقضوا ما اكتشفوه من ان سببها فساد الجو وتلك المكروبات فيجوز أن ذلك يخلق عند هذا الفشو وعلى ذلك فقس

وقد تقرر عند الفضلاء أن عدم العلم بشيء لا يستلزم عدمه وان عدم الدليل لا يقتضي عدم المدلول ولا مانع أيضاً من أن يكون لجملة هذه المكتشفات أو كلها سابقــة في الوجود أخنى عليها الذى أخنى على لبد وان في بناء الاهرام وحفظ جثمان للموتى الذى لا تزال تجهله أوروبا وفي تلك الصور المنقورة في جزر مقابر الملوك تجاه مدينــة الاقصر واختلاف ألوانها التى تتغير بأدنى ضوء بيد من يتأملها معرشدة ظلام قيعانها المنحوتة في قاع الجبال واستحالة صنعها في ذلك الظلام وهي الآن كأنما رفعت عنها يد الصناع ما فيه كفاية للمنصف ولذا ضعفت ثقتهم بالمادة وأولعوا بما وراءها كما ستسمع

اما ان شيئاً من تلك المكتشفات منتحل عنا أو متوارد عليه فمحقق حتى في الجاهلية كالتنويم لمعرفة المجهول واستحضار الارواح واراقة الزيت في البحر وتلقيح الرياح وبرد الحمى بالماء وتتريب مولغ الكلب والعلاج بالحفا وأما التيقيظ لتلك المعرفة كما فعله بعض الخلفاء فلم يبلغنا استعماله في أوروبا ويرحم الله جار الله حيث يقول :

العلم للرحمن جل جلاله وسواه في جهلاته يتغمغم (١)

(١) تغمغم ذهب في الماء وغمر به حتى غرق

م. بالترب والنجوم وتم يحيط يعلم أنه لا يعلم

لا جرم أن فى المركبات العنصرية خواص تستتبع آثاراً عجيبة كالمغناطيس والكهربا والحجر الباغض الخل اذا أهوى به اليه تحرف فسقط بعيداً عنه وكالحجر الجاذب للمطر مع قصر العقول عن معرفة كنه الخواص الناشئة عنها تلك الآثار وانه يجوز أن يدرك بحاسة ما يدرك بالاخرى كل ذلك فرغت منه علماء الملة السمحة قبل خلق أولئك الاساطين ولست أحيلك على كتبنا بل على تلك الفلاسفة راجع المقتطف والهلال بعنوان آيته فى خلقه والفتاة الايطالية التى تبصر بالسمع وتذوق باللمس وما قاله رئيس وزراء انجلترة سابقاً المسيو بلفور وقد رأس مجمع ترقى العلوم البريطانية بمدرسة كمبرج الجامعة اثناء أغسطس سنة ١٩٠٤ مما قضى به على معرفة كنه المادة وأن منتهى علمها مبتدأ جهلها كما يقول الشاعر العربى

كأن الحب دائرة بقلبى فحيث الابتداء الانتهاء

وصرح بعض جهابذتهم بانه متخوف جداً من أن علومهم التى يفتخرون بها الآن يظهر بعد مائة سنة انها باطلة منسوخة وهى شنشنة أعرفها من أخزم فان دعائم الفلسفة القديمة أفلاطون وأرسطو و بطليموس وجالينوس قادحون فى الحس

بلى ان الجامد من رمى الدين بالجمود اذ هو كافل لصلاح العالم معاشا ومعادا

وفى قضاء أمير المؤمنين على عليه السلام فى نازله ان أهون السقى

التشريع وقول عمر بن عبد العزيز تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور وما لا يحصى من هذا القبيل غناء لمن تدبر ، فما أحسن قولك من أنت يا رسطو الخ (١)

نعم واذكرني مقولك في العقل ما ذهب اليه الشيخ الاكبر قدس سره من تقديم الدليل النقلي على العقلي فقال :

على السمع عولنا فكنا أولى النهى ولا علم الا ما يكون على السمع

وقال :

كيف للعقل دليل والذى قد بناه العقل بالكشف انهدم

الى أن قال :

كل علم يشهد الشرع له هو علم فبه فليعتصم
واذا خالفه العقل فقل طورك الزم ما لكم فيه قدم

ويؤيده قول الامام الشافعي رضى الله تعالى عنه ان للعقل حدا ينتهي اليه كما ان للبصر حدا ينتهي اليه وقول الامام الغزالي ولا تستبعد أيها المعتكف فى عالم العقل ان يكون وراء العقل طورا آخر يظهر فيه ما لا يظهر فى العقل الى آخر ما قاله وقال أيضا أنه بعد وقوع بعثة الرسل وثبوت تصديقهم بالمعجزات ينتهي تصرف العقل ويتلقى من الرسول

(١) يشير الى قولنا اثناء الكتاب فى بعض الموضوعات

من أنت يا رسطو ومن أفلاط قبلك قد تفرد
ما انتموا الا الفرا ش رأى السراج وقد توقد
فدنى فاحرق نفسه ولو اهتدي رشداً لابعد

عليه الصلاة والسلام ما يقوله فى الله تعالى وفى أمر المبدأ والمعاد . وليس فى عدم ادراك العقل حكمة بعض الشرعيات كالتعبديات من مناسك الحج وغيرها وكالقضاء والقدر من ضير لقصور الافهام من أغلب المكلفين والنهى عن تحديثهم بما لا يفهمون اشفاقا عليهم والا فذلك من أحاسن الحكم ما تخنع له أعاظم العقول السليمة لانه اذا كانت أفعال عقلاء العباد تصان عن العبث فكيف بالمعبود تقدست أسماؤه وجل ثناؤه ومع قيام القواطع العقلية والنقلية على وجوب اتصافه تعالى بكل كمال وتنزيهه عن كل نقص كيف يسأل عما يفعل وفى القوانين الحربية المتبعة الآن فى أوروبا وغيرها أن أوامر القواد واجبة التنفيذ فورا ولو كان فيها حتف المأمور وانه لو قال لآمره لم ذلك لكان جوابه اطلال دمه وأنت لو استفتيت وجدانك لشعرت باستقباح ذلك لمخدومك أو رئيسك بل لمن تحترمه وتعتقد كماله من أمثالك لانه لم ريبة تشعر بالتهمة وهى سبب الخذلان الابدى لابليس وحزبه

أيهذا الاحمق أتدرى من اتهمت وعلى من اجترأت وفى من ارتبت ومن أسمائه الحسنى الحكيم وما قدروا الله حق قدره سبحانه فلولا حلمه لهوى عرشه

وان قميصا خيط من نسج تسعة　　وعشرين حرفا عن معاليه قاصر

ويكفيك من هذا الجمال اشارة　　ودعه مصونا بالجلال محجبا

لا فى عبد مثلك تكسره الجوعة وتطغيه الشبعة وتستفزه بوادر القوة الغضبية وتستعبده الشهوة الحيوانية .

على ان فى الاذعن مع خفاء الحكمة كسراً لحدة النفس الامارة وتربية لها وتدريجا لترقيتها وشتان بين من يعمل لمجرد الانقياد والخضوع لرب العباد وبين من يعمل عالما بالحكمة والمصلحة اذ ربما خالطه العجب فاحبط أعماله

وبالاجمال فقد أحسنت يا شيخ الدين وأديت فرض الكفاية عن علماء المسلمين وشفيت السقام ورويت الأوام وكشفت اللثام عن ان فى الفلسفة قديمها وحديثها ما وهن ووهى وان الى ربك المنتهى

الفقير اليه عز شأنه

حمزه فتح الله

فى ٢٤ ربيع الانور سنة ١٣٣٢

﴿ فهرست كتاب سبيل السعادة ﴾

صحيفه

٣ مقدمة الكتاب

٧ ايقاف القارىء على بعض ما فى الكتاب

١١ مقدمات يشيد عليها صرح بناء الاخلاق

١١ الانسان مجمع العجائب والغرائب

١٥ حقيقة فلسفية ضل فيها كثير من الناس

٢٠ الروحانيات

٢٠ اثبات الروح

٢٣ ايضاح وبيان

٢٨ سبب اشتباه الماديين وغلطهم فى هذا الموضوع

٣٣ شرح بعض صفات الروح

٣٤ أدلة اثبات الروح من كلام علماء الاوبنوتزم والاسبرتزم

٤٠ ما نقل عن حجة الاسلام أبى حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هجرية في هذا الموضوع

٤٢ محاوره علميه مع بعض ذوى العلوم الجديدة

٤٤ بيان شوق الارواح الى العلوم والمعارف

٤٥ السر فى تفضيل اللذة المعنوية على اللذة الحسية

٤٦ بيان ان النفس اذا تزكت اطلعت على المغيبات

٥٠ الفرق بين الاولياء وغيرهم فى هذا الموضوع

٥٣ بيان معنى مرض القلوب وموتها والسبب فى عدم احساس الناس بذلك
٥٧ النفس وما جبلت عليه بعد اتصالها بهذا الهيكل الجسماني
٦١ سبب تقدم المنافقين ورفعتهم
٦٢ بيان السبب فى أن الانسان لا يعرف عيب نفسه
٦٦ بيان ما هو الطريق الى معرفة عيوب النفس
٦٨ بيان اختلاف الناس فى قبول الاخلاق وما للمخالطة من الآثار الحسنة والسيئة
٧٢ بيان تفصيل الملكة الانسانية وذكر أمثلة لها
٧٤ وجهة أخري فى البيان
٧٨ بيان ما تكتسب به الاخلاق الفاضلة
٨٢ كلمة بمناسبة ذكر القوانين
٨٤ توجيه نظر الي أمريفيدك
٨٦ بيان أن سعادة الانسان وشرفه ليسا بكثرة المال
٨٨ بيان أن طالب الدنيا محال عليه أن يستريح
٩٠ بيان أن الناس متساوون فى السعادة والراحة لولا توهم باطل
٩٣ الكافر يطلب الدنيا والمؤمن يطلب الدنيا والآخرة
٩٦ القول الفصل فيما جاءت به الشريعة من اللذائذ البدنية والمطالب الدنيوية
١٠٢ تتمة للموضوع بذكر سانحة فيه
١٠٤ الشرعيات
١٠٤ الشريعة منبع السعادة

١٠٧ ذكر شيء مما جاءت به الشريعة على التفصيل
١١٦ مقارنة الشريعة بالقوانين الوضعية
١٢٠ الاسلام دين الرحمة والحكمة لا دين القسوة والتعصب
١٢٥ الدين منبع السياسة الحقيقية والتربية الصحيحة
١٣٣ أحاديث نبوية فى مكارم الاخلاق
١٣٩ ذكر شيء من شمائله صلى الله عليه وسلم
١٤١ آيات من القرآن العزيز
١٤٤ أوصاف المتقين
١٤٤ أوصاف المنافقين
١٤٥ عجيب أن يعادوه فى بلادهم ويدعونا اليه ههنا
١٥٠ أسباب الشقاء التى يجب البعد عنها
١٥٣ غلطات ينبغى التنبه لها
١٦٢ كلمة عن العلماء
١٦٥ بيان السبب فى أن الدين لا يؤبه له ولا يرتفع صوته
١٧٠ بيان الواجب فى هذا الموضوع على الامة عموماً وعلى مشيخة الازهر خصوصاً
١٧٤ تكميل جليل فى فوائد متفرقة
١٩٢ الفرق بين اهل الدين وغيرهم
١٩٦ تأثير عمل الخير والشر فى نفوس العاملين
١٩٩ خاتمة فى بيان معنى العالم الذى نوه الدين بذكره

(تنبيه)

يوجد بالتقاريظ بعض غلطات مطبعية خفيفة لما اقتضاه الحال من الاسراع بطبعها وهى من الوضوح بحيث لا تحتاج الا الى هـذا التنبيه الاجمالي

كتاب

سبيل السعادة

(فى فلسفة الأخلاق الدينية وأسرار الشريعة الاسلامية)

« واثبات الروحانيات وفيه رد جليل على الطبيعيين »

تاليف

« فضيلة الأستاذ العلامة الجليل »

(الشيخ يوسف أحمد نصر الدجوى)

« حقوق الطبع والاعادة محفوظة للمؤلف »

سنة ١٣٣٢ هـ — ١٩١٤ م

« كل نسخة لم تكن مختومة بختم المؤلف تعد مسروقة ويحاكم حاملها »

مطبعة النهضة الأدبية أمام مدرسة الحقوق

مقدمة

تشتمل على سبب تأليف الكتاب وبيان بعض أوصافه

قد تضمنت حقائق كثيرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على آلائه ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ، وآله وأصحابه (وبعد) فقد منى الاسلام من أبنائه بما شوه وجهه الجميل ، وكاد يذهب برونقه وبهائه ، ويمثله للأجانب فى شكل المعتقدات الخرافية ، أو الصور الخيالية ، وقد وجدنا الأخلاق الدينية والتعاليم الاسلامية قد عفت رسومها ، وامحت آثارها من نفوس كثير من شباننا الذين دهمتهم تلك النزعات الجديدة ونفوسهم مستعدة لقبول ما يغرس فيها من خير أو شر ، ولكن لسوء حظهم وعدم حظنا بهم لم يتح لهم الا ذلك الشر المستطير (فصادف قلباً خالياً فتمكنا) فضاعوا منا وما كان أحوجنا اليهم وما كان أقواهم لو كانوا معنا لا علينا

وأن لهم لدى الانصاف ما يحرك منك الرحمة ، فتلتمس لهم بعض

المعاذير كما أن لا بائهم وعلمائهم وأمتهم من الذنب ما تأبى غيرتك وحميتك أن نغفره لهم حيث أغفلوا تربيتهم الدينية، ولم يعنوا بما يجب أن يكونوا عليه من الملكات الفاضلة، والاخلاق الكاملة، واصلاح ظاهرهم وباطنهم، ودينهم ودنياهم، فعلى الأمة أن تتلافى ذلك الخطر الذى لو دام (لا قدر الله) لأتى على بنيانها من القواعد وفكك أعظم روابطها، وقضى على أكبر جامعة لها، فانفصمت عراها، وقد كانت أقوى العرى، وأنجع الوسائل فى ائتلاف العناصر المختلفة والشعوب المتباينة، وعلى العلماء ان يستثيروا الحمية من قلوبهم، ويؤدوا واجب وظيفتهم الدينية، ويقوموا بمقتضى وراثتهم النبوية فقد كان ينبغى أن يكونوا حماة الدين، ومثال اليقين، ولا يدعوا أبناء المسلمين تتخطفهم من حولنا بهرجة المدنية الغربية التى اعتقدوا كمالها فى العلوم والمعارف، والاخلاق والعادات، فرجعوا الى تعاليمها فى كل شئ حتى فى الأمور الدينية، والاسرار الروحانية، كما اعتقدوا (ونعتقد معهم) كمالها فى الصناعات والاختراعات وجميع الجثمانيات، فلينهبوا العلماء من سباتهم كى يرفعوا للدين مناره، ويبينوا للناس أسراره، وليتحركوا أيدهم الله بحركة هذا العصر الحاضر فأن الحكيم ابن وقته، وأنى أجلهم أن لا يكون قد قرع سمعهم صوت هذا العصر الذى أزعج عوالم الماء واخترق جو السماء، وأن المتكلمين فى الدين اليوم الذين يزعمون أنهم حماته وأنصاره لا يكادون يتخطون أحد رجلين:

رجل لم تبعثه التقلبات على كثرتها، والحوادث على شدة شكيمتها،

ن مرقد جموده على ما ورث مما كان يناسب قوماً آخرين وكأنه
وهو بين ظهرانينا) من رجال عصر لا ينبئك عنه سوى التاريخ فلم
يسمع بنبأ الانقلاب فى الأفكار والتبدل فى طريقة الاستبصار (وقد
يير الداء فيجب تغيير الدواء) فتراه يجيل ذلك كله فاذا خطب
ينقب عن أسرار الدين تنقيب العالم الحكيم، فيبرزها ناصعة تتجلى
ب ثوب من الضياء، وقد أقشعت عنها غيوم الخفاء، فرآها ضعيف
لنظر، ولم يعش عنها كليل البصر، بل تجده يحيطها بما شاء له استعداده
ن قشور رسميكة، وحجب كثيفة، وربما سار بها فى طريق التخيلات
و مزجها بكثير من الترهات، فنفرت منها العقول، ونبت عنها أنظار
القلوب، وقد يدعوا ذلك الى شدة انتقاد وسوء اعتقاد

وإذا كتب فانما يكتب بقلم دفن تحت أطباق الثرى حتى
انحلت أجزاؤه، وتفرقت عناصره، فأصبح غير كاف فى الافاده،
ولا صالح للكتابة

ورجل عصرى عرف ما تداوى به الادواء، وتميل اليه الاهواء
وقد كاد يرجى منه الشفاء لولا انه غير مكين فى العلم ومعرفة أسرار
الدين ومراميه، وليس له من سعة النظر ومتانة اليقين ونور البصيرة
ما يوقفه على مزاياه، ودقائق خفاياه فلم يستطع أن يرد بعدة علمه
الضئيل تيار المعلومات الجديدة، ويقاوم جيش تلك الافكار الحادة
وكثيراً ما تغلب عليه المحافظة على العلوم الحديثة، والرسوم الجديدة
(وهى مزيته التى امتاز بها على غيره) فيعدل بالدين عن سننه،

وينحرف به عن طريقه ، غير متغلغل الى روحه الباطن . ولا واصل الى مرماه البعيد ، فكانت النتيجة أنه أراد أن يهديهم فأضلوه ، وأن يأخذهم فأخذوه ، فانه أوتى من الحظ اللسانى أكثر مما أوتى من الحظ القلبى ، فأحببت أن أبرز لك مؤلفاً تجد فيه طلبة روحك وبدنك ، وبغية علمك وعقلك ، وسعادة دينك ودنياك ، وأنى معك على ما تحب من الدليل والبرهان . والذوق والوجدان ، فهاك كتاباً يجمع بين الطريقة العصرية ، والدقة الفلسفية والوجهة الدينية ، والبراهين العقلية ، ويوافيك بما تتوق اليه نفسك من أسرار الدين ، ومكارم الاخلاق ، وعلاج أدواء النفوس ، مرشداً الى أن التربية ليست على مايظن الناس ، مبيناً ماأودع فيك من أسرار غفلت عنها ، وأوغلت فى البعد منها . وقد كنت بها روح المكونات ، ومرآة تتجلى فيها جميع الصفات الالهية ، ومظهراً لجميع العوالم العلوية والسفلية ، وأن ما تشرئب اليه وتتلهف عليه ولا تدرى متى تصل له من الراحة والسعادة يجب أن تبحث عنه فى طوايا نفسك التى كمن فيها من نفائس الكنوز ما يجعلك ملكاً عظيماً ، أو ملكاً كريماً ، فتستوى على عرش العزة القعساء ، وتمر على كل من فى الدهماء بالتيه والخيلاء ، لا أن تطلبه من الخارج الذى أوجب لك الشقاء وأضاع منك الهناء

دواؤك فيك وما تشعر ☆ وداؤك منك وما تبصر
وتحسب أنك جرم صغير ☆ وفيك انطوى العالم الاكبر

الى آخر ما تقر به عينك ، ويصفوا به عيشك ، ويستريح له وجدانك

ن شاء الله ، وسأفرغ الوسع فى بيان محاسن الدين الاسلامى لأبناء
لامة الذين جهلوه فعادوه ، مزيلاً سوء التفاهم بينهم وبين العلماء ،
موافقاً اياهم فيما يريدون من عرض كل شىء على العقل ، ووزنه بميزان
لفهم ، غير أنه ليس من الحق فى شىء أن يكون كل عقل حاكماً
فى كل شىء ، واذا كنت لا تحكم فى المسائل الطبية الا بعد مراجعة
الطبيب بل لا تثق بنفسك فى شأن من شؤون حقولك الا بعد
مشاورة الزراع ، ولا فى أمر قضاياك الا اذا عرفت رأى علماء القانون
فليس من الانصاف بعد ذلك أن تحكم بعقلك فى كل ما تسمع من
أمور الدين ، دون أن تراجع فيه الكلمة من ذويه الذين أفنوا فيه
أعمارهم واستنفدوا قوتهم . عالمين أن له مرامى بعيدة تناسب واضعه
(الحكيم الاكبر عز وجل)

(ايقاف القارىء على بعض ما فى الكتاب)

قد أكثرنا فى هذا الكتاب من ذكر الأمور الروحانية
والحقائق الدينية ، وتوجيه الانظار الى طلب السعادة الحقيقية ، رغبة
فى اقتلاع أصول الشقاء من قلوب اخواننا العصريين الذين أعدوا
نفوسهم للعدوى بكل أمراض الغربيين ، وقد سبقت الى ألواح
نفوسهم نقوش المدنية الجديدة التى تعادى الدين ، وتحقر المسلمين
فنحن نحاول بكل جهد وتلطف أن نزيل تلك النقوش من ألواح
النفوس ، ونثبت فيها نقوشاً اسلامية نكثر فيها من ذكر الارواح

مذهبهم بين شباننا ومتعلمينا اغتراراً بما تعلموه من ظواهر الطبيعة التى قال فيها الفيلسوف الكبير (باكون) من أخذ علم الطبيعة رشفاً بأطراف الشفاه كان ملحداً ، ومن شرب به عباً أوصله الى الخالق

هذا وقد سميته (سبيل السعادة) ليكون اسماً ينبئ عن مسماه ولفظاً يشير الى معناه ؛ والله المسئول أن يرزقنى فيه خالص الاخلاص ويرزقك به مزيد الانتفاع فى دينك ودنياك

وانى مستعيذ به من تشدق المتفيهقين ، وتنطع الجامدين ، وقصور الجاهلين ، وتأول الحاقدين ، انه على ما يشاء قدير ، وبتحقيق أمل الآملين جدير

يوسف نصر الدجوى
المدرس بالأزهر الشريف

(تنبيه) — وقع فى هذه المقدمة تلك العبارة (سيراً تكلفياً لاطبيعياً) وقد آثرنا التعبير بذلك مع كون قواعد النسب توجب حذف الياء فيقال طبعى لا طبيعى علما بأن السامع اذا سمع مثلاً كلمة طبعى أو بدهى فى طبيعى وبديهى أخذت غرابتها بنفسه فانصرفت عن المعنى مع ملاحظة ان كتب الاخلاق انما ترمى الى تكييف النفوس بمعانيها فليست على نحو كتب الادباء التى ترمى الى الاغراض اللفظية (ولكل وجهة هو موليها) ولعل أفضل ما ترمى اليه كتب الاخلاق هو تكيف النفس بالسهولة والسيولة وعدم الجمود وترك التكلف فى الاشياء كلها . وقد أخرنا هذا التنبيه ولم نضعه هناك حرصاً على قلب القارىء أن يتفرق قبل تمام الموضوع

(مقدمات يشيد عليها صرح بناء الاخلاق)

« الانسان مجمع العجائب والغرائب »

يخيل لى عند ما أردت شرح الانسان وبيان ما فيه من عجائب الصنع وبدائع الخلقة ، أنى كلفت نفسى أن تقتلع جبل (أفرست [١]) أو تستنزل الثريا من مكانها الرفيع ، بل أن تعرف جميع ما فى العالم من أرضه وسمائه ، وفرشه وعرشه ، وتزن ذلك كله وزنه الحق بميزان فكرها الضئيل ، وتنظره ببصر عقلها الكليل ، ولعلك تستغرب من ذلك التهويل ، وتعده ضرباً من مبالغة الكاتبين ، ولكن يزول عجبك ويستقر وهمك هادئاً مطمئناً ، اذا عرفت ان هذا الانسان الضعيف نسخة من العالم الكبير يمثل كل ما فيه ، بل ان شئت فقل انه يزيد عليه بخصائص لا توجد فى غيره . ولذلك جعله الله خليفة عنه فى هذه العوالم الارضية ، وأسجد له ملائكته المقربين ، فله اذاً الرياسة والشرف على جميع العوالم العلوية والسفلية ، بل يزداد فرحك واعجابك بنفسك اذا عرفت أنك مستعد لأن يفاض عليك من الصفات الالهية ما يجعلك ربانياً تنفعل عنك العوالم كلها ، وناهيك بمن يقول الله فى شأنه (اذا أحببت عبدى كنت سمعه الذى يسمع به ، و بصره الذى

---

(١) هو جبل بسلسلة جبال هملايا بآسيا ارتفاعه ٦٨٤٠ متراً ويقال انه أكبر جبال الدنيا

يبصر به ويده التي يبطش بها): فماذا يكون حاله؛ والى أى حد يبلغ بطشه؛ والى أين ينتهى بصره ؛ اللهم ان هذا فضل عظيم وملك جسيم قد رشحوك لأمر لو فطنت له ☆ فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وما سمعنا بهذا الفضل وذلك الاستعداد لأحد من المخلوقات ، ولعلك بعد هذا قد أشرقت شمس بصيرتك فتفهم من قوله تعالى مخاطباً لابليس (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى) أن هذه التثنية اشارة الى انه لم يوجد من المخلوقات مستعداً لأن يكون مظهراً لصفات الالوهية المتقابلة ، كمزيد الرحمة وشدة الانتقام ، والقبض والبسط وغير ذلك ، الا الانسان دون غيره من المخلوقات حتى الملائكة فان من خلق منهم للرحمة مثلاً لا يستطيع أن يتصف بغيرها فليس للملك الا صفة واحدة خلق عليها ؛ وأما ظهور تلك الآثار المتضادة ، والاتصاف بتلك الصفات المختلفة المتقابلة فهو من خصائص الألوهية التى تدبر كل شئ ، وتفيض على كل شئ وقد اصطفاك أيها الانسان الكريم فجعلك مظهراً لتلك الصفات كلها ، ولكنك جهلت قدرك ، وأغفلت أمرك

اذا فهمت ما ذكرناه من أن تلك الآية التى تشير من طرف خفى الى أن غير الانسان قد خلق بيد واحدة وأما هو فقد خلق باليدين جميعاً لم تكن مبعداً ، ولا متعسفاً ، وأظنك (وقد وصلت الى هذا الحد من شرف الانسان) قد امتلأ قلبك بفضله وكماله ولكن أرانى مضطراً ان أتلوا عليك من نبأ نقصه عجباً يدهش اللب ويحير القلب فأقول :

ان الانسان وان كان جامعاً لتلك الفضائل التى تقدم اجمالها الا أن فيه بأزاء تلك الكمالات التى لا تتناهى نقائص لا يحصرها التعداد . ولا يأتى عليها البيان ، ففيه من كل شر خلقه الله فى العوالم كلها ، فاذا تصورت فى الاسد قسوة شديدة وافتراساً هائلاً ، أوفى الدب شرها ممقوتاً أو فى الحيات ايذاء مفزعاً أو فى الثعلب روغاناً محيراً أو فى القرد تلوناً مدهشاً الى أن تأتى على جميع أنواع الحيوانات (١) فاعلم أن تلك الطباع كلها موجودة فى الانسان بأتم معانيها وعلى النحو الذى لا يوجد فى شئ من أفراد الحيوان ، فان الانسان معه العقل الذى يدبر ذلك الشر ، والفكر الذى يصرفه حتى يظهره على فنون شتى وأساليب كثيرة ويتوسع فيه ما شاء أن يتوسع ، حتى يشبع غريزة خبثه التى لا تشبع (وليس فى الانسان شئ يشبع) بل اذا دققت النظر وعنيت بالتنقيب عن الفلسفة فى ذلك الموضوع وجدت الانسان قابلاً لأن ينزل عن حضيض الحيوانات بما لا يعلمه الا الله (والانسان لا يقف أصلاً بمقتضى حقيقته فهو فى صعود دائم أو هبوط دائم ولا نهاية للنقص ولا للكمال) فاذا نظرت للعقرب مثلاً لم تجد فيه من خصال الشر غير شئ واحد ، واذا نظرت للثعلب وجدته كذلك الى آخره وربما اشتهت نفسك أن ترى شيئاً يكون نمراً وعقرباً ودباً وثعلباً فى

(١) أستسمحك فى مثل هذا الجمع وأحب أن تغلب عليك الوجهة العقلية على ان الشهاب فى شرح الشفاء أجاز أن يجمع ما لا يعقل بالالف والتاء مطلقاً .

آن واحد فيتبدد وهمك يعارضك بأن ذلك شئ تخترعه كما تشاء ولا يتأتى أن يكون له وجود بل لا يكاد يدخل فى عالم الامكان

فاذا تاقت نفسك الى ذلك المخلوق العجيب فبشرها أنك ظفرت بما تريدوفوق ما تريد مما لا يدور لها بخلد ،ولا يخطر لها على بال . ذلك العقرب الذى هو ثعلب وهو بعينه نمر كما هو قرد هو الانسان الذى يتلون تلون الحرباء ، فبينما تراه أتقى الاتقياء اذ تراه أشقى الاشقياء ، و بينما تراه أعدل العادلين ، اذ تراه أظلم الظالمين ، و بينما تراه يمثل الارانب فى ضعفها وخورها ، اذ تراه يمثل الاسود فى شدة بأسها وعظم سطوتها . و بينما تراه أول قانع ، اذ تراه أكبر طامع و بينما تراه فيلسوفاً قد سار الركبان بحديث نظرياته ، اذ تراهقدتهوس فى بعض الضروريات وانحط الى أسفل الدركات ، ولقد أصبحت ولا أجدنى أستغرب من تضارب الآراء وتناقض الأذكياء ، وصرت أشك فيمن أصطفيه؛لعلمى انه بعض الأنام كالانسان الذى يعجبك شكله ويستهويك قوله يضم بين جوانحه من الصفات التى يتقلب فيها متى شاء وكيف شاء ما يربوا على رذائل الحيوان ، وخبائث الشيطان

واذا نظرت اليه من وجهة أخرى وجدت فيه ما يشبه الجماد والنبات والبحار والجبال والارض والسماء وتبين لك أن نسبة الروح الى الجسم كنسبة العرش الى المخلوقات ، والدماغ كالكرسى الذى وردفى لسان الشرع والحواس كالملائكة الذين يطيعون الله طبعاً ولا

يستطيعون خلافاً والاعصاب والاعضاء كالكواكب ، والقدرة كالطبيعة المسخرة المركوزة فى الاجسام ، ومرآة التخيل كاللوح المحفوظ الى غير ذلك مما لا يعنينا القول فيه الآن

فالخلاصة أن الانسان مستعد لأن يكون أرفع المخلوقات على الاطلاق وأحطها على الاطلاق وأنه مكمن جميع الفضائل والرذائل ومظهر المتضادات ومجمع العجائب والغرائب.

(حقيقة فلسفية ضل فيها كثير من الناس)

تعلم رعاك الله أن بعض الناس الذين رق دينهم ، وغلظ حجابهم، يتكلمون فيما نسب الى الانبياء مما لم يدروا له تأويلاً ، ولم يعرفوا له معنى فتراهم ينكرون ما جاء فى الدين من الروحانيات،وأمور الآخرة لان طبعهم الخبيث لا يقبله واستعدادهم الضعيف قاصر عنه ، وكثيراً ما يؤثر ذلك فى قراء الصحف والمجلات ، فأردنا أن نحذرهم من تقليد أولئك الجهلاء في مقالنا هذا وحاولنا أن نرجع ذوي الثرثرة الذين يريدون أن يطيروا بأجسامهم الثقيلة فى جو سماء الارواح الى خطة الانصاف ، حتى يعرفوا أن لهم درجة من العلم والاستعداد يجب عليهم أن يقفوا عندها ويدعوا ما وراء ذلك ولا يخوضوا فيه

وقد نشرت هذه المقالة بمجلة الملاجئ العباسية منذ زمان طويل فآثرنا نقلها برمتها لما فى الكتاب من الموضوعات الكثيرة التى تعلوا عن استعداد بعض الناس حتى اذا لم يصلوا اليها لم ينكروها فيكونون

من الذين يؤمنون بالغيب وهو نوع من الهداية وهاك نص المقالة بعد الديباجة :

أن التفاوت الذى بين أفراد الانسان لم يتفق مثله لافراد نوع آخر فليس هناك فرد يساوى ألف فرد أو أكثر من أفراد نوعه غير الانسان وأنه باعتبار أفراده لأرفع الانواع على الاطلاق وأحطها على الاطلاق وليس لكل فرد من تلك الافراد علم الا عن نفسه ولا خبر لديه عن معلومات الفرد الآخر وما هو عليه .

أن كل انسان لا يعرف الا ما يناسب استعداده الخاص ولا يمكنه أن يعرف ما يناسب ما فوقه من الاستعدادات وما لذلك من الاحكام الخاصة التى تعلو عن درجته فذلك عالم آخر بالنسبة اليه محجور عليه دخوله بمقتضى استعداده السافل ، حتى انه لا يكاد يصدق بأوضحها عند أربابها ، وربما كان البعد فيما بين ذلك وبين استعداده شاسعاً فلا ينفع فيه البرهان ، ولا يمكنه أن يدركه ، وكان كالذى يكلف أن يرى ما بعد عن متناول بصره ، وقوة نظره من المرئيات لغيره ، ولو ذكرت الكهرباء وآثارها للمصرى الساذج منذ مائة سنة ما صدقك ولو أقمت له على ذلك ألف برهان ، بل ذلك يجده الانسان من نفسه اذا تأمل فى أحواله وتنقلاته فى أدواره المختلفة يعرف أنه كان فى دور السذاجة ينكر ما يعتقد الآن فى دور العلم ، ولا يزال هكذا يترقى فى معرفة الحقائق « يعتقد اليوم ما كان ينكره بالأمس »

وقد استبانت تلك الحقيقة لأساطين الفلسفة فى أوربا فاعترفوا بأن ما يجهلون أكثر مما يعلمون وان هناك فوق استعدادهم ما لم يصلوا

اليه حتى الآن ، وقد قال الفيلسوف (سيزار لومبروزو) فى كتاب ألفه فى اثبات الاسبرتزم «استحضار الارواح» (لنحذر من ادعاء دقة العقل . واعتقاد ان كل من سوانا مخرفون واهمون ، ولنحترس من الزعم بأننا وحدنا العلماء دون غيرنا فان ذلك يوقعنا ولا شك فى الضلال والحيرة) ولو ذكر لأرسطو وأفلاطون وسقراط ان الماء مركب وأن الذهب غير مركب ، لأنكروا ذلك كل الانكار ، كما أنك تعد انحصار العناصر فى الأربعة التى يذكرها القدماء الذين يجعلون الماء بسيطاً والهواء كذلك ، جهلاً عظيماً أو خرافة لا تسمع ، فليس من العقل ان نحكم في كل شئ بالاحكام الجازمة ، بل يلزمنا ان نعتقد ان وراء استعدادنا ما لا يدخل تحت مداركنا

ولو فرضنا ان حاسة الشم مثلا كانت مفقودة من العالم كله لأنكروا نوع المشمومات بأسره لفقد آلة ادراكه فيهم

ولعل هناك من الأشياء ما لا يدرك الا بحاسة سادسة لم تخلق فينا أو فى بعضنا ، فكانت تلك الاشياء عنده داخلة فى عالم العدم لا فى عالم الوجود ، وهكذا كل انسان محصور فى سجن استعداده المحيط به من كل جهاته ، لا يمكنه ان يرفع رأسه الى ما فوق سقف ذلك السجن ، ولا ان يجاوز بصره ماوراء حيطانه ، وان كان فى وسط ذلك العالم الفسيح ، والاشياء موجودة فى أنفسها لا يؤثر فيها جهل الجاهلين بها ، وكل يرى منها على قدر بصر عقله ، فليست الاشياء كلها موجودة فى حقك ، أو لست أنت موجوداً الا فى بعض يسير منها ،

وان كان يخيل لك انك فى الكون كله

وبهذا تعلم ان حكم الطبقة الدنيا على الطبقة العليا لا يكاد يقرب من محل الصواب الا بالصدفة والاتفاق (١) ، أو بالقرب من درجة تلك الطبقة العالية، بل اذا رأينا شخصين من طبقة واحدة وقد صدر منهما فعل واحد لم يمكنا ان نحكم عليهما حكماً واحداً حتى نعرف مبدأ الفعل وباعثه وغايته التى تراد منه عند كل منهما ، فقد تكون صورة الفعل واحدة وهو حسنة كبرى بالنسبة الى شخص وسيئة عظمى بالنسبة الى آخر ، ودرجات الافعال فى ذلك وجزاؤها على ما يقتضيه وزنها الحقيق لا يتضح فى هذا العالم الا نوعاً من الاتضاح ، ولا يقوم بالجزاء الحق الا من علم كنه الاشياء على ماهى عليه فى الواقع، وليس الا الله تعالى كما قال (وان كانت مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين)

ولا بد ان تكون قد علمت بعد هذا ان كل انسان انما يحكم على حسب ما يريه بصره الضعيف أو القوى (المحدود على كل حال) وما بعد عما يتناوله ادراكه هو بالنسبة اليه فى عالم العدم، وان من الجهل ان يعتقد الانسان ان كل شئ يدخل تحت علمه ، ويمكنه ان يصل اليه

كما خلقت على حد محدود فى القوة الجثمانية، فلا تستطيع ان تنقل

---

(١) أستسمحك فى التعبير بكلمتى الصدفة والاتفاق وأمثالهما ولا أزال أكرر انه خير لك فى مثل هذا الكتاب أن تغلب عليك الوجهة العقلية

الصخر، ولا أن تحرك الجبل، ولا ان تسمع من الاصوات أو ترى من المبصرات الا على مسافة مخصوصة، ولا يمكنك أن تصل الى ما وراء ذلك ولو جهدت سمعك وأتعبت بصرك، كذلك خلقت على حد محدود فى عقلك وادراكك، فأنت محدود فى جميع أمرك مقيد فى استعدادك الباطنى، تقييدك فى استعدادك الظاهرى، وان كان يمكنك ان تترقى ولكن الى حد محدود أيضاً، ولكل من الدرجتين علوم تخصها لا يمكنك فى كلتا الحالتين ان تتجاوزها الى ما وراءها

وليس ذلك الاطلاق الذى تتخيل، والقوة غير المحدودة فى كل شىء، والعلم غير المتناهى، الا لله تعالى، وتعلم أن من الحكمة بعد ذلك الزام كل حده، حتى لا يحكم الصغير العقل، الضعيف الاستعداد، القليل المعلومات، النازل الدرجة، على العظيم فى كل ذلك

واذا أبينا على السوقى الساذج ان يتكلم في السياسة، ويحكم على قادة الأمم وكبرائها، بأحكامه الجائرة التى لا يشك هو فى عدالتها ويخطئهم في آرائهم التى لا يعرف أسرارها، ودخائلها، فكيف لا نأبى على هؤلاء الزعانف الذين لم يعرفوا من العالم المحسوس الا ظواهره فضلاً عن العالم الروحانى الذى لم يشموا له رائحة ان يتكلموا فى الانبياء والمرسلين، ويحكموا عليهم بجهلهم حكم من فى الارض على من فى السماء، فأمر الدين أدق وأغمض من أمر السياسة، وأرفع من ان يصل اليه أولئك الجثمانيون، وبينهم وبين الانبياء أبعد مما بين الملوك والسوقة، وأرفع مما بين الفرش والعرش، وان العلم أشبه شئ بالبحر ومن

نزل البحر ولم يحسن السباحة أدركه الغرق لا محالة ، وليست كل سفينة تصلح لكل بحر ، ولا ربانها يسير بها مع كل عاصفة ،

فعليك أيها الراغب فى سعادتك ، المحتاط لأمر دينك ، الخائف على نفسك ، ان تتقى لأمراض قلبك من العلماء كما تتقى لأمراض بدنك من الحكماء ، وان تحتاط فى تحصيل مزاياك كما تحتاط فى اكتساب قضاياك ، فوراء ذلك شقاء ما له غاية ، أو سعادة ليس لها نهاية

﴿ الروحانيات ﴾

« اثبات الروح »

رأينا أن نذكر لك كلمة عن الروح حتى تعرف خصائصها ، فلعلك تشتاق اليها ، وتسعى لها سعيها ، فتحيا حياة طيبة ، وتسعد سعادة أبدية وتكون انساناً تام الانسانية ، ولا تكون ممن أغفلها أو أنكرها ، فخسر خسراناً مبيناً (فأنت بالروح لا بالجسم انسان) غير انى أشترط عليك قبل الخوض فى الموضوع أن تتجرد عن كل ما علق بذهنك وتحكم عقلك ووجدانك ، ولا تنفر من أول الامر كما يفعله كثير من جهلة المتعصبين الذين يرثى لهم

واذا لم يصل فهمك الى شئ مما نذكره فلا ينبغى أن تجزم بعدم صحته ، وتسارع الى انكاره ، فلعله من الامور التى جزم بها غيرك

واذا كنت تسلم لأرباب العلوم الطبيعية آراءهم فى كل شئ

وتحسن الظن بهم فلا تبحث وراءهم فى شىء ، وتقول أنهم اكتشفوا (١) من النواميس الطبيعية ما لم نكتشفه ، فلعل أرباب العلوم العقلية أو الدينية قد اكتشفوا أيضاً من النواميس الروحانية ما لم تكتشفه أنت ، ولا وجه لأن تكذب فى هذه وتصدق فى تلك مع كونك بالظواهر الروحانية أجهل منك بالظواهر الطبيعية

واذا لم تر الهلال فسلم ☆ لأناس رأوه بالابصار

وقد تقدم فى المقالة السابقة ما يكفى لاقناعك وايقافك عند حدك وبعد هذا فأنا نصدع بالحق الصراح وندعك تعتقد ما تشاء فنقول :

أن فى الانسان جزءاً آخر غير ما نشاهده من هذا الجسم ، له من الخصائص ما يباين خصائص الاجسام ، فهو يقبل توارد المتضادات عليه ، واجتماعها لديه ، فى وقت واحد ، فيدرك الموت والحياة ، والترفع والتسفل ، الى آخر المتضادات ، بخلاف الجسم فلا يقبل السواد مع البياض مثلاً ، ولا الطول مع القصر ، وهى مدركة للروح معاً فى آن واحد ، واذا لم يقنعك هذا الدليل أتينا لك بدليل آخر عسى أن يكون أبين فى نظرك وأقرب الى اقناعك وأوفق بعلمك واستعدادك ، وهو أنهم قرروا أن الجسم بمنزلة الثوب الذى يستبدله الانسان بغيره كل مدة من الزمان ، فكذلك الجسم يزول عنك بواسطة التحليل

---

(١) يقال كشف بتشديد الشين ولا يقال اكتشف كما فى كتب اللغة وان كان شائعاً ولكن عبرنا بذلك لكونه المأنوس المألوف على أن باب التجوز لا حجر فيه

والتعويض كل مدة سبع سنين ، على ما يراه بعضهم ، فتطرحه وتلبس غيره

ولو كان كل غذاء ينقلب بعد أدوار الهضم جزءاً من جسمك بلا تحليل ، لكنت اليوم أكبر من الجمل ، وأعظم من الفيل ؛ فالجسم اذاً يتبدل و يتحلل لا محالة

ولكنك تحس بشئ فيك لا يتغير ولا يتبدل على تعاقب الحدثان ، تنسب اليه الافعال التي كانت منذ صغرك ، لأنه هو هو لم يطرأ عليه تحليل ولا تعويض ؛ وأيضاً من قطعت يده أو رجله أو غالب أجزائه يقول (أنا) ، بكل معنى الأنانية ، فهذا الجزء الذي تمر به الايام وهو كما هو لا يطرأ عليه زوال ولا يعتريه اضمحلال هو الروح وهو الذي يعبر عنه الانسان بـ(أنا) ولو قطعت جميع أجزاء بدنه

ولو رجعت الى وجدانك الصحيح ، وزالت عنك تلك الغشاوات كلها لرأيت أن هذا النظر الواسع ، وذلك الفكر الكبير ، وتلك الغرائز التي لا يكفيها هذا العالم الذي نحن فيه ، ولا يصلح لها الا عالم لا نهاية له ، حتى ينشأ كلها فى أحوالها ، ومطالبها ، لا يتأتى أن يكون لهذا الجزء المادى الأرضى الذي لا يفارق بقية المواد الأرضية فى شئ ويتعين أن تكون هذه الاحساسات وتلك الادراكات هى لشئ آخر علوى سماوى مجرد عن المادة وعلائقها ، صالح للبقاء السرمدى ، والا كان وضع تلك الغرائز فيه التي تكره الحدود والنهايات عبثاً محضاً لا يليق بحكمة الحكيم عز وجل

وأما لوازم الاجسام فعلى الضد من هذا، ومعلوم أن تنافى اللوازم يوجب تنافى الملزومات. وان كان لا بد لك من الرجوع الى أقوال الغربيين وآرائهم ويعسر عليك أن تقلد سواهم ولو بعد الدليل والبرهان فارجع الى ما قرره علماء الاسبرتزم (استحضار الارواح) فى ذلك تر العجب العجاب وسننقل لك نبذة منه بعد

(ايضاح وبيان)

ان الانسان يحمل فى ذاته شعوراً غير محـدود، ويعرف كمالاً لا نهاية له ، والعالم الجسمانى كله محـدود، فلا بد أن يكون هذا الشعور لعالم آخر ليس من طبيعة الأجسام،

أن من ينكر الروح لمزيد كثافته، وضيق نظر عقـله كمن ينكر وجود الافلاك العلوية لعدم وقوع بصره عليها ، وما أضعفه برهاناً وأسمجه احتجاجاً

أن المـادة قد تعسر الوصول الى حقيقتها البسيطة وهى المسماة بالهيولى أو الاثير، وذلك لبعدها فى حالتها الأولى عن تلك الـكثافـة التى سمحت لها أن تبصر وتحس، فاذا كان هذا شأن المـادة الغليظة الـكثيفة ، فكيف يكون شأن الروح الـتى هى من طبيعة أخرى وعالم آخر؟ وقد بلغت فى اللطافة حداً لم يبلغه شىء سواها. (ولئن كانت أخفى الاشياء بحقيقتها فانها أظهرها بلوازمها وآثارها)

ان من ينظر فى الجسم يجد كل ما فيه آلة لشئ خاص، قد نيط

بها وظيفة خاصة . فلا بد أن يكون مستعمل تلك الآلات كلها فى الاغراض المختلفة شيئاً آخر، يعتبر فاعلاً لا آلة

اننا قد نرى الولدين الصغيرين على غاية التباين فى الاخلاق، فيكون أحدهما كذاباً خداعاً جباناً، ويكون الآخر لا يعرف الكذب ولا يرضاه، ويأبى الغش والخديعة، وينفر من الجبن والتوا كل، فلو كان الامر مادياً صرفاً لما وجد هذا التباين، لأن الشئ الواحد لا ينشأ عنه أثران متباينان، فلا بد أن يكون ذلك راجعاً الى أرواحهما التى تدير أبدانهما، والا فليعللوا لنا ذلك تعليلاً طبيعياً معقولاً ، في هذين الولدين اللذين نشآ فى بيت واحد ومدرسة واحدة، بين أب واحد، وأم واحدة

لعلك تعلم أن جسم الانسان تتحلل أجزاؤه دائماً، و يخلفها غيرها حتى اذا مضت عليه سبع سنين لم يبق من أجزائه الاولى شئ ، فلولم يكن وراء المادة فيك أيها المتبصر عالم آخر، يرجع اليه أمر العلم لوجب أن تذهب علومك القديمة مع أجزائك التى ذهبت حيث أنها مرتسمة فيها، وليس وراءها عالم آخر من الروحانيات لا يخضع لسلطان الفناء على هذا الفرض ، والا فهل كتبت المادة الذاهبة علومها فى المادة الجديدة قبل أن تمضى الى شأنها؟؟!! أم لقنتها تلك العلوم شفهياً ؟ وان قلنا ذلك فأين كانت تلك الكتابة وذلك التلقين وهما لم يجتمعا فى جسم الانسان لحظة واحدة؟ بل لا تجيء الاجزاء الجديدة الا بشرط انعدام الاجزاء القديمة،(ولعلها اعنت حضرات الماديين أرسلت لها من ينسخ

فيه علومه بعد ذهبه، ويوصيها بلاحتفاظ به، ويبين لها درجاتها المتفاوتة على حسب ما كانت عند سلفها من الاجزاء المتحالة) ؟!

نرى الانسان يعقل الأشياء المعنوية الصرفة كاستحالة اجتماع الضدين مثلاً، وبالضرورة لا يحتاج في ذلك الى شئ من الحواس، بل كلما تباعد عن المحسوسات كان ادراكه لتلك المعقولات أكثر وأتم، وليس ذلك شأن الاجسام

لو كانت الروح مادة جسمانيـة لكان الارتسام فيها على نحو الارتسام الذى نعرفه فى المادة، فكان لا يرتسم فيهـا بالضرورة الا علوم محدودة على قدر طولها وعرضها، لأن المحدود لا يرتسم فيه غير المحدود، ونحن نراها تقبل من العلوم والمعارف ما لا نهاية له، ويبقى منقوشاً فيها الى ما لا نهاية له، ولم نرها تضيق به يوماً من الايام، بل تتسع لكل ما يرد عليها، وتزداد به قبولاً لسواه، (على عكس المادة)

أفلا يكون هذا النوع من الانتقاش وذلك التباين الكلى برهاناً ساطعاً على أنها شئ آخر غير المادة؟ التى عرفنا كل أحكامها التى من أخصها أنها محدودة، وكل محدود لا يقبل الا محدوداً، والا فليقولوا لنا كيف تحفظ تلك المدركات الخارجة عن النهاية فى تلك النقطة التى يخصصونها لذلك من المخ؟ وما مقدار تلك النقطة؟ وكيف وسعت علم السموات والأرض؟ وكيف انتقش فيها؟ وكيف يقبل المتناهى غير المتناهى ؟ ؟ أن أمر الادراك وحفظ المدركات لمن أعجب الاشياء! ولا يقبل الوجدان السـليم أن يكون مادياً أصلاً، بل يجب أن يكون من ظواهر طبيعة

عالم أرقى من المادة، وماصرفنا عن التفكر فيه حتى صرنا نستهين به ولا نلتفت اليه الا كثرة اعتيادنا اياه، وكل أمر معتاد لا يلتفت اليه

ترى النفس تستهين بكل مطالب البدن عند ما تريد أن تحصل فضيلة من الفضائل، فربما استمر الانسان غافلاً عن غذائه ودوائه فى سبيل ما يكمله من العلوم والمعارف، فلو كانت النفس جسمانية لما تركت مايقيمها من الغذاء الحسى وعدلت عنه ، باختيارها ، مع أن فى ذلك اضمحلال الجسم ، ولكن لكونها من العالم الاعلى قدمت غذاءها المعنوى على غذائه الحسى ، قال (أرسطو) ومما يدل على ذلك أن النفس الناطقة تقاوم لذات البدن وشهواته، وتمنع منها وتستهين بجميعها فى طلب الفضائل التى تريد أن تتكمل بها ،

والاشياء المتقومة من شئ لا تعاند ما به قوامها، ولا تمنع منه ، بل تطلبه لان فى منعها منه بطلانها، ولا شئ يطلب ما يبطله، وانما يطلب ما يقيمه ويزيد فيه ،

ثم قال أن للنفس فعلاً ذاتياً وحركة ذاتية لا يستعمل بها شئ من الآلات ، بل الآلات كلها عائقة عن تمامها، وذلك فى ادراك المعقولات الصرفة مما دل على مفارقة النفس للبدن حقيقة، وعلم بذلك أنها باقية دائمة البقاء، وأما ما يتوهم من توقف الادراك على الالات الجسمانية فانما هو فى الامور المحسوسة المادية

قل للماديين أى مانع من وجود أشياء لم تدركوها بحواسكم ولا آلاتكم التى وصلتم اليها حتى الآن؟ بعد أن قلتم ماقلتم فى (المكروبات)

وفى (الاثير) الذى لم تعرفوه بأقوى آلاتكم، وانتم تظنون ظناً وما أنتم بمستيقنين، مع ان ذلك كله من هذا العالم فما بالكم بالعالم الآخر الروحانى الذى يباين هذا العالم كل المباينة، وان شئت فانظر الى ظنونهم فيما قالوه من أن العوامل أو القوى الكيماوية وهى الحرارة والكهربائية والمغناطيسية، ما هى الا انبثاق من الاثير وهو الاصل الذى يجمع المواد الاربع غير القابلة للوزن فى مادة واحدة ، وهذه الاربعة هى الثلاثة المذكورة ويزاد عليها النور، فأي مانع من وجود أشياء تعجز حواسكم معشر الماديين عن ادراكها؟ وقد تحقق ذلك بالموجودات الميكرسكوبية التى لا تدرك بالبصر المجرد، وأى مانع من وجود أشياء يحتاج ادراكها الى حاسة أخرى لم توجد فيكم ؟ ؟

هل يؤوب الطبيعيون الى رشدهم حيث لم يمكنهم أن يعللوا لنا ذلك النسيج الذى فى بدن الانسان من العظم واللحم وغيرهما ولم يعرفوا كيف يتكون ذلك من تلك الاغذية الميتة؟ فيقولوا أن ذلك لا يكفى فيه اجتماع المواد الكيماوية التى نعرفها، بل لذلك شرط وراء ما نشاهده وهو تسلط الروح الربانى الذى هو من أمر الله على ذلك الجسم الحيوانى الذى جهلنا ما تسلط عليه من تلك الروح فلم ندرك حقيقتها، وان كنا نعرف كل المواد الموجودة فى ذلك الجسم، ونعلم ظواهرها الطبيعية وتفاعلاتها الكيماوية، وكل ما ينجم عن ذلك، ولكن (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا)

(سبب اشتباه الماديين وغلطهم في هذا الموضوع)

لعلك تتساءل كيف أنكر الماديون وجود الروح؟ مع اعترافهم بأنهم لم يصلوا الى ادراك سر الحياة ، ولم يمكنهم أن يعللوها تعليلاً صحيحاً حتى قال بعض فلاسفة (الظلمات) وهما (دوتروسيه) (وبيشا) حينما عجزا عن الوصول الى ذلك كما عجز غيرهما (أن الحياة فلتة طبيعية ضد النواميس العامة للمادة، وتعطل وقتى لقوانينها الطبيعية ، ولا تلبث أن تخضع تلك الفلتة الاستثنائية لقوانينها، وترد الحى الى أصله الميت) وكأنهم بعجزهم هذا عن حل مسألة الحياة يقررون قوله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى، وما أوتيتم من العلم الا قليلا) ، وهل لذلك الانكار من سبب بعد ما سبق من الأدلة ؟ وبعد ظهور أن أمر الادراك يجب أن يكون من ظواهر طبيعة أخرى لعالم آخر ،وقد قال بعض كبار فلاسفة أوربا (أنا لا أصدق أن هذا الانسان المتفكر ليس فيه شئ غير تلك المواد التى يتركب منها الفحم والحديد الى غير ذلك مما قالوه وهو كثير

فاعلم أن سبب ذلك الخبط والخلط الذى زج بهم فى ظلمات بعضها فوق بعض، حتى صادموا الاحساسات الانسانية، وأنكروا أوائل العلوم البديهية، وضربوا فى تيهاء من الوهم والخيال ، ومثلوا لنا الانسان فنوغرافاً يتكلم على مقتضى تركيب الآلات الخاصة، والاجهزة المعروفة ذلك السبب هو أنهم رأوا أن لأعضاء الجسم وظائف تقوم بها ، واذا

اختل شئ منه تعطلت وظيفته وكذلك المخ الذى هو محل التفكير والادراك

وان ما قالوه صحيح ، ولكن اشتبه فيه الحق بالباطل ، والصحيح بالعاطل ، وما اتبعوا فى ذلك الا الظن والتخمين ، بلا دليل علمى ، ولا برهان نظرى ، ونحن نعرفهم سنة الله فى ذلك ، ثم نناقشهم الحساب بعد

ان الله عز وجل اقتضت حكمته (وهو الحكيم) أن لا يفيض الروح الا على ما هو مستعد لها ، وليس من سنته أن يعطى الشئ جزافاً أو يجعل أمر الايجاد فوضى ، لا نظام له ، كلا ، بل تأبى حكمته أن يسلط الروح الانسانية على الاحجار ، أو يفيض الحياة البشرية بما لها من الآثار على أصناف النباتات والاشجار ، لعدم القابلية وفقد التناسب ومن المقرر فى علم الفلسفة أن الامداد على حسب الاستعداد ، وليس يستعد لذلك الا الجسم الانسانى لما أودع فيه من دقة الصنع ، و بدائع الأسرار ، وانظر كيف جعل مركز تعلق الروح بالبدن ألطف شئ فيه ولم يجعل محله اليد أو الرجل أو الظهر مثلا ، بل جعله المخ الذى هو ألطف شئ بالانسان ، وعلى ما تراه فى كلام الأقدمين جعله القلب الصنوبرى ، لكونه مبعث ذلك الروح الحيوانى ، المنتشر الى جميع أقطار البدن ، ولا شك أن هذا الروح الحيوانى الذى مركزه القلب الصنوبرى هو ألطف شئ فى الجسم ، فهناك تناسب كبير بينه و بين الروح الانسانى ، الذى هو من أمر الله ، وستعلم فيما نتلوه عليك بعد أن العوالم مترتبة

فى الكثافة واللطافة ترتيباً غريباً ، وفيها كل الدرجات الممكنة حتى تصل الى ما يتعالى عن ادراك الحس بوجه من الوجوه

وأما زعمهم أن العلم يقتضى ذلك فهو من الكذب على العلم، وقد جاء فى أحد أعداد المجلة الطبية الباريسية هذه الجملة كما في الحديقة الفكرية (ليست الفكرة الواحدة الا اتحاداً يشبه اتحاد حمض (الفوسفوريك) والتفكر نفسه ناتج من الفوسفور الذى هو فى تركيب المخ) ، فرد عليها العلامة الطبيعى الشهير (كاميل فلامريون) قائلاً (من أخبركم بذلك ياحضرات المحررين أن الناس يتوهمون أن معلميكم يعلمونكم هذه الهذيانات؟ مع أن الامر بخلاف ذلك لأن هذه الادعاءات ليست امام النظر العلمى الا هباء منثوراً، على أنى لا أدرى أى الامرين يستحق أن نتعجب منه أكثر؟ أمن هذه الجسارة الصادرة من هؤلاء الممثلين العجيبين للعلم؟ أم من سخافة ادعائهم أن (نيوين) كان يقول (يظهرلى) و (ديكرت) كان يقول : أنى أستنزل حلمكم فى هذه الفروض) ولكن هؤلاء يقولون نحن نحن نثبت ؟ نحن ننكر ؟ هذا موجود ؟ هذا غير وجود ؟ العلم قد حكم ؟ العلم قد أقر ؟ العلم دحض ؟ مع أنه ليس فيما يقولون ظل من البرهان العلمى، الى أن قال : انكم تتجاسرون أن تعزوا للعلم هذا العبء الثقيل ولئن سمعكم العلم أيها السادة (ويجب أن يسمعكم) لأنكم أبناؤه فقد حق له أن يضحك استهزاء من غروركم!؟ أنكم تقولون العلم يثبت ، العلم ينفى ، العلم يأمر ، العلم ينهى ، وبذلك فأنتم تضعون

على شفتي هذا العلم المسكين هذه الكلمات الضخمة ، وتدخلون الى فؤاده هزة الكبر والعجب)!!!!

فأنت ترى مكان تلك الطنطنة الفارغة ، امام الفلسفة الصحيحة والعلوم الحقة التي يعرفها مثل (كاميل فلامريون) وغيره ، على أننا نقول لهم اذا كان التفكر افرازاً من افرازات المخ (ولسنا نعقل ذلك ولا يعقله أحد) وان قال بعضهم أنه مثل افراز الكبد للصفراء والكليتين للبول) فهل يمكن أيها المجترئون على مالا تعلمون أن يفرز الانسان من الصفراء ، ما شاء متى شاء ، كما يمكنه أن يتفكر كذلك أم هذا قياس فاسد؟ونظر كاسد ثم نقول لهم :

هذه مادة المخ معروفة العناصر والخصائص فهل من خاصة الفسفور أو غيره مما تركب منه المخ ما يعقل أن يكون محلاً لهذا الادراك الكبير والتفكر العجيب وتلك العلوم الواسعة وكيف يدرك الفوسفور أو غيره من مواد الاخشاب التي نحللها ونركبها ، كيف شئنا وهي بين أيدينا مادة ميتة تبعد عن العلم والادراك بعد الصواب من الخطأ والحق من الباطل ، وماذا عسى أن يفعله الفسفور في أمر الادراك والعلم ولو توقد ناراً ؟ وماذا تفعل النار فيما هو من تلك الخصائص الانسانية ، والعواطف البشرية ، واللطائف الروحانية بل يمكننا أن نناقش هؤلاء المتبجحين الذين جهلوا أقدارهم ، وتعدوا طورهم ، سائلين اياهم فيما زعموا أنهم عرفوه ، وهو أقل مما نحن فيه! كيف اقتضت بعض نقط المخ الادراك ، و بعضها الحركة ، و بعضها الأبصار ، الى غير ذلك فانكم تعينون لكل شيء من هذه

نقطة مخصوصة في المخ. فهل يمكنكم معشر الماديين أن تبينوا لنا العلاقة بين تلك النقط وما يناط بها؛ وما وجه اختصاص كل بكل: مع كون العناصر متحدة في الجميع، ولا فرق بينها في الجواهر، وهل يعقل أن المادة المتحدة الجواهر تنتج آثاراً مختلفة متباينة. مع وحدة أجزائها وعدم اختلاف عناصرها؛ اللهم أن هذا لا يستطيع أن يقوله أحد حتى الماديون أنفسهم، فاذا تقول في حل تلك المعضلة بلسان العلم والتبصر:

أن المخ شرط في الادراك، أو في تعلق الروح بالبدن أو هو الرابطة بين العالم السماوي والعالم الارضي، وليس من الجائز أن يكون العلم والادراك نتيجة تلك المواد الصماء، التي يمكننا أن نجمعها ونعرف ظواهرها كلها، وان كان ذلك شرطاً في امداد الروح للبدن، ومعداً لقبول فيضان آثاره عليه، ومحققاً لصلاحية جعله مظهراً للحياة، وأن الفرق بين الشرط والفاعل وبين السيف والقاتل لمن أوضح الواضحات، فكأن المخ مرآة تتجلى فيها صور العالم الادنى للعالم الاعلى أو نقول انه بمنزلة التليفون الموصل بما فيه من الاعصاب أخبار الاجسام الى الارواح ، ومن البديهي أن المرآة ليست هي الرائي وان كانت شرطاً في الرؤية ، ولا آلة التليفون المكهربة هي المتكلم أو المخاطب ، وان كان لا بد منها في تحقيق الخطاب فليس يعقل فيها الفاعلية بوجه من الوجوه، ويستحيل أن يكون الاختيار والارادة والتفنن وسعة العلم خاصة من خصائص المادة الصماء العمياء، ولكنهم خاضوا بكثافتهم الطبيعية وظلماتهم المادية فيما لم يحيطوا به علماً من عالم اللطافة ومشرق الانوار ومنبع الاسرار وأن الامر على

ما يقول الله عز وجل (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)

وستسمع في هذا الموضوع ما يشفي الغليل ، ويبرئ العليل في القسم الذي أفردناه من الكتاب للرد على الطبيعيين ان شاء الله

(شرح بعض صفات الروح)

هذه الروح لها من التأثيرات العجيبة ما يزيد على كل ماتعرف من تأثيرات الاجسام ، فانها أقبل للفيض الالهي في كل شئ ، وكل ما كان من العالم الادنى فهو تحت تصرف ما يكون من العالم الاعلى ، دون العكس ، ولكن تأثيراتها ليست على نحو ما تعهد من قوانين تأثيرات الأجسام ، فانها تؤثر في الأشياء البعيدة عنها من غير مماسة ولا مجاورة ، وكأني بك وقد نسيت الشرط السابق وسارعت الى الانكار ، (فرويدك أيدك الله) وانظر الى حال الحاسد مع المحسود كيف يؤثر فيه التأثير الهائل ولو كان من أقوى الاقوياء وأعظم الأشياء بمجرد توجيه اليه ، وانفعال نفسه باستحسانه مع الحقد عليه ، وأما تعليل رشدي بك لذلك في كتاب التنويم المغناطيسي بأنه من تأثير الاعتقاد فلايكاديقرب من الصواب . فان الحاسد يؤثر في الحيوان الأعجم وفي النباتات والأشجار ممالا يتأتى منه الاعتقاد ، وان شئت فطالع ما ينقل عن أرباب الابنوتزم (التنويم المغناطيسي) حتى تعرف مقدار ما وصلت اليه روح المنوم (بالكسر) من التأثير في المنوم (بالفتح)

الذى يكون طوع اشارته فى كل شئ ، حتى لو أمره أن يقتحم لجة البحر أو وهج النار لما استطاع أن يخالف له أمراً ، أو يعصى له ارادة بل ذكروا أغرب من هذا وهو أنه اذا وقع فى نفسه أن يقتل أحدا بادر المنوم الى قتله من غير أن يأمره بشئ أو يتلفظ له بكلمة ، ولا بعدفي هذا فان النفوس تحس بما فى النفوس فاذا أحست به (وقد فرضنا أنها خاضعة لسلطان هاتيك النفس الأخرى منفذة لارادتها) لم يكن ما سمعناه عنهم بدعاً من العلم أصلاً ، ولننقل لك نبذة عنهم فى ذلك الموضوع تتميماً للفائدة ، ورجاء أن ينتفع به كثير من شبان المسلمين فنقول :

(أدلة اثبات الروح)

« من كلام علماء الاونبوتزم والاسبرتزم »

قال حضرة الفاضل صاحب الأيادى البيضاء فى هـذا الموضوع (الاستاذ فريد وجدى) فى دائرة معارفه : —

روى الاستاذ (اكزاكوف) الروسى أن امرأة الاستاذ الانجليزى (دومرجان) اعتادت تنويم امرأة وارسال روحها الى المحل الذى تعينه لها ، فقالت لها يوماً وهى نائمة (اذهبى الى منزلى الذى كنت أسكنه قديماً) فقالت النائمة (قد فعلت وطرقت الباب بشدة) فقالت امرأة الاستاذ فذهبت بنفسى فى اليوم التالى لأتأكد من صدقها فى تلك المسألة فسألت عما حصل في تلك اللحظة فأجابنى

السكان بأنهم سمعوا طرقاً شديداً على الباب فذهبوا فلم يجدوا أحداً فعلموا أن ذلك فعل أشقياء الاطفال ، يقول (اكزاكوف) عن هذه الحادثة وأمثالها أنها تثبت بطريقة لا تقبل الشك أن للروح وجوداً متميزاً عن المادة . وأنها تستطيع أن تعمل ما يعن لها بنفسها واستشهد أيضاً بهذه الحادثة الغريبة وهي أن (لويس) المنوم المشهور أنام امرأة مرة امام جماعة ، وأمرها بأن تذهب الى بيتها فتنظر ماذا يعمل أهلها ، فقالت ذهبت فوجدتهم يشتغلون بأشغال منزلية وبينهم امرأتان تشتغلان بالمطبخ ، فقال (لويس) المسى احداهما بيدك ، عند ذلك أخذت المنومة تضحك قائلة قد لمست احداهما كما أمرتني فخافت خوفاً شديداً ، فسأل (لويس) الحاضرين عما اذا كان فيهم من يعلم بيت المرأة ؟ فأجاب بعضهم بالايجاب ، فالتمس منهم أن يذهبوا الي بيتها ليعرفوا ما حصل فذهبوا وعادوا مؤكدين أن ما قالته النائمة صحيح !! وذلك أنهم وجدوا أهل ذلك المنزل فى غاية الهرج من شده الخوف فسألهم عن السبب فأجابوا بأنهم رأوا شبحاً فى المطبخ يمشى ثم جاء فلمس احدى اللتين كانتا فيه

ويقولون أن الروح وهى على حالها الأول بعدخروجهامن الجسد يمكن مكالمتها ورؤيتها بواسطة شخص يكون فيه الاستعداد لأن يقع فى خدر عام عند ارادته تحضير الروح ، فتستفيد الروح من استعداده فتكلم الناس بفمه بلغات يجهلها كل الجهل وتنبئ الحاضرين عن أمور لأقاربهم وخاصتهم لا يدرى الواسطة منها شيئاً ، بل

وتكشف من أسرار العلم والفلسفة والرياضيات العويصة ما يجهله الواسطة والسامع ، ولا يدركه على سطح الارض الا نفر يسير ، وقد تستولى على يده وتكتب (وعينه مغمضة أو مربوطة) صحفاً ورسائل وقد تظهر بجسم مادى محسوس بينما يكون الواسطة ملقى امام المجربين مكتوفاً على كرسيه ، وسبب ربطه هكذا أن الذين يبحثون فى هذه الامور المدهشة من العلماء ملحدون ماديون لا يصدقون بشئ ولأجل أن يثقوا من صدق مشاهداتهم التى تهدم لهم كل مقررات فلسفتهم لا يرضون الا أن تكون الغرفة مغلقة والفرش مفتشاً والواسطة مربوطا على كرسيه بأربطة متينة مسمرة أطرافها بالارض ولا يكتفون بذلك أيضاً بل منهم من وضعه فى قفص حديدى ووضع كرسيه على سطح مائى وأوصل بيده سلكاً كهربائياً متصلاً (بجلوانومتر) الى آخر ما قال :

ويمكنك أن تعلل بيان تلك العلوم التى يجهلها الحاضرون ولا يعرفها الا قليل من الناس بما قاله بعض الحكماء من أن للروح علوماً ومعارف كثيرة كانت تتمتع بها قبل دخولها فى الجسد ولكن لما دخلت فيه نسيتها جميعها وصارت تتعلمها شيئاً فشيئاً وكأن ذلك التعلم تذكير لها بما نسيته فقط ولذا لا تجد لها سبيلاً الى بعض العلوم لكونه لم يخلق فيها فلا يمكنك أن تستثيره منها لعدم اشتمالها عليه

هـذا ، ويقول علماء الاسبرتزم أن الحد الفاصل بين الاحياء والاموات ليس على ما يظنه الناس من الخطورة فان الموت ليس فى

ذاته الا انتقالاً من حال مادى جسدى الى حال أرق منه وألطف بكثير ،

ومن ذلك أيضاً ما حكاه رشدى بك فى كتاب التنويم المغناطيسي أن امرأة نومت بمدينة الاسكندرية وسئلت عن زوجها الغائب فقالت أنه بباريس بنزل كذا رقم كذا ثم قالت انه مريض ولم تلبث أن صرخت قائلة أنه قد مات فأرسل تلغراف الى باريس للاستفهام عن صحة ما قالته فوجد صحيحاً

وقد ذكر أيضاً (أن المنوم يرى بمؤخر رأسه ومعدته فاذا وضعت الساعة على القسم المعدى منه مثلاً وسئل عنها أجاب بغاية الضبط)

وليس الامر فى ذلك على ما ظنوا من انه يرى بمؤخر رأسه أو معدته أو غير ذلك مما استغربوه وعللوه تعليلاً غير صحيح بل السر فى ذلك هو أن النائم بطل عنده حكم الحواس فلا فرق بين أن يكون مربوط الأعين أم لا وصار الحكم لروحه لا لحواسه الظاهرة ولذلك يرى ما يكون من وراء الجدران فى الاماكن المغلقة الابواب أو البعيدة جداً ، والروح كما ستعرف لا تتقيد بحيز ولا مكان لأن ذلك شأن العالم المادى فالجهات كلها بالنسبة اليها سواء فهذا هو التعليل الصحيح لا ما ذكره رشدى بك وغيره فى هذا الموضوع

وقال فى دائرة المعارف : تألفت سنة ١٨٦٩ ميلادية جمعية من أكابر علماء لوندرة لفحص هذه الخوارق فحصاً دقيقاً علمياً

وكانت هـذه الجمعية مركبة من العلامة (جون لبوك) وهو اللورد أفبري رئيساً لها ، ومن (توماهكسلي) أ كبر علماء انجلترا الطبيعيين و (لويس) الفزيولوجي المشهور وكيلين لها ، ومن الفريد (روسل ولانس) أ كبر فزيولوجي فى الانجليز ومكتشف ناموس الانتخاب الطبيعي وهو زميل داروين ومن (دومرجان) رئيس الجمعية الرياضية و (قارلى) رئيس مهندسى التلغراف و (جان كوكس) الأصولى الفيلسوف و (ا كسون) أستاذ فى كلية ا كسفورد لخ

فاستمرت فى البحث المتواصل ثمانية عشر شهراً وكانت النتيجة تأ كيدها صحة تلك المشاهدات الخارقة للعادة وكتبوا بذلك تقريراً مطولا منه هذه الجملة : أن الجمعية اقتصرت فى تقريرها على المشاهدات التى رآها كل الاعضاء بطريقـة محسوسة ، وكانت صحتها مقـترنة بالبرهان القاطع ، أن أربعة أخماس لأعضاء ابتدأوا البحث وهم فى أشد درجات الانكار لهذه الأشياء معتقدين قلباً وقالباً انها ليست الا نتيجة الغش أو الوهم ، أو بالاقل نتيجة حال اضطرارى للاعصاب ولـكن بعد أن وضحت لهم هذه الحوادث وضوحاً تاماً فى شروط نفت كل تلك الفروض ، و بعد تجارب دقيقة جداً تكررت مراراً ، لم ير هؤلاء الأعضاء المنكرون بداً من اعتقاد أن هذه الخوارق حقيقة رغم أنوفهم ، الى أن قال : وهذا جدول بأسماء مشهورى رجال الأرض الذين يعتقدون هذه الخوارق ممن لا يستطيع أحـد جحود

فضلهم وأنا نستخرج هذا الجدول كما ستراه بلا استقصاء فان الاستقصاء يضطرنا لذكر الألوف المؤلفة فاليك : —

(من علماء انجلترا)

دومرجان . وليم كروكس . لودج . هكسلى . فارلى . ا كس . تشامبرس . هودس . موزس . بلفور . روسل ولاس . باريت . جون ليوك . لويس . جان كوكس . جرسكستون . جرجلى . باركس .

(من علماء فرنسا)

الدكتور دوزار . موتنبيه . كاميل فلامريون . أوليفييه . سارودو . جول بوا . اوجين نو . دوروشاس . داريكن . ريشيه . شارل فوفتى . جان فينو . فيكتورهوجو . جريمار

(من علماء أمريكا)

مابس . هار . اليوت . ادمون . هيزلوب

(من علماء ألمانيا)

زولنر . فيشنر . اولتريسى . ونير . شبنر . وندت

(من علماء ايطاليا)

لومبروزو . كيايا . فالكوم . كيابارلى

ثم قال بعد ذلك ونحن نقول بعد عرض هذه الاقوال أن حركة الاعتقاد بالروح فى العصر الحاضر تفوق كل حركة تقدمتها وأن

البرهان المحسوس على وجود الروح وخلودها صار على طرف الثمام لكل طالب

فياليت رسل الظلمة يفتحون أعينهم لمشرق هذا النور المنبعث فى كل مكان فيقلعون عن تسميم النفوس بكتاباتهم الالحادية والله من ورائهم محيط

(ما نقل عن حجة الاسلام أبى حامد الغزالى)

« المتوفى سنة ٥٠٥ هجرية فى هذا الموضوع »

سمعت فيما سبق لك أن علماء الاسبرتزم يقولون أن الحد الفاصل بين الأحياء والأموات ليس من الخطورة على ما يظن الناس والآن نتلو عليك ما نقل عن الامام حجة الاسلام الغزالى فى هذا الموضوع

نقل عنه أنه قال لبعض أصحابه ائتنى بثوب جديد فانى أريد أن أدخل على الملك فأتى له بثوب فأخذه منه وطلع الى بيته فأبطأ ولم ينزل فدخل اليه صاحبه ومعه ثلاثة أشخاص فوجدوه قد قبض وعند رأسه هذه الأبيات

قل لاخوان رأونى ميتاً	فبكونى ورثوا لى حزنا
أتظنون بأنى ميتكم	ليس ذاك الميت والله أنا !!
أنا فى الصور وهذا جسدى	كان بيتى وقميصى زمنا
أنا كنز وحجابى طلسم	من تراب كان ضيقا وعنا

أن در قــد حواه صــدف ‏ لامتحاني فنفيت المحنــا
أنا عصفور وهــذا قفصى ‏ طرت عنــه وبقى مرتهنــا
أحمــد الله الذى خلصنى ‏ وبنى لى فى المعــالى مسكنا
كنت قبل اليوم ميتاً بينكم ‏ فحييت وخلعت الكفنا
وأنا اليوم اناجى ملأً ‏ وأرى الله جهــاراً علنــا
عاكف فى اللوح أقرأ وأرى ‏ كل ما كان تنا آى ودنا
وطعــامى وشرابى واحــد ‏ وهو رمز فافهموه حسنا
ليس خمراً سائغاً أو عسلا ‏ لا ولا ماء ولكن لبنــا
فافهموا السر ففيــه نبأ ‏ أى معنى تحت لفظى كمنا؟!
فاهدموا بيتى ورضوا قفصى ‏ وذروا الطاسم يعلوه الفنــا
قد ترحلت وخلفتكم ‏ لست أرضى داركم لى وطنا
لا تظنوا الموت موتاً أنه ‏ لحياة وهو غايات المنــا!!
حى ذى الدار نؤوم مغرق ‏ فاذا مات أطار الوثنــا
لا ترعكم هجمة الموت فما ‏ هو الا نقــلة من هاهنا
وخذوا فى الزاد جهداً لا تنوا ‏ ليس بالعاقل منا من ونا
واحسنوا الظن برب راحم ‏ شاكر للسعى وأتوا أمنــا
ما أرى نفسى الا أنتم ‏ واعتقادى أنكم أنتم أنا!!
عنصر الانفس منا واحد ‏ وكذا الجسم جميعاً عمنــا
فارحمونى وارحموا أنفسكم ‏ واعلموا أنكم فى أثرنا
أســأل الله لنفسى رحمــة ‏ رحم الله كريمــاً أمنــا

(محاورة علمية)

« مع بعض ذوى العلوم الجديدة »

نسوق لك هذه المحاورة لتعلم أن أكبر شئ سمعت به فى الدين لا ينافى الأحكام العقلية ، ولا المقررات العلمية ، وأن خيل ذلك لفريق من الناس فالذنب لأنظارهم الواهية ، لا لحقائقه العالية ،

جرى الحديث يوماً بينى وبين كبار المتعلمين من الموظفين فى مسألة عروج (النبى صلى الله عليه وسلم) الى السموات العلى فقابل ذلك بالانكار الشديد وقال أنى أقيم لك البرهان الملموس على بطلان ذلك وابتدأ يقرر البرهان قائلاً أن طبقات الهواء التى على ظهر الارض يبلغ ارتفاعها نحو عشرة آلاف متر تقريباً ثم ينقطع الهواء بالكلية ومن المحال أن يعيش انسان أو حيوان بعد ذلك فقلت له لعلك قرأت شيئاً مما ينقل عن علماء (الاسبرتزم) و (الابنوتزم) ، فقال (نعم) ، فقلت له هل رأيت فيما قرأت أن بعض المنومين تنويماً مغناطيسياً قد شم محاول النوشادر المركز ولم يحصل له ضرر ، وأن بعضهم خاض النار المتأججة عند ما أفهمه المنوم أنها روضة يانعة ، الى غير ذلك من أعاجيب ما نقل عنهم ، فقال رأيت شيئاً كثيراً مما يشبه ذلك ، ومما رأيته أن بعض الناس وهو مستيقظ لا منوم اعترته حالة غريبة وقتاً من الاوقات فوجد نفسه على شاطئ البحر ووجد بعض رفاقه الذين يعرفهم فى باخرة من البواخر اذ حصل لها حادث عظيم فغرقت

فى الحال ثم رجع الى حالته الطبيعية متعجباً مما عراه ورآه ، فجاءت الأنباء بعد ذلك بصحة ما شاهده فى ذلك الوقت بعينه فقلت له فبماذا تعلل ذلك والى أى سبب مادى تسنده فقال لا أستطيع أن أسنده الى شئ ، غير أنى لست بالمكذب لعظمة أولئك العلماء الذين تصدوا لهذا الموضوع مع كثرة عددهم ولكنى مدهوش من تلك الانباء متعجب منها كل العجب فقلت له أنى أعللها لك الآن تعليلا يقبله عقلك ، ويستريح له وجدانك ،

أن الروح التى هى من أمر الله المتعلقة بهذا الهيكل الجسمانى ليست من طبيعة تلك المواد الأرضية ، فلا تخضع لنواميسها بل لها نواميس أعلى تناسب طبيعتها النورية ، فهى لا تتأثر بتلك المؤثرات مهما بلغ أمرها ، وليس لسلطان الفناء والاضمحلال عليها من سبيل ، فاذا غلب سلطانها على سلطان الجسم بالرياضة والصفاء أو بغلق أبواب الحواس واماتة التوجه الى المحسوسات من نفس الانسان حتى يتخلى عن تدبير جسمه وعن كل ما يشغله من هذا العالم الحسى رجعت الروح الى مقتضى طبيعتها ، فظهرت خصائصها ، وسادت نواميسها . وخفيت أحكام الاجسام فى أحكامها ، فكان الحكم اذ ذاك للروح لا للجسم ، والروح كما قررنا لا تخضع لنواميس هذا العالم ، بل هى فوقها لأنها من عالم البقاء لا الفناء ، ومن جواهر التقديس والصفاء ، لا مواد تلك الأشياء التى يقع عليها بصرك فى الأرض أو السماء ، فيمكنك بعد ذلك أن تفهم ان مسألة المعراج لا يحيلها العقل الذى اتسع نظره

فعرف حقائق الأشياء ، ولم يحصر نفسه فى سجن دائرة هذه المحسوسات الضيقة

والنبى صلى الله عليه وسلم لم يعرج به الى تلك العوالم العليا الا وقد بلغ من الصفاء أكمله ، ومن التقدس عن لوث الظلمات أفضله ، كى يستعد لما يوحى اليه ، ويلقى عليه ، هذا من الوجهة العقلية

وأما مسألة النقل فهى مسألة أخرى وليس ههنا الكلام فيها الآن لرد ما ذكرته من البرهان ثم ذكرت له بهذه المناسبة قول، با كون وهو أبو علم الطبيعة كما فى دائرة المعارف وغيرها (أن الحقائق الدينية قد تظهر لنا باطلة نظراً لضعف معارفنا) ويقول أيضاً (أن الروح تنقسم الى عاقلة وهى منفصلة عن المادة وغير عاقلة تتولد من المادة وهى للحيوان والعاقلة للانسان)

فأعجب بذلك الرجل كل الاعجاب وقال صدق من قال من جهل شيئاً عاداه ، ثم افترقنا ولسان حاله يقول :

لاشئ فى هذه الدنيا نحيط به　　الا احاطة منقوص بمنقوص

(بيان شوق الارواح الى العلوم والمعارف)

ان كل شئ فى الانسان يميل الى ما يلائمه ويحصل له لذته ، فالعين تميل الى المبصرات الجميلة لأن فيها لذتها ، والأذن تميل الى الأخبار العجيبة لأن فيها لذتها ، والأنف يميل الى المشمومات الطيبة لأن فيها لذته ، وهكذا بالنسبة الى الطعام والشراب الى آخره ،

فكذلك فى الانسان غريزة لا يهدأ شوقها ، الى استطلاع المجهولات وادراك حقائق الأشياء ، من ملكوت السموات والأرض ، لأنها تجد فيه لذتها وابتهاجها بما يفوق سائر اللذات البدنية ، ولعلك توافقنى ، على هذا اذا تخيلت لذتك وابتهاجك الذى يخامرك عند الظفر بحل معضلة من المعضلات ، فكيف بك عند ما تطلع على عجائب الملك والملكوت ، وتعرف ما فيها من أسرار الربوبية التى ربما وصلت بك كما وصلت بغيرك الى حد التوله والهيمان ، بجمال ذلك الصنع الالهى ، وقدرة مبدعه الحكيم ، وما هو عليه من صفات الجلال والجمال ، التى يضيق عنها البيان ، ويخرس عندها اللسان ، ولا تعرفها الاشباح ، ولا يذوقها سوى الارواح

(السر فى تفضيل اللذة المعنوية على اللذة الحسية)

السر فى ذلك هو أن النفس انما تحب المطاعم والمشارب والملابس الى آخر الملاذ من أجل محبتها للجسم الذى يحتاج الى كل ذلك ، فهى انما تحبه بالواسطة لا باقتضاء ذاتها المجردة ، فانها بذلك الاعتبار تنفر منها وتأباها

وأما شوقها الى العلوم والمعارف والكمالات فهو بمقتضى ذاتها المقدسة ، وحقيقتها العالية ، وعالمها الرفيع ، لا بواسطة شئ خارج عنها ، وبالضرورة ما يكون محبوباً بلا واسطة أتم وألذ مما لا يحب الا بالواسطة ، بل يمكنك ان تقول ان الذى بالواسطة ليس محبوباً على

الحقيقة . وما أحببناه الا للضرورة ، هذا ومن وجهة أخرى فاللذائذ الحسية لا يتأتى استمرار الالتذاذ بها ، فان الأكل مثلاً اذا زاد عن حده خرج عن كونه لذة وصار مضراً أو مهلكاً وأيضاً فالطعام مهما كان لا يلتذ به مالم يسبقه ألم الجوع ، وعلى قدر ذلك الألم تكون تلك اللذة ، (فان شئت أن تلتذ كثيراً فتألم كثيراً حتى تصل الى ما أردت) وأظنك لا تشك فى شئ من هذا

وأما اللذة المعنوية فلا يسبقها ألم ، ولا يعقبها ضرر ، ولا يشوبها كدر ، ولا يخشى لها نفاد ، فهى الصافية الدائمة ، بل هى اللذة على الحقيقة ، المطلوبة لذاتها ، وهى مناط السعادة والراحة

وأما اللذائذ الجثمانية فيمكنك ان تقول انها ليست لذائذ وانما هى تخلص من آلام سابقه ، وقلما تنفك عن آلام لاحقه

(بيان أن النفس اذا تزكت اطلعت على المغيبات)

أرانى قد أرتج على باب القول لكثرة ما توارد على من المعانى التى تتدافع طالبة للخروج من حيز الخفاء الى حيز الظهور ، (ضاق الكلام بنا من عظم ما اتسعا) ، ولكنى سأسوسها وأتلطف بها مراعياً رقتها ، ولين ملمسها ، وبهجة منظرها ، محافظاً على كل ذلك حتى لا أظلمها ، مستعطفاً إياها حتى تخرج مترتبة منتظمة ،

هذا مالك على أيها المتعشق لجمال المعانى ، ولى عليك أن تساعدنى بالاقبال عليها ، والتلطف بها عند ما تفد عليك ، فهى من العالم

اللطيف ، لا من العالم الكثيف . فمن لى بمن يوصل الى الاذهان أن الروح كما يمكنها أن تطلع على ما فى الارض ، وظاهر الملك ؟ كذلك يمكنها أن تطلع على ما فى السماء ، وباطن الملكوت ، وكما ترى من امامها وهى فى هذا الجسم ، ترى من خلفها ، وكما تشاهد من فى مصر وهو حاضر معها ، تشاهد من فى الصين على حد واحد ،

وسر ذلك أن الروح من عالم الانكشاف وهى من الجواهر المجردة التى ليست فى حيز ، فنسبة الاحياز اليها على السواء ، فليس هناك شئ يقرب منها وشئ يبعد عنها ، لان ذلك فرع كونها فى حيز وجهة ، وقد قلنا انها لا حيز لها ولا جهة ، لان ذلك من خواص الاجسام ، وهى تباينها فى خواصها وأحكامها ، فاذا الاشياء كلها فى نظرها على نسبة واحدة ليس فيها قرب ولا بعد ، وليس بينها وبين ما تريد ان تعلمه الا ان تتوجه اليه فقط ، ولكنها لما دخلت فى هذا الجسم وأحبته على مقتضى القهر الالهى والحكمة الربانية ، شغلت بتدبيره والسعى وراء مطالبه (وليس لها الا وجهة واحدة) فأحاطت بها الظلمات الطبعية ، والغشاوات البدنية ، وصارت تحت سلطان الجسم يصرفها فيما شاء كيف شاء ، يرسل بصره فيأتى بأخبار المبصرات وسمعه فيأتى بأخبار المسموعات ، ويده فتأتى باخبار الملموسات ، وهكذا بقية الحواس ، ثم يلقى ذلك كله بين يديها لتنظر فيه فتستعد لدفع ما يضره ، وجلب ما ينفعه

واذا احتاج الى طعام أو شراب أو مركب أو ملبس أو دفاع

عدو او غير ذلك ، رفع الامر اليها ، ولم يقبل فيما يريد منها عذرا .
وان حملها أصراً ، فهي منه فى شغل شاغل ، وعناء زائد ، لا تكاد
تفيق لحظة من اللحظات ، حتى نسيت ذاتها ، وهجرت عالمها ، حتى
كأنها لم تعرفه :

ولما تفرقنا كأنى ومالكاً على طول وصل لم نبت ليلة معاً

ولذلك تراها اذا هدأت من تدبير البدن ، وانسدت طرق
الحواس بالنوم ، فانقطعت عنها الأخبار الشاغلة لها ، ولم يكن لديها أمر
يهمها فى اليقظة ، اشتاقت لعالمها ، فرجعت اليه ، واختلست تلك
اللحظات للتنزه فيه ، والتمتع بجماله ، فربما رجع لها شئ من صفاتها
الأصلية ، فأبصرت المغيبات كما كانت تبصرها قبل ، بمرآة بصيرتها
الصقيلة التى يترا آى فيها كل شئ ،

وإياك أن تعتقد ان الرؤيا لا تكون الا من الاهتمام بأمر فى اليقظة كما
يقررونه الآن ، فانه قسم منها ، وهو أضغاث الاحلام ، وليست منحصرة
فيه ، وان كان الغالب ذلك ، فاياك واعتقاد الانحصار الذى أخطأوا فيه خطأ
فاحشا ، يؤدى الى تكذيب العيان (وانظر كتب التاريخ فى ذلك ان شئت)
والى الحيرة فيما جاء به القرآن ، فى مثل قصة يوسف عليه السلام ، على أن
علماء الاسبرتزم (استحضار الارواح) أنفسهم قد قرروا ان المستقبل
محدود بحدود مفروغ منها قبل ان يكون ، وان الروح يمكن أن تعرفه
كذلك قبل ان يوجد ، فاربأ بنفسك أن تكذب (وأنت مسلم
تؤمن بالله والقرآن) بما يصدق به علماء أوربا ، واعرف قدر نفسك ،

وكن ملكاً قوياً عادلاً حكيماً ، فى اصلاح أمرك ، وتدبير شأنك ، وأزل الصدأ عن مرآة قلبك حتى تتجلى فيها حقائق الأشياء على ما هى عليه .

(ولا تكن مارداً تسعى بمفسدة فى ملك ذاتك لكن فيه كن ملكا)

فابحث عن تفصيل مملكتك الواسعة ، التى جمعت كل ما فى الوجود ، وكن فى أرضها ان شئت ، أو فى سمائها ان شئت ، واعرف ما اشتملت عليه تلك المملكة الفيحاء ، من أشرار ، فاحذرهم لئلا يخربوها عليك ، ومن خيار فراعهم وانصرهم ، فانهم فى ذلة وضعف ، فقو جانبهم وارفع شأنهم ، بقدر ما يمكنك حتى يتوطد الامن ، ويسود السكون ويظهر العدل ، وتتم السعادة ، وابحث عما فى تلك المملكة من الكنوز فاستخرجها ، فهى أقرب اليك من الكنوز الخارجية التى أورثتك العناء ، وأضاعت منك الصفاء .

واذكر قول على رضى الله عنه :

دواؤك فيك وما تشعر وداؤك منك وما تبصر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر

هذا والكلام على الروح طويل جداً ونخشى أن يخرجنا الشغف بتحقيق الحقائق على ما نحب الى ما يدق عن كثير من الافهام ويعلو عن متناول الاوهام فلنقتصر على هذا القدر من الكلام فيها :

(الفرق بين الاولياء وغيرهم فى هذا الموضوع)

لعلك وقد سبق لك من صفات الروح ما أعجبت به ، تعتقد أن هذا مقام يطلبه مريد الكمال ، وتشرئب اليه أعناق سادات الرجال ، غير عالم أن مقام الكشف والاطلاع على المغيبات من أحط المقامات ، وأنزل الدرجات . عند ذوى الاختصاص من الاولياء والأنبياء . ولنشرح لك شيئاً من ذلك اجمالا ظن بك ، فان لم تكن من أهله فدعه لأهله ، وخذ من الكتاب ما هو أولى باستعدادك ، واياك أن تعتقد أن كل ما هو هين عليك هين على سواك ، وآية عدم الاستعداد أن لا ترى له وضوحا عندك ، ولا لذة لديك .

وانى أصدع بالامر بلسان أهله ، فأقول : ان هناك فرقاً كبيراً بين المؤمن الكامل الذى لا يتوجه الا الى معرفة جلال الله تعالى وعظمته ، غارقاً فى توحيده واجلاله ، ذاهلاً عن كل شئ فى الوجود ، وبين ذلك الذى تعنيه المكونات فيلتفت اليها بمرآة قلبه ، فيعرف ما سيحدث فيها من الأمور المستقبلة ، بمقتضى ما لجوهر نفسه من الصفاء ، فانها بمنزلة البلور الذى ينتقش فيه كل شئ يقابله عند التوجه اليه ، وأما الاولياء والأنبياء فيأبون أن ينقشوا فى ألواح قلوبهم شيئاً من تلك الامور الكونية ، وان كانت من علم الغيب ، ويترفعون عن أن يتوجهوا اليها ، أو يدنسوا جوهر نفوسهم بها ، ويحطوا من عوالى هممهم بالالتفات اليها ، والاطلاع عليها ، وان كان

أمراً كبيراً فى نفسه عند غيرهم ، ولكنه حقير جداً بالنسبة الى درجاتهم ، وعلو مقاماتهم . فأجلاء الأولياء يرون أن من أكبر العار النظر الى الاغيار ، والركون الى الآثار ، وأن طلب الكرامات ، أو الفرح بما يتجلى لهم من ملكوت الأرض والسموات ، لمن دلائل سقوط الهمة ، وضعف المحبة ، والبعد عن الحضرة ، وعدم خلوص العبودية ، فإن محب الله لا يبغى به بدلاً ، بل يرى كل شئ يشغله عن شهود جماله وجلاله ، واستغراق القلب فى جميع أوقاته بعظيم نعوته ، وجليل صفاته ، أكبر برهان على أنه عبد الحظوظ ، أسير الشهوات ، لا محب لرب الأرض والسموات ، ولا هو من الذين تطهروا من بقايا نفوسهم ، وخرجوا من جميع أكوانهم ، فكانوا لله لا لأنفسهم فى جميع حركاتهم وسكناتهم ، لا يتفكرون الا فى مرضاته ، ولا يتحركون الا فى طاعته ، متحققين بقوله (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم) ، فهم يرون أن التوجه الى معرفة الحوادث المستقبلة ، والشؤون الغامضة خروج عن آداب العبودية ، وانصراف عن الحضرة العلية ، ودليل على بقاء الشهوة ، وضعف المحبة ، وعدم خروج الأكوان من القلب ، ووجود بقايا الحظوظ فى أعماق النفس ، ومن يكن هذا شأنهم لم يزالوا فى الأكوان يرتعون ، وعن مدارها لا يخرجون ، متنكسة أبصارهم الى الأغيار ، مأخوذة نفوسهم الى الآثار ، بعيدة عن مشاهدة جلال الواحد القهار ، وأن تجلى لهم من

أنوار الملك والملكوت ، ما يحير الأفكار ، ويأخذ بالأبصار ، فأين أولئك ممن يقول :—

وليس لى فى سواك حظ　　فكيفما شئت فاختبرنى

أو من يقول : —

قال لى حسن كل شئ تجلى　　بى تملى فقلت قصدى سواكا

وحد القلب حبه فالتفاتى　　لك شرك ولا أرى الاشراكا

أومن يقول : —

ولو خطرت لى فى سواك ارادة　　على خاطرى يوماً قضيت بردتى

أو من يقول :—

وحرمة الود مالى عنكم عوض　　وليس لى فى سواكم بعدكم غرض

ومن حديثى بكم قالوا به مرض　　فقلت لا زال عنى ذلك المرض

وما أجدره أن يخاطب المشغول بأنوار الملكوت عن ذى العزة والجبروت بقوله : —

وهمت بأنوار فهمنا أصولها　　ومنبعها من أين كان فما همنا

وبهذا تعلم سر قولهم أن الكشف من أقل الدرجات ، وأنه من صفات أرباب الأحوال ، الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال ، وتعرف السبب فى عدم كثرة الكرامات ، والكشوفات من أكابر الصحابة ، وكمل السلف الصالح ، فان بواطنهم كانت مستغرقة الهم بالله ، وظواهرهم مقصورة على طاعة الله ، ويرون من سوء الادب ، أو انحطاط الهمة ، أو نقص المحبة ، أو عدم الصدق فى العبودية ، أن يتوجهوا بقلوبهم الى

ماسيحدثه الله فى الزمان المستقبل ، أو يعتنوا بشأن كون من الا كوان حتى يجعلوا له محلاً من قلوبهم ، ومركزاً فى داخل نفوسهم ، ونصيباً من عنايتهم وقسطاً من وقتهم ، وتوجهاتهم ، هذا هوشأن الـكاملين الذين فنوا فى محبة الله ، والتزموا الوقوف بباب حضرته ، والعكوف على الاخلاص فى خدمته ، فقلوبهم هى محل التجليات والفيوضات ، وهى مشرق الأنوار ومتنزل الاسرار ، ولـكن يأبون أن يتخذوا تلك الأنوار العلية ، سراجاً يبحثون به عن خفايا المـكونات ، أو دفائن المغيبات ، من حوادث الـكائنات ، ممـا هو شهوة من الشهوات ، وركوض فى عالم الظلمات ، وهذا قليل من حالهم ، ونذر يسير من شرح كمالهم ، سقناه لك تمحيصاً لما تحب من الحقائق العلمية ، أو تشويقـا للمستعدين لتلك المقامات العلية ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم

(بيان معنى مرض القلوب وموتها)

« والسبب فى عدم احساس الناس بذلك »

قال الله تعالى يصف المنافقين ، (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) وقال تعالى (يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم) ، وقال تعالى (لينذر من كان حياً ويحق القول على الـكافرين) فجعلهم فريقاً آخر يقابل فريق الاحياء ، وربما يظن ظان ان هـذا ضرب من التجوز قصد به المبالغة ، وتمثيل المعقول بالمحسوس ، وقد

جاء هذا الظن من التغلغل فى المحسوسات ، حتى صار نظره قاصراً عليها ، وأصبح غيرها داخلا عنده فى عالم العدم ، وهى نتيجة طبعية لكثرة مزاولة المحسوسات وهجر ما عداها . وقد يصل به الامر الى انكار ما سوى المحسوسات بالكلية ، فيكون بمنزلة من ينكر أضواء الكواكب لفقد بصره ، أو وجود الحيوانات الذرية المسماة بالمكروبات مثلاً لعدم وجود الميكروسكوب (المنظار المعظم) لديه ، ولو أنصف لعرف انه لا معنى للمرض الا نقص الآثار التى كانت تصدر عمن قام به المرض . ولا معنى للموت الا بطلانها بالكلية

وأستسمحك فى مثل هذا المقام ان تتساهل معى بعض التساهل فى التعبير الذى لا يضر فى الغاية المقصودة لنا من ايصال تلك الحقائق الى الاذهان ، واياك ان تكون من قاصرى النظر المتفلسفين الذين يقفون عقبة فى طريق كل خير ، ويطيلون القول على غير طائل

فاذا تلك القوة الربانية التى تصدر عنها الآثار العجيبة التى شرحنا بعضها فيما سبق اذا نقص شئ من آثارها كانت جديرة بأن تسمى مريضة ، كما ان العين اذا لم تبصر ابصارها المعتاد كانت مريضة وكما ان حاسة الذوق اذا كانت تجد المر حلواً والحلو مراً حكمت بأنها فاقدة لصحتها ، فكذلك القلب اذا صار يستلذ الشرور والقبائح ويميل الى الجهالات (وقد كانت لذته زمن صحته فى اكتساب الفضائل والكمالات) كان مريضاً ، وصار بمنزلة من يستلذ أكل الطين ، وينفر من الاطعمة الطيبة ، واذا صار لا يبصر الحق الواضح ، وكان

يبصر ما فى السموات العلى ، فما أجدره بأن يسمى أعمى ، الى آخر الصفات التى كانت له قبل ، فانسلخ منها وتباعد عنها ، ولما كان هذا القلب هو الانسان على الحقيقة ، وهو المتصف بخاصة الانسانية دون غيره من أجزاء الجسم . كان جديراً بأن يسمى صاحبه ميتاً ، اذا ضاعت منه هذه الخاصة ، وبطلت منه تلك الآثار كلها ، وان من يصف الجسم بالمرض لنقصان بعض آثاره ، ولا يسهل عليه أن يصف القلب بذلك الا على سبيل التجوز ، كان بمنزلة من يصف النباتات بالمرض ولا يرضى أن يصف الانسان به مع كونه أتم منها حياة وأعظم منها أثراً .

ولما كانت حياة الجسم لا قيمة لها بدون حياة القلب : (الروح) وهى مفاضة عليه منه ، لم يعتبرها القرآن حياة ، وقصر الحياة على حياة القلوب ، فقال (أو من كان ميتاً فأحييناه) ، لانه يريد الحياة الانسانية لا النباتية ولا الحيوانية

وأما السبب فى جهل الناس بذلك فهو أنهم لم يعرفوا قلوبهم الا وهى مريضة بتلك الامراض ، وقلما يذكر الانسان منهم تلك اللذة التى كانت للقلب زمان الصحة ، أو يعرف ذلك الزمان

اللهم الا فى لحظات قليلة فى صفاء الليل ، فيتنسم نسيم القرب ويشم رائحة تلك الرياض ، ويذوق بعض تلك اللذة ، ولكن لا يلبث أن تجذبه سلاسل محبوباته وشهواته الى السفل فيحجب ذلك الضياء ويضيع منه ذلك السناء

خطرة فى السر منه خطرت　　خطرة البرق بدا ثم اضمحل

فهو يظن أن هذا هو طبيعة القلب ، وهذه مقتضياته ، وذلك مبلغ علمه ، وأيضاً فهو لايجد من الناس الذين هو فى وسطهم الا من كان على شاكلته وقلما يجد من الاصحاء أحداً وان وجدهم فقلما يعرفهم .لانه انما يبصرهم بالحس الباطنى ، وقد فرضنا مرضه أوفقده ، وأما الامراض الظاهرية فهى محسوسة بالحس الظاهرى ، وكلما تقلب وجد العدد العديد من الأصحاء

واما من وصل به الحال الى حد الموت فقد بطل منه الاحساس بالكلية ، وتلف استعداده الاصلى بالمرة ، فهو لايصدق بآثار تلك الروح ، ولا يشتاق اليها ، لان الانسان لايشتاق الى شيء الا اذا كان مستعداً له (فالشوق علامة الاستعداد) وهذا هو غاية الوبال ، ونهاية الخسران

فان المريض اذا أحس بمرضه ،طلب له الدواء ، فرجي له الشفاء ، والا يئس منه الأطباء ، وخاب منه الرجاء ، ولهذا يقول الله تعالى فى حق قوم وصلوا الى هذه الدرجة ، (ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا) ويذكر فى ذم المنافقين وبيان خاصتهم ، (الا انهم هم المفسدون ولكن لايشعرون) ، فانهم لوشعروا بماهم فيه لرجي صلاح حالهم ، فنبه سبحانه على انهم بحيث لايرجى منهم فلاح ، ولاينتظر لهم صلاح ، وهو غاية النقص الشنيع ، ونهاية الذم الفظيع ، ولايخفى عليك أن الناس متفاوتون فى

تلك الامراض تفاوتهم فى تراكم الظلمات . وارتكاب الآفات

(النفس وماجبلت عليه)

(بعد اتصالها بهذا الهيكل الجسمانى)

قضى الله أن ينزل هذه النفس الشريفة من عالمها الرفيع، ويدخلها فى سجن هذا البدن

ولما كانت مقتضياتها من حيث انها جوهر مقدس تضاد مقتضيات هذا الجسم ، لما بينهما من التباين ، اقتضت الحكمة الالهية أن تغرس فيها محبة شديدة لهذا الهيكل الجثمانى ، حتى تتحمل رذائله وأثقاله ، وتخف عليها تلك المصيبة التى منيت بها ، وان كان فى تعلقها به حكم كبرى ربما تعرضنا لها بعد، ثم لاتزال تتزايد تلك المحبة على ممر الايام ، فيزداد شغفها بتدبير مصالح الجسم ، والسعى وراءها ، وان كانت من أسمج مايكون ، (والمحب لا يرى لمحبوبه عيباً ولا فيما كلفه به ثقلا) ولو وقفت عند الحد المشروع لها فى ذلك لتمت لها السعادة . وقامت بما أريد منها أحسن قيام ، ولكنها بمقتضى هذا الحب المفرط ، وذلك الجهل الذى استولى عليها عندما انغمست فى ظلمات الطبيعة المادية ، قد تلاشت بالكلية فى مطالب الجسم ، ونسيت عالمها الأول ، ومقتضيات ذاتها وبطل منها الشوق الى الكمال الحقيقى ، وقد نبه الله على ذلك فى فريق من الناس ، فقال (نسوا الله فأنساهم أنفسهم) فاذا اتغلغلت فى ذلك الوادى الوخيم اتصفت

باقبح الصفات ، واخس الخصال . واختلط عليها الامر ، وضاع منها الرشد ، وخيل لها أن مقتضيات الجسم هى مقتضيات ذاتها ، فبالغت فيها فجهلت ، وظهرت منها الأشياء المتضادة ،

والسر فى ذلك أن الانسان مركب من جوهر نفيس ، وجوهر خسيس فلا بد أن تظهر مقتضيات هذا وذاك ، بل أزيدك فى الامر بيانا وهو أن الانسان اذا غلبت عليه صفات نفسه الاولى ، التى هى فضائل محضة ثم أراد أن يسير بها فى مطالب الجسم كما هو موضوعنا ، انقلبت رذائل محضة ، فغريزة الشوق الذى لاينطفىء وهى من غرائز النفس الفاضلة وقد أوجدت فيها كى لاتقف عند حد ، ولاتنتهى الى كمال ، فتكون فى الترقى فى الكمالات دائما بمقتضى ذلك الشوق ، وان شئت فسمه شهوة

تلك الغريزة التى هى من أفضل الغرائز وأعظمها اذا استعملت فى مطالب الجسم انقلبت شرها لاترويه المحيطات ، ولاتشبعه أعظم الممالك ، فكانت أكبر رذيلة ، وأول نقيصة ، وصرت بها أول الجهلاء وقد خلقت فيك لتكون بها أول العلماء الى غير ذلك مما لايناسبه الا كتاب مخصوص ويكفينا الآن هذا التمليح

فمن أجل هذه المطالب وتلك المحبة ، وهاتيك الغرائز التى استحالت الى اضدادها ، كان الانسان مجبولا على الظلم والجهل ، كما قال تعالى فى الانسان (انه كان ظلوماً جهولا) لم يجعله ظالماً وجاهلاً ومارضى (وهو العليم) حتى جعله ظلوماً وجهولاً

وكان مجبولاً على الشح والبخل (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي اذاً لأمسكتم خشية الانفاق ، وكان الانسان قتوراً) وهذا أبلغ مايبين للانسان مزيد جبله . وينعى عليه سوء حاله ، اذ كان عظيم الحرص شديد البخل ، ولو ملك خزائن رحمة الله تعالى ، وهى التى لا تنفد ولا تبيد ، ولكنه حكم الجبل ، ومقتضى غريزة الشح ، الى غير ذلك من الصفات التى بينها الله تعالى فى الآيات العديدة كقوله تعالى (خلق الانسان من عجل) وانظر كيف بالغ فى بيان مافى الانسان من التسرع والطيش ، حتى جعله مخلوقاً منه ، الى آخر ما جاء فى الكتاب والسنة ، وقرره الاخلاقيون وسنشرح لك بعض تلك الصفات على التفصيل فنقول :

ان من أخص صفات النفوس الانسانية العظمة والكبرياء بما لا يمكن شرحه ، ولا يعرفه المتكبر نفسه ، الا اذا كان بالمحل الاول من النظر الصحيح ، فانه يرى نفسه انما تطمع فى الترفع على بعض الناس دون بعض ، فيظن ان ذلك حدها الذى تنتهى اليه ، وقد فاته انه لم يتحرك فيها الكبر الى ما فوق ذلك الحد لعدم طاعيتها فى الترفع على تلك الطبقة العالية ، فهو كامن فيها كمون النار فى الزند ، حتى اذا رفعته الايام الى ما فوق مركزه الذى هو فيه تحرك منه ذلك الخلق السيء ، فأحس به اذ ذاك ، ولا يزال كذلك حتى يقول ما قال فرعون لقومه (يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى)

ففى النفس ألوهية طبعية ، ولكن لا تظهر الا على قدرماتسمح

به الظروف ، وتحتمله النفوس ، حتى اذا خلا لها الجو ورأت من يقبل منها ذلك ، أظهرت الكامن فيها ، وقالت (أنا ربكم الاعلى)

ولهذا أرى أن محبتها للعلو والجاه أمر طبعي لما فيها من الالوهية التى شرحناها ، فهى تحب الاستيلاء على القلوب لذاته لا من أجل انه وسيلة الى المال ، كما يقرره كثير من الاخلاقيين ، فان محبة الجاه أعلق بها من محبة المال ، فهو مقصود لذاته بل الامر بالعكس عند ذوى النفوس الكبيرة

وارجع الى نفسك هل تراها تقبل ان تسقط منزلتها عند فقير مقعد لا يرجى منه خير ، ولا ينتظر له فلاح ؟ ؟ !

لا ، بل تراها تتألم اذا لم يحترمها كما تحب ، ويعطيها حقها على ما تشتهى ، بل ربما كان سقوط ذلك الفقير ، داعيا الى مزيد سخطها : وشديد غضبها ، فلا يتصور ان يكون ذلك من أجل مال تبتغيه من الاستيلاء على قلب ذلك الفقير الميئوس منه

ولهذا السر تراها تأبى الا أن تنفذ ارادتها ، ولو دمرت العباد وأخربت البلاد .

تراها لا تقف فى الانتقام عند حد معقول ، بل تجازى على أقل هفوة بأفظع أنواع القتل ان استطاعت الى ذلك سبيلا ، وانظر فى تاريخ الملوك السابقين والامراء المستبدين

تراها تكره من يعارضها فيما تحب ولو كان أحق الحق ، وأول الصواب

تراها لا تحب المشاركة فى شئ وتأبى الا أن تستأثر بكل شئ لانه الرفعة والكمال .

(سبب تقدم المنافقين ورفعتهم)

أبنا أن النفس تأبى الا أن تنفذ هواها ، ولا تميل الا لمن يساعدها على ذلك وتنفر كل النفور ممن يضع لها العقبات فى طريق ما تهواه ، وان كان أنصح الناصحين لها ، وأعظم المشفقين عليها ، وأنها مجبولة على حب المدح والثناء ، (حب الثناء طبيعة الانسان) لانها تستشعر بذلك رفعتها وكمالها ، فترتاح له وتحن اليه، وان كانت تمدح بما ليس فيها ، لأنها كثيراً ما يغالطها الوهم ويضلها الخيال، (وقل من يعرف عيب نفسه) ، أو لا يعتقد فيها الكمال

ولهذا ترى المنافق المتملق سرعان ما يستولى على النفوس ، ويأخذ بحبات القلوب ، لأنه قد سبق لك أن فى النفوس ألوهية كامنة وأنها تسعى وراءها على قدر ما يمكنها ، وقد وجدت فى هذا المنافق أمنيتها المقصودة ، وضالتها المنشودة .

وجدت منه عابداً عارفاً بواجبات الالوهية ، فقابلها بالامتثال الاعمى ، ولم يبحث وراءها عن سر ما أمرت ، ولا حكمة ما قضت ، شأن العبد الذى استسلم بكليته لمولاه

وجدت منه موافقاً لأغراضها ، ومسارعاً الى شهواتها ، وهى ترتاح لذلك ارتياحا وجدانياً ، وان كانت تمقته اذا رجعت الى عقلها

ولكن عرفنا من أحوال النفوس ان الغالب عليها هو الأمور الوجدانية ، دون البرهانية ، حتى فى أذكى الاذكياء ، وأكبر الكبراء .

وانظر ان شئت الى السكير الذى يئن من شرب الخمر ، ويعتقد انه أعظم مفسدة ، وأكبر مضرة ، كيف يرتاح الى ندمائه ، ويحن اليهم حنينه الى الكاس ، فتلك غريزة فى النفوس كلها ، تميل الى من يوافقها على ما تشتهى مهما كان
(وسلطان الطبيعة فوق سلطان العقل ، وان كان يتوقد ذكاء ويشتعل ضياء ،)

(بيان السبب فى أن الانسان لا يعرف عيب نفسه)

أظنك تعرف انك اذا أحببت أحداً من الناس أعجبتك صفاته وأفعاله ، ولا تكاد تنظر فيه عيباً ، (وكل ما يفعل المحبوب محبوب)

هذه صفة لازمة للحب لا تنفك عنه ، ولهذا قالت عزة لعبد الملك ابن مروان عند ما قال لها : أى شئ فيك أعجب كثيراً حتى قال ما قال ؟ فقالت (انه كان يرانى بعينين ليستا فى رأس أمير المؤمنين) وهاتان العينان ليستا الا عينى الخلة والمحبة ، وقد ورد (حبك الشئ يعمى ويصم)

ولهذا السر قد شرعت المشورة ولو كنت أذكى الاذكياء ، وأحكم الحكماء ، لانك لا تكاد تبصر الصواب فى أمرك ، لمكان الميل والهوى من نفسك

فاذا علمنا ذلك علمنا ان نفسنا أحب الاشياء الينا وكل شيء أحببناه فانما هو من أجلها ، واذا كانت لا ترى عيباً فى محبوبها فبالاحرى أن لا ترى عيباً فى نفسها ، فيصعب عليك جداً ان تضع نفسك فى محل المنتقد والمنتقد ، وفى مركز الحاكم والمحكوم عليه ، ومن جهة أخرى انها خفية المكر شديدة الخداع ، كثيرة الحيل ، سريعة الروغان على ما تسمع

ولعلك لا تفهم معنى ذلك وتريد ان تسمع فى بيانه شيئاً معقولا وسراً مفهوماً ، فاعلم ان النفس تميل الى مشتهياتها ميلاً فطرياً ، وتنفر عن ما لا يلائمها كذلك ، فهى تسير نحو مطالبها بمقتضى الطبع لا بمقتضى التفكير ، والتدبير ، وما يكون باقتضاء الطبع فقلما يدخل تحت دائرة الفكر ، لان هذا عالم تسير فيه الطبائع على مقتضى ما فطرت عليه وذاك عالم آخر يسير فيه العقل على مقتضى الدليل والبرهان ، فهو سير تكافى بطيء على رواحل ضعيفة مهزولة ، وقلما تعرض الطبائع مطالبها على العقل أو تستصدر منه أمراً ، أو تنتظر له اذناً ، فانها غنية عن ذلك ، وكيف تستصدر منه الامر ، أو تنتظر الاذن ، وهى أقوى منه سلطانا ، وأجد منه سيراً ، وأحد منه سلاحا ؟ ؟

وان شئت فانظر الى تدبير الغذاء مثلاً هل تجدها تستأمر العقل فيما يحتاج اليه من الصفراء والبنكرياس (١) وهو فى الامعاء أو المعدة أو

(١) البنكرياس غدة تحت المعدة تتصل بالظهر تفرز سائلا يسمى العصارة البنكرياسية

تستأذن منه عند ما يكون [١] كيموسا وتريد أن تدفعه الى الامعاء ، وهكذا فى تنقلاته كلها حتى يصل الى البطين [٢] الأيسر ثم يخرج منه الى الأورطه [٣] ويتوزع فى جميع فروعه الى أنحاء البدن

لاشك انك لا تشعر بذلك ، ولا تحس بشئ مما يكون بتلك المملكة المنظمة ، فانها مملكة أخرى لم يوكل اليك تدبيرها ، فلا تعرف أخبارها وحوادثها من طريق الفكر ، فهكذا سير النفس الى مطالبها وشهواتها ، انما هو بمقتضى الطبع لا بحكم العقل واشارة الفكر فلا تكاد تعرفه أو تحس به ، وهذا هو معنى كونها خفية المكر تتسلل الى مطالبها من غير ان يشعر العقل بذلك ، تارة وتصرعه بمقتضى قوتها تارة أخرى

وتراك اذا عقدت على نفسك عقداً ثم سرت فى طريقه فصادفت ما لا يوافق الطبيعة فى أهوائها ، وجدت نفسك تنزع الى حل ما عقدت ، ونقض ما أبرمت ، لان النفور من غير الملائم طبعى كما ذكرنا ، (فالنفس دائماً مع الطبع لا مع العقل) ، وهذا معنى كونها كثيرة الروغان ، لا تذعن لعقد ! ولا تفى بعهد .

---

(١) الكيموس اسم للطعام عند ماتتم هضمه فى المعدة

(٢) البطين الايسر والبطين الايمن تجويفان بأسفل القلب وهما تحت الاذين الايسر والاذين الايمن

(٣) الأورطة هى عرق كبير يصب فيه الدم الصالح للتغذية بعد خروجه من القلب وهى المسماه بالابهر

وربما تطاير من نار الطبيعة شررها ، وعلا دخانها حتى أظلمت جهات القلب فصار لا يمكنه أن يبصر شيئاً فى حندس تلك الظلمات فانتهزت تلك الفرصة فخدعتـه . وضمته اليها ، فصار لا يرى الا ما تراه ، ولا يميل الا الى ما تهواه ، وحينئذ لا يكون بينهما معاداة ولا معاندة ، لانه قد تم بينهما الاتحاد ، فبطل العناد ،

وأما المصادمة بين العقل والطبيعة فلا تكاد توجد الا فى كمل الرجال ، الذين لم ينطمس نور بصيرتهم ، بظلمة طبيعتهم ،

ولعلك بعد هذا قد استبان لك الامر على ما تحب ، غـير انى أحب لك ان تضم الى ما سبق من الفوائد فائدة أخرى وهى ان تعلم ان هناك قوتين من عالم الادراك ، وكأنهما موظفان بدائرة الطبيعة وهمـا قوة الوهم الذى تستعمله النفس فى كثير من مطالبها ، فينبعث أسرع من حركة الاجسام الثقيلة ، الى السفل غير متحر صدقاً ، ولا باحث عن حقيقة

وقوة الخيـال (١) الذى هو أعجب من الفتوغراف فى انطباع صور المحسوسات فيه

هذا ويحسن بنا بعد ما تقدم ان نبحث عن طريق معرفة عيوب النفس فنقول :

(١) جرينا هنا على مذهب من يجعل الخيال مدركا لا خزانة

تستأذن منه عند ما يكون [١] كيموسا وتريد أن تدفعه الى الامعاء ؛ وهكذا فى تنقلاته كلها حتى يصل الى البطين [٢] الأيسر ثم يخرج منه الى الأورطه [٣] ويتوزع فى جميع فروعه الى أنحاء البدن

لاشك انك لا تشعر بذلك ، ولا تحس بشئ مما يكون بتلك المملكة المنظمة ، فانها مملكة أخرى لم يوكل اليك تدبيرها ، فلا تعرف أخبارها وحوادثها من طريق الفكر ، فهكذا سير النفس الى مطالبها وشهواتها ، انما هو بمقتضى الطبع لا بحكم العقل واشارة الفكر فلا تكاد تعرفه أو تحس به ؛ وهذا هو معنى كونها خفية المكر تتسلل الى مطالبها من غير ان يشعر العقل بذلك ، تارة وتصرعه بمقتضى قوتها تارة أخرى

وتراك اذا عقدت على نفسك عقداً ثم سرت فى طريقه فصادفت ما لا يوافق الطبيعة فى أهوائها ، وجدت نفسك تنزع الى حل ما عقدت ، ونقض ما أبرمت ، لان النفور من غير الملائم طبعى كما ذكرنا ، (فالنفس دائماً مع الطبع لا مع العقل) ، وهذا معنى كونها كثيرة الروغان ، لا تذعن لعقد ! ولا تفى بعهد .

---

(١) الكيموس اسم للطعام عند مايتم هضمه فى المعدة

(٢) البطين الايسر والبطين الايمن تجويفان بأسفل القلب وهما تحت الاذين الايسر والاذين الايمن

(٣) الأورطة هى عرق كبير يصب فيه الدم الصالح للتغذية بعد خروجه من القلب وهى المسماه بالابهر

وربما تطاير من نار الطبيعة شررها ، وعلا دخانها حتى أظلمت جهات القلب فصار لا يمكنه أن يبصر شيئاً فى حندس تلك الظلمات فانتهزت تلك الفرصة فخدعتـه ، وضمته اليها ، فصار لا يرى الا ما تراه ، ولا يميل الا الى ما تهواه ، وحينئذ لا يكون بينهما معاداة ولا معاندة ، لانه قد تم بينهما الاتحاد ، فبطل العناد ،

وأما المصادمة بين العقل والطبيعة فلا تكاد توجد الا فى كمل الرجال ، الذين لم ينطمس نور بصيرتهم ، بظلمة طبيعتهم ،

ولعلك بعد هذا قد استبان لك الامر على ما تحب ، غـير انى أحب لك ان تضم الى ما سبق من الفوائد فائدة أخرى وهى ان تعلم ان هناك قوتين من عالم الادراك ، وكأنهما موظفان بدائرة الطبيعة وهمـا قوة الوهم الذى تستعمله النفس فى كثير من مطالبها ، فينبعث أسرع من حركة الاجسام الثقيلة ، الى السفل غير متحر صدقاً ، ولا باحث عن حقيقة

وقوة الخيـال (١) الذى هو أعجب من الفتوغراف فى انطباع صور المحسوسات فيه

هذا ويحسن بنا بعد ما تقدم ان نبحث عن طريق معرفة عيوب النفس فنقول :

(١) جرينا هنا على مذهب من يجعل الخيال مدركا لاخزانة

(بيان ما هو الطريق الى معرفة عيوب النفس)

قد ذكروا لذلك طرقاً عديدة منها أن تتفق أنت وصديقك الذى تثق به على ان كلا منكما يخبر الآخر بما يراه فيه وقد قال عمر رضى الله عنه رحم الله امرأ أهدى الى عيوبى

وكثيراً ما كان يسأل حذيفة بن اليمان عن ذلك فان عمر رضى الله عنه كان من معرفة خداع النفس وخفاء مكرها والتفتيش عليها فى كل ما تميل اليه واتهامها فيما تحسنه وعرض ذلك على العقل ووزنه بميزان الشرع بالمحل الاول ولهذا ظهر عدله وأحبته رعيته

ولكننا يئسنا اليوم من هذا الطريق فلست تصادق الا من يقابلك بالمدح والثناء فتقابله بالحمد والاطراء فهو يغشك وأنت تغشه ولكن تجد نفسك ترتاح الى ذلك وتنفر من غيره فصار كل منكما يحن الى الآخر بمقتضى طبعه ويضحك منه بمقتضى عقله (ان رجع اليه) ومنها ان تنظر الى ما يقوله أعداؤك الذين قعدوا لك بالمرصاد فى كل ما تأتى وتذر فهم أعلم الناس بعيوبك وأشدهم تطلعاً اليها وتفتيشاً عليها فيمكنك ان تستفيد من عداوة الاعداء أكثر مما تستفيد من صداقة الاصدقاء (والعاقل يستفيد من كل شيء)

عداي لهم فضل على ومنة　　فلا أبعد الرحمن عنى الأعاديا
همو عرفونى زلتى فاجتنبتها　　وهمو نافسونى فارتقيت المعاليا

والحساد يقومون مقام الاعداء فى ذلك لأنهم من أخبثهم فى

الحقيقة ومنها ان تبحث عن حكماء النفوس حتى يشخصوا مرضك ويعطوك الدواء اللازم لذلك المرض، وليس من الحزم ان تفزع الى الطبيب فى كل ما يلم بك ولو انحرافاً يسيراً ثم تكون مرتبكاً فى أحوالك متخبطاً فى سيرك ولا تذهب الى أطباء القلوب واحداً بعد واحد أو الى العدد العديد منهم فتعرض نفسك عليهم مجتمعين متباحثين كما تعمل الشورى الطبية على يد لجنة من الاطباء المسماة (بالكنصلتو) عندما يهمك بعض أمراض بدنك حتى يزول ما بك من شقاء العيش وتعاسة الحال فى الدنيا والآخرة ولكنى أعذرك فقد قل وجودهم وعز الوصول اليهم والعثور عليهم ومنها ان تنظر فى الآيات الواردة فى مكارم الاخلاق هل تنطبق عليك أم أنت على الضد مما جاء فيها كقوله تعالى (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاضعون والذين هم عن اللغو معرضون) فتنظر فى صفات نفسك فلعلك من ألهى اللاهين وألغى اللاغين وكقوله تعالى فى وصف المتقين (الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) وقوله تعالى (والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس) وقوله تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هوناً واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) الى آخر ما جاء فى القرآن العزيز والسنة الغراء ومنها ان تنظر الى عيوب الناس ونقائصهم ثم تعرض نفسك على ما علمت ولعل هذا وما قبله أسلم الطرق وأقربها فاذا انضم الى ذلك كثرة الاطلاع على الكتب الدينية والاخلاقية التى تبين صفات النفوس وما جبلت

عليه مع اتهامها وعدم الثقة بها وخضوع العالم الطبعي للعالم العقلي بقدر ما يمكن وايقاظ العمال المراقبين في دائرة العقل حتى يفتشوا عليها في كل شيء ويلزموها بعدم التسرع والطيش فيما تهواه ويفهموها انها من السفه بحيث يجب ان يحجر عليها فلا تتصرف الا بإذن القيم الرشيد وهو العقل

ان تم لك ذلك كله فقد عرفت الحق لاهله واهتديت في سيرك وانتظمت في امرك فكان لك ماتبتغيه وتم لك ماتشتهيه

(بيان اختلاف الناس في قبول الاخلاق)

« وما للمخالطة من الآثار الحسنة والسيئة »

ذهب قوم الى ان الانسان مجبول على الشر فلا يتأتى اصلاحه ولا فرق بين الاوصاف الظاهرية القائمة بالاجسام من السواد والبياض وبين الاوصاف القائمة بالنفوس من محبة المال والجاه وما تدعو اليه المحبة من الشره والحقد والحرص والحسد الى غير ذلك ،

وذهب آخرون الى انه مطبوع على الخير ولكنه يكتسب الشر من البيئة التي هو فيها ،

وذهب فريق ثالث الى انه مطبوع على الشر ولكن يمكن تثقيفه وتهذيبه بمكارم الأخلاق

وقال فريق رابع انه خلق خاليا من الخير والشر جميعاً ، فأن شئت فاجعله شيطاناً رجيماً ، وان شئت فاجعله ملكا كريما ، لانه

يقبل الخير والشر على السواء ، وهذا الرأي هو المشهور بين علماء الاخلاق المرضى عند محققيهم ، ولكن اذا دققت النظر ولم ترعبك عظمة القائلين بذلك الرأى وجدت الناس مختلفين فى أصل الخلقة اختلافاً كثيراً ،

فلو فرضنا اثنين وجدا فى بيئة واحدة وتعلما تعلما واحداً وقل انهما ابنا رجل واحد جاز أن يكون أحدهما ميالا للخير والآخر ميالا للشر ، بل اذا نظرت الى الاطفال وتفرست فيهم تجلت لك تلك الحقيقة بغاية الوضوح من نفوسهم وحركاتهم وأميالهم فهم اشبه شيء بالارض الطيبة التي يجود فيها الزرع ويطيب فيها الثمر وبالارض الخبيثة التي لا يخرج نباتها الا نكدا بل لا أكون مبالغا اذا قلت وبالارض الفاسدة التي لا تنبت شيئاً

ولست أراك مبعداً اذا قلت أننا من جميع اجزاء الارض فلنا خاصة جميع أجزائها قال الله تعالى ، (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والأنس) فدل على انهم مخلوقون للشر البحت فلم يعرفوا للخير معنى ولم يذوقوا له طعما ، وكذلك ورد فى حديث البخارى الذى قسم الناس ثلاثة أصناف . ان منهم من يشبه قيعان الارض التي لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ

ولتكن وجهتك الآن الى غايتنا التي نريدها من موضوعنا هذا ودع ماعدا ذلك الى فرصة أخرى ، غير انه يلزمني هاهنا أن أوصيك ان لا تتسرع الى اليأس من اصلاح أحد فلعل فيه خيراً كامنا فى الطبقة الثانية أو الثالثة أو السابعة من طبقات أرضه ، واذا كان رب الارض

السبخة أو الرملية لاييأس منها و يطمع في استصلاحها بالماء حتى تزول املاحها فتصلح للنبات او ينقلب رملها بكثرة فيضان المياه عليها طينة صالحة لذلك فما بالك بالانسان الذى هو مجمع العجائب والغرائب

على أن النفس الأنسانيه لاتقاس على شيء من تلك المواد الارضية الجامدة، وقد اخطأ من قاس صفاتها بسواد الجسم الذى لايتبدل مثلا، فانا رأيناها تلين وترق حتى تكون ألين من الماء ، وأرق من الهواء ، وتكاد تصل الى حد الذوبان، كما رأيناها تغلظ وتقسو حتى تكون كالحجارة ، أوأشد قسوة ، وبالجملة فلم نر شيئاً من الاشياء أقبل للتشكل والتطور من النفوس الانسانية فلا ينبغى أن تيأس من فلاحها ولاتفتر عن اصلاحها فهى هى أيدك الله

هذا وأرى أن من حقك على فى هذا المقام ان أذكر لك أسباب تفاوت الناس فى ذلك

فمنها نقص خلقى فى تركيب البنية ، ومنها اختلاف الامزجة ، وتفاوت الطينة التى خلق منها الشخص على ماتقدم لنا وعلى مايشير له ماورد من أن الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ،ومنها الوراثة من الأباء والامهات على نحو مايرثه من أوصافهم الظاهرية . وبهذا السبب يمكنك أن تفهم ماورد من ان الله تعالى ، قال (ياداود أنا الرب الودود ، أنتقم من الذرية بما فعل الجدود) مع ماتعتقد من العدل الالهى ، ومع قوله تعالى (ولاتزر وازرة وزر أخرى) فليس معنى ذلك ان صح الا أن الذرية تفعل مايستوجب عليه العقوبة الشديدة

بشؤم الأفعال القبيحة التى كانت تصدر من الآباء على مقتضى تلك الوراثة التى ذكرنا ، ويظهر لك معنى ماورد ، (تخيروا لنطفكم فان العرق دساس) وما ورد أيضاً (اعف نفسك تعف بناتك) واياك والتفيهق يرحمك الله ، ومنها طيب المطعم وخبثه كما دل على ذلك الأحاديث الكثيرة وقد اشتهر عن العرب فى مقام المدح لله دره ، ومنها اختلاف التأديب والتعويد حالة الصغر ، ومنها مخالطة الأشرار أو الاخيار فان الانسان مجبول على التقليد ، وأن الطبع يسرق من الطبع ، وان شئت أن تعلله تعليلاً فلسفياً فقل أن مرآة القلب لاتقابل شيئاً من الاشياء الا انطبع فيها لمزيد صقالها وتمام قابليتها ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (يحشر المرء على دين خليله) ، فليس ذلك جزاء للذنب من غير سر فيه ، بل لكون تينك المرآتين قد انطبع فى كلتيهما ما انطبع فى الاخرى ، وقال (المرء مع من أحب) فانه ماأحبه الالتناسب بينهما ولولا هذا التناسب لم تنعقد بينهما المحبة ، وعلى قدر تلك المحبة يكون الانطباع ، حتى أن الحب قد يصل بالمحب الى درجة أن يقلد محبوبه فى كل شىء ، فتفنى أخلاقه فى أخلاقه وأوصافه فى أوصافه ،

ولئن قيل بالعدوى فى الأمراض الحسية فالنفوس الانسانية اقبل لها في الأمراض المعنوية : وانى أوصيك (ولا أحب لك الا ماأحبه لنفسى) أن تنظر فى هذا السبب كثيراً ولا تظن أنه لا يقبل العدوى الا النفس الصغير

وأن نفس الكبير لاتقبلها فانه غلط ، لأن ذلك من مقتضيات الطبائع وما كان باقتضاء الطبع لا يمكن دفعه وليست المسألة مسألة فكرية وانما هى مسألةطبيعية ولكنى معك على أن نفس الصغير أقبل لما يرد عليها من نفس الكبير وقد نصحت لك وماتوفيق الا بالله

(بيان تفصيل المملكة الانسانية وذكر أمثلةلها)

قد اشتهر أن الانسان عالم صغير وأنه نسخة من العالم الكبير واذا أردنا تفصيل كل مافيه ممايشبه الشياطين والبهائم والسباع والملائكة والليل والنهار والشمس والقمر والارض والسماء الى غير ذلك طال علينا القول واتسع بنا البيان ولايتعلق غرض الكتاب الا ببيان مافيه من خير أوشر فلنقتصر على بعض أمثلة ذكروها فنقول قالوا أن كل انسان مع بدنه كوال فى بلد قيل له طهر بلدك ، وأدب من يقبل التأديب من أهله ، ورض من يقبل الرياضةمن حيوانه وسباعه فان عجزت عن تطهيره وعن تأديب طغاته ورياضة حيواناته وسباعه فلا تعجز عن الاحتراس من أن تفترسك سباعه وأن يسبيك طغاته حتى اذا لم تكن غالباً لم تكن مغلوباً ، والناس فى ذاك بين ثلاثة أصناف صنف لم يفعل ماأمر به وتهاون فيما فوض اليه فجرح وأسر فصار ملوماً مخذولا مع كونه مجروحا مأسوراً وهو المشار اليه بقوله تعالى (ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) ، وصنف

فعل ماأمر به فصار عند ربه مأجوراً وعند الناس مشكوراً وهو المشار اليه بقوله تعالى (والسابقون السابقون أولئك المقربون) وصنف جد تارة وقصر تارة أخرى فجرح وجرح وغلب وغلب ، وهو المشار اليه بقوله تعالى (خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم) ، وقال بعضهم الأنسان مع قوة الغضب وقوة الشهوة وقوة الوهم مثله مثل من بلى فى سفره بصحبة ثلاثة اضطر اليهم حتى لايمكنه أن ينفصل منهم ويقضي سفره بدونهم

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له مامن صداقته بد

فواحد أمامه هو له رقيب يحفظه وعين تكلؤه ، لكنه ملق باهت مموه يلفق الباطل تلفيقاً ، ويختلق الزور اختلاقاً ، فيخلط الكذب بالصدق ، والخطأ بالصواب ، وهو الوهم ،

والثانى عن يمينه بطش ذعر يحميه عن أعاديه ، لكنه كثيراً مايقويه فيهيج هائجه فلا يقمعه النصح ولا يطأطئه الرفق كأنه نار فى حطب أو سيل فى صبب ، فيحتاج أن يسكنه دائما فيحتمى به ومنه وهو الغضب ،

والثالث عن يساره وهو الذى يأتيه بالمطعم والمشرب ، لكنه أرعن ملق قذر شبق وهو الشهوة فهو يحتاج أن يصابرهم حتى يقطع سفره

ومن حيلته التى يرجى أن يسلم بها منهم أن يسلط هذا البطش الذعر على هذا الارعن الملق ، وأن يطفىء غلواء هذا الذعر التائه بخلابة هذا الارعن الملق وأن لايجنح الى الباهت المتخرص حتى يأتيه ببرهان

مبين . فيدفع ضرر بعض هذه القوى ببعض دفع الشر بالشر

(وجهة أخرى في البيان)

آثرنا أن نذكر لك ماقالوه على طوله لما فيه من الفوائد الجمة وارادة أن يغلب عليك الذوق الحكمى الفلسفى الدينى ؟ وعسى ألا تكون ممن غلبت عليهم الظلمات الشديدة والأذواق الجديدة فنقول

ذكروا أيضاً أن الأنسان اجتمع فيه أربعة أنواع من الأوصاف وهى الصفات السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية فهو من حيث سلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء والتهجم على الناس بالضرب والشتم ومن حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص والشبق وغيره ومن حيث أنه فى نفسه أمر ربانى كما قال الله تعالى (قل الروح من أمر ربى) فانه يدعى لنفسه الربوبية ويحب الأستيلاء والأستعلاء والتخصص والأستبداد بالأمور كلها والتفرد بالرياسة والأنسلال من رتبة العبودية والتواضع ويشتهى الأطلاع على العلوم كلها بل يدعى لنفسه العلم والمعرفة والأحاطة بحقائق الأمور ويفرح اذا نسب الى العلم ويحزن اذا نسب الى الجهل

والاحاطة بجميع الحقائق والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق من أوصاف الربوبية وفى الأنسان حرص على ذلك

ومن حيث أنه ينفرد عن البهائم بالتمييز مع مشاركته لها فى الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية فصار شريراً يستعمل التمييز فى استنباط وجوه الشر ويتوصل الى الأغراض بالمكر والحيلة والخداع ويظهر الشر فى معرض الخير وهذه أخلاق الشياطين فكل انسان فيه شوب من هذه الأصول الأربعة الربانية والشيطانية والسبعية والبهيمية

وكل ذلك مجموع فى القلب فكأن الموجود فى باطن الانسان خنزير وكلب وشيطان وحكيم فالخنزير هو الشهوة فان الخنزير لم يكن مذموماً للونه وشكله وصورته بل لجشعه وكلبه وحرصه والكلب هو الغضب فان السبع الضارى والكلب العقور ليسا كلباً وسبعاً باعتبار الصورة واللون والشكل بل روح معنى السبعية الضراوة والعدوان والعقر وفى باطن الانسان ضراوة السبع وغضبه وحرص الخنزير وشبقه ، فالخنزير يدعو بالشره الى الفحشاء والمنكر ، والسبع يدعو بالغضب الى الظلم والايذاء ، والشيطان لايزال يهيج شهوة الخنزير وغضب السبع ويغرى أحدهما بالآخر ويحسن لهما ماهما مجبولان عليه ، والحكيم الذى هو مثال العقل مأمور بأن يدفع كيد الشيطان ويكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة ونوره المشرق الواضح وأن يكسر شرة هذا الخنزير بتسليط هذا الكلب عليه اذ بالغضب يكسر سورة الشهوة ويدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه ويجعل الكلب مقهوراً تحت سياسته ، فان فعل ذلك وقدر عليه

اعتدل الأمر وظهر العدل فى مملكة البدن وجرى الكل على الصراط المستقيم

وان عجز عن قهر هـذه الثلاثة قهرته واستخدمته فلا يزال فى استنباط الحيل وتدقيق الفكر ليشبع الخنزير ويرضى الكلب فيكون دائما فى عبادة كلب وخنزير وهذا حال أكثر الناس

والعجب منه أن ينكر على عبدة الاصنام عبادتهم للحجارة ولو كشف الغطاء عنه وكوشف بحقيقة حاله لرأى نفسه ماثلا بين يدى خنزير ساجداً لله مرة وراكعاً أخرى ومنتظراً لاشارته وأمره فمتى هاج الخنزير لطلب شىء من شهواته انبعث على الفور فى خدمته واحضار شهوته أو رأى نفسه ماثلا بين يدى كلب عقور عابداً له مطيعاً سميعاً لما يطالبه مدققاً بالفكر فى حيل الوصول الى شهوته ، وهو بذلك ساع فى مسرة شيطانه فانه الذى يهيج الخنزير ويثير الكلب ويبعثهما على استخدامه فهو من هذا الوجه يعبد الشيطان بعبادتهما ، فليراقب كل عبد حركاته وسكناته وسكوته ونطقه وقيامه وقعوده ولينظر بعين البصيرة فلا يرى (ان أنصف) نفسه الاساعياً طول النهار فى عبادة هؤلاء وهذا غاية الظلم اذ جعل المالك مملوكا والرب مربوباً والسيد عبداً والقاهر مقهوراً اذ العقل هو المستحق للسيادة والقهر والاستيلاء وقد سخره لخدمة هؤلاء الثلاثة فلا جرم ينتشر الى قلبه من طاعة هؤلاء الثلاثة صفات تتراكم عليه حتى يصير طبعاً ورينا مهلكا للقلب ومميتاً له

أما طاعة خنزير الشهوة فيصدر منها صفة الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والتهتك والمجانة والعبث والحرص والجشع والملق والحسد والحقد والشماتة وغيرها

وأما طاعة كلب الغضب فتنتشر منها الى القلب صفة التهور والبذاءة والبذخ والصلف والاستشاطة والتكبر والعجب والاستهزاء والاستخفاف وتحقير الخلق وارادة الشر وشهوة الظلم وغيرها

وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب فيحصل منها صفة المكر والخداع والحيلة والدهاء والجراءة والتلبيس والغش والخب والخنا وأمثالها ولو عكس الأمر وقهر الجميع تحت سياسة الصفة الربانية لاستقر فى القلب من الصفات الربانية العلم والحكمة واليقين والاحاطة بحقائق الأشياء ومعرفة الأمور على ماهى عليه والاستيلاء على الكل بقوة العلم والبصيرة واستحقاق التقدم على الخلق لكمال العلم وجلاله ولا استغنى عن عبادة الشهوة والغضب ولانتشر اليه من ضبط خنزير الشهوة ورده الى حد الاعتدال صفات شريفة مثل العفة والقناعة والهدو والزهد والورع والتقوى والانبساط وحسن الهيئة والحياء والظرف والمساعدة وأمثالها ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب وقهرها وردها الى حد الواجب صفة الشجاعة والكرم والنجدة وضبط النفس والصبر والحلم والاحتمال والعفو والثبات والنيل والشهامة والوقار وغيرها

وسيمر بك مقالة تشرح لك الفرق بين المؤمن والكافر فى طلب الدنيا بعد اشتراكهما فى الطلب ان شاء الله تعالى .

(بيان ماتكسب به الاخلاق الفاضلة)

(وأن التربية ليست على مايفهم الناس وأن القوانين قليلة الغناء)

ربما أطلنا عليك فى هذا البيان لما فيه من الفوائد الجمة وأرى الاولى بك أن لاتسأم فعسى أن تجد فيه ما يكون كمالا فى علمك وتزيد به فضلا على فضلك ، فأذا أردت ذلك فاعلم أن كثيرا من الناس يظنون أن الطريق الى اكتساب مكارم الاخلاق والشفاء من أضدادها انما هو تعلم العلم ومعرفة الضار من النافع والحسن من القبيح فيحسبون الاتصاف بالفضل والكمال لازما من لوازم العلم أيا كان كما يعتقده العامة أو من لوازم العلوم الشرعية والاخلاقية على مايعتقده كثير من الخاصة ممن لم يعنوا بالبحث عن اسرار العلوم وأرواحها والتنقيب عن ملكات النفوس ومقتضياتها ولهذا كان للعلماء المحل الاول من النفوس وكان تعلم العلم هو الغاية المقصودة فى التربية وكثيراً ماتسمعهم يقولون فلان مترب اى حائز لشهادة عالية وهو خطأ فاحش فأن تعلم العلم بمجرده قليل الجدوى ، بل قد يكون لبعض الناس عونا على مايريد من الشر فهو قوة للعقل يستعين بها على مايشاء ، فأن صرفها للخير كان من أعظم الخيرين وان صرفها للشر كان من اول الشريرين والسيف يقطع فى يد اللص كما يقطع فى يد المجاهد فى سبيل الله ، وقد قال بعض الحكماء أن الناس كالنبات وأن العلم كالغيث فان أصاب حلو الثمر زاده حلاوة ، وان أصاب مر الثمر زاده مرارة

ولهذا ترى تلك التربية التي ينوهون بذكرها لم تطهر ذويها من رذائل الخصال وقبيح الفعال حتى أننا اذا لم نغتر (بتلك التربية العالية) ولم ندعهم واهواءهم بل قيدناهم فى وظائفهم الادارية أو القضائية بلوائح وقوانين ينقادون لها ويسيرون عليها تراهم يتوسعون ويتأولون كما يشتهون ، وعلى ذلك حال كثير من العلماء بالنسبة الى الشريعة الغراء وكأن استعدادهم الخبيث يحيلها الى مايوافق أهواءهم ، وليس هذا بالامر العجيب فيما تفعله الاستعدادات

وان شئت فانظر الى ما كتب على الاجرومية من صرف كل مافيها الى اصطلاحات الصوفية وآرائهم وقد قال الله تعالى (يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً) فالذى أضل به هو الذى هدى به فليس ذلك راجعاً الى تغير فى عينه أو تبدل فى وصفه ، بل الى اختلاف في استعداد الفاهمين له ، ولعلك رأيت من هذا القبيل شيئاً كثيراً ، فاذاً ليس العلم طريقا الى اكتساب الفضائل ولا دليلا على الاتصاف بالكمالات على الحقيقة ، وانما الطريق الذى يجب أن يسلكه طالب الكمال ويعتنى به المربى أتم اعتناء هو تعويد النفس الخلق الفاضل الذى يراد اكتسابه حتى يرسخ فيها رسوخ الملكات التى تتملك النفوس وتصدر عنها الافعال بلا تكلف ولا عناء والا فهو تصورات ومعلومات لاأخلاق ووجدانات ، فأن الكمال لايتم للانسان الا اذا انفعلت نفسه به وتكرر ذلك الانفعال المرة بعد المرة حتى تعتاده فلا تنفعل به وحينئذ يصير كيفا راسخا فيها فيلتحق بالغرائز الاصلية فتصدر

عنه الآثار الجيدة بغاية السهولة على نحو ما تصدر عنه الافعال الطبيعية وهذا الذى قررناه جار فى اكتساب الاخلاق الحسنة والاخلاق السيئة فاذا يلزمنا أن نسارع بالعلاج ونفزع الى الطبيب قبل أن يستحكم المرض ويعضل الداء فيعيي الاطباء فأنه اذا وصل الى درجة الرسوخ والتحق بالطبيعيات كما شرحنا فقلما ينفع علاج أو ينجع دواء

اللهم الا لأقوياء العزيمة القادرين على الضغط على نفوسهم المتعودين مخالفتها الذين لا يجبنون أمام اوامرها المؤيدين بتأييد من عنده تعالى (وقليل ماهم)

ولهذا تجد بعض من فيه شيء مما لا يليق بشرفه ومنصبه يتألم كثيرا مما هو فيه ولكن لا يستطيع ان ينزع عنه بمقتضى ذلك الرسوخ وقد قال تعالى فى حق قوم من الكفار قد تأصلت فيهم تلك الملكات الخبيثة حتى صار يتعذر قلعها من نفوسهم لامتزاجها بها (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة) فليس الختم الذى ورد به القرآن شيئا غير تملك السيئات للنفوس واحاطة الظلمات بها (بلى من كسب سيئة واحاطت به خطيئته فاولئك اصحاب النار هم فيها خالدون) فالخلاصة أن الوسيلة لاكتساب الفضائل ان تمرن نفسك عليها بالعمل المتكرر ولا تضجر مما تلاقيه من العناء والمشقة زمن التمرين وتعتبر نفسك مريضا يصبر على مرارة الدواء لما يرجوه من حلاوة الشفاء وان تأخذ نفسك باللطف والخدع فانها سريعة الانخداع لا بالعنف والشدة فانها شديدة العناد وان تلاحظها

فى مباديها ولا تستهين بها (فمعظم النار من مستصغر الشرر) وان صغار الآفات تجر الى كبارها من غير أن تحس بذلك لانك تسير فيه بمقتضى ميلك اليه سيراً طبيعياً لا سيراً فكرياً ، ولعل هذا هوالمعني بالاستدراج فى قوله تعالى (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) (٢)وأن القوانين لا تجدى شيئاً ولا تضمن عدلاً ما لم ينظر فى حال القائمين بها والمنفذين لها (٣) وأن التربية الفاضلة ليست بنيل الشهادات العليا كما يزعم أربابها فيجب أن ينظر فيها حتى تكون تربية صحيحة تأتى بالغاية المقصودة منها

وليس ذلك الا فى التربية الدينية (والنظر فى اصلاحها قبل النظر فى اصلاح القوانين) (٤) وان الاستعداد الخبيث كثيراً ما يحيل الكلام عن ظاهره حتى بقطع النظر عن الغايات كلها ، ولعل هذا من جملة ما أريد من قوله تعالى (يحرفون الكلم عن مواضعه) (٥) وأن تعلم العلوم ولو كانت دينية أو أخلاقية قلما يفيد

هذا وهنا غلطات كثيرة فيما نلقنه للمتعلمين بالمدارس والمعاهد مما لا يفيدهم كثيراً فى دينهم ودنياهم وترك ما هو مناط السعادة الصحيحة مما لا يذكرونه فيما يدرسونه من علومهم الميتة التى لا تفيض الحياة الصحيحة على الناس مما يجب أن يتسع فيه القول ، ولعلنا نتعرض لذلك بعد ان شاء الله

(كلمة بمناسبة ذكر القوانين)

اذا رأينا شخصين وقد فعلا فعلاً واحداً لا يمكننا أن نحكم عليهما حكماً واحداً بل يجوز أن يكون الفعل بالنسبة لأحدهما حسنة كبرى يستحق عليها عظيم الأجر وهو بالنسبة الى الآخر سيئة عظمى قد استوجب بها عظيم الوزر لاختلافهما فى النيات والبواعث والغايات وان كانت صورة الفعل الصادر منهما واحدة ، بل اذا قصدا بما فعلاه شراً لا خيراً لم يمكنا أن نحكم عليهما حكماً واحداً أيضاً بل يجب لتحقيق العدل التام أن يراعى حال كل منهما فى الشر الذى صدر عنهما فانه بعد اتفاقهما فيه يجوز أن لا يكون على قصد واحد من كل وجه وعلى رتبة واحدة فيما كان يحيط بهما وقت صدور الفعل عنهما ، فاذا يجب فى العدالة أن يختلف جزاء هذين الشريرين أيضاً ومن جهة أخرى يجوز أن يكون لأحدهما من الصفات والحسنات ما تنغمر فيه تلك السيئة وأن يحدث له بعد الفعل من التوبة الصادقة والندم الشديد ما يطهر قلبه من أدناس تلك الفعلة التى فعلها ، ويحتم عليه أن يعقد على نفسه عقداً لا يحله ما عاش الا يقارف معصية ولا يأتى جريمة ، وكان يجب أن يراعى كل ذلك فى مجازاته توفية لحق العدل التام وتحقيقاً للفرق بينه وبين من ليس كذلك

ولكن عرفنا من ضعف البشر أن ذلك ليس فى طاقته وأنه فوق درجته ، ولا يقدر على العدل التام الا من علم كنه الأشياء

على ما هى عليـه ، وليس الا الله تعالى فـلا يضيع لديه مثقال ذرة من خـير أو شر ، ولا يزيد جزاؤه للعباد على ما عملوه على اختلاف درجاتهم فى مقاصدهم وكل ما اكتنف بهم مثقال حبة من خردل كما قال (وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) وقال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وقد علمت أن الشر قد يكون فيه ذرة أو ذرات من الخـير وأن الخير قد يكون فيه ذرة أو ذرات من الشر ، ولعلك تفهم من هـذا المقام استحقاق بعض المذنبين للعفو الالهى وعدم منافاة ذلك للعدل التام والحـكمة البالغة

والآن نريد أن نبحث عما هو الاقرب الى العدل التام أهو ترك القضاة على الحرية والاطلاق يحكمون بما يرون وينفذون ما يعلمون ، وينظرون فى تلك الاحوال كلها على قدر ما يستطيعون ، أم هو تقييـدهم بقانون يحصرهم فى دائرة ضيقة ويلزمهم باجراءات كثيرة طالما أضرت بالمتقاضين ، وكان القاضى فى غنى عنها لو رجع الى وجدانه الداخلى وعلمه الخارجى ، بل طالما حكمت القوانين بمـا يتألمون منه ولا يرتاحون اليه فى بعض ما يكون أمامهم من الحوادث واذاً يكون التقاضى أمام القضاء أضمن للنتيجة وأقرب للعدالة ، وكان اذ ذاك ينتهى بغاية السرعة ، فلو وثقنا بتربية فاضلة تهذب النفوس وتطهر القلوب لوجب أن نلقى الى ذويها بمقاليد الامور يتصرفون فيها على ما تقتضيـه طهارة نفوسهم وسعة نظرهم ولا نقيـدهم بتلك

القوانين وان أعطتهم بعض الحرية فى بعض المواضع ولكنها محدودة على كل حال ، والقاضى يجب أن لا يكون تحت التحديد والتقييد ولكننا وجدنا المهذبين الكاملين المأمونين على مصالح العباد قليلين بل لا يكادون يوجدون فارتكبنا أخف الضررين واخترنا أهون الويلين وقيدناهم ولم نطلقهم وكنا نود لو بالغنا فى التقييد وضاعفنا من التشديد فقد لعبت بهم أهواؤهم وكادت تقضى علينا شهواتهم

(توجيه نظر الى أمر يفيدك)

بينا لك فيما سبق من القول أن الانسان قابل لكل أخلاق الحيوان أو تقول أنه يشبه كل أنواع النبات فمنه التفاح ومنه الحنظل ومنه الورد ومنه الشوك الى غير ذلك مما تجده فى أفراد الناس فيحسن بنا هاهنا أن ننبهك ألا تعامل الناس بمقتضى استعدادك الذى تم لك وان كنت لا تحس بغيره ولا تعرف سواه فلا تكلف غيرك به فانه لا يطيقه ، فاعرف المراتب واعطها حقها وانظر فيمن تصاحب أو تعامل أى شئ هو من تلك الاشياء وعامله بما تعامل به صاحب هذا الخلق من الحيوانات كالعقرب والثعلب وغيرهما واياك أن تغتر بصورته الظاهرية فتبلك أو تندم وان كان جامعاً لكل خبث حاوياً لكل شر فلا تقربه بوجه من الوجوه فانه لا دواء له ولا يمكن اصلاحه ولا ارضاؤه ، ومن الناس من اذا بالغت فى الاحسان اليه بالغ فى الاساءة اليك ، واذا تواضعت له تكبر عليك لمزيد لؤمه أو شدة حسده ، فاياك والتنزل لغير من

شرفت نفسه وكرم طبعه ورق احساسه وصفا ذوقه فلا دواء لمثل هذا الشرير الا البعد عنه وعدم القرب منه

وقد عرفنا ذلك بالتجربة وكنا لا نصدق به ، ومنهم المطبوع على الكذب الذى يجد لذته فيه وتأبى غريزته الصدق . والانسان لا يعرف أو لا يستطيع غير مقتضى طبعه ، والحنظل لا يكون تفاحا أبداً (وتأبى الطباع على الناقل) فهو يفعل ما يفعل بمقتضى هيجان الوصف الطالب لظهور الشر فيه وان لم يكن بينك وبينه ما يوجب ذلك

لدغ العقارب لم يكن لعداوة   لكن لخبث تقضيه طباعها

وكثيراً ما توجد هذه الاخلاق فى أفقر فقير وأحقر حقير فان أردت أن تنفعه بشئ نظراً الى كونه مخلوقاً من مخلوقات الله تعالى وفى كل مخلوق صدقة فافعل معه ما شئت من الخير ولا تخالطه وفر منه فرارك من الاسد

وقد قسم الحكماء الناس ثلاثة أقسام، فقسم كالغذاء لا يستغنى عنه بوجه ، وقسم كالدواء يحتاج اليه فى بعض الاوقات ولا يلجأ اليه الا عند الضرورات، وقسم كالداء لا يحتاج اليه بوجه من الوجوه ولا يطلب بحال من الاحوال

وان رأيت ما يعجبك من شخص فابحث عنه أصادر هو عن غريزة خير ومحبة للفضيلة أم عن غرض تريده النفس وتسعى اليه الجوارح ، فان لم يكن من ذوى الخير الغريزى ومحبة الفضائل لذاتها

فاياك والاغترار به ، فان عمل الخير للاغراض تربية لملكة الشر فى النفس وتقوية لغريزة الخبث فيها

وقد ترى من الناس من يكون انساناً فى بعض الاشياء وهو حيوان ضار فى بعض آخر لنقص فى تركيبه أوجهل فى نفسه فاياك أن تغتر بما تراه من الخير الذي يصدر عنه فانه ربما ختلك من الشر الذى تراد منه مالاتنفعك فيه وسيلة ولاتغنى عنك فيه حيلة

(بيان ان سعادة الانسان وشرفه ليسا بكثرة المال)

قد عرفت أن التوسع فى طلب المال ضرره أقرب من نفعه ، وانه مدعاة للشر أكثر منه مجلبة للخير ، ثم انك قد عرفت ان هذه اللذات الجثمانية التى نريد ان نتوصل اليها بالاموال ليست من الانسانية فى شيء ، وقد تكلمنا على تحقيق مافيها من اللذة والألم فيما سبق ، بل يشاركك فيها أفراد الحيوان ، فانها تأكل كما تأكل وتشرب كما تشرب ، بل اذا نظرت الى الثور مثلاوجدته أكثرمنك أكلاً الخ ، ولاقيمة لما تشاركك فيه أفراد الحيوان ، فان الصفات المشتركة لاتقضى مزية ولاتوجب فخراً ، وعلى قدر مافيها من الاشتراك يكون سقوط قيمتها ، كما انك على قدر انفرادك بصفات لا اشتراك فيها يكون علو شأنك ، ورفعة ذكرك ، وانظر الى الفرس مثلاً كيف استحق التفضيل على الحمار بمزيته التى لاتوجد الافيه ، فاذا ضاعت منه نزل عن درجة الفرسية الى درجة الحمارية ، لانه لم

يكن فرساً فى الحقيقة لصورته التى هو عليها . بل لمزيته التى انفرد بها

فاذاً شرف كل شئ بل تحقيق نوعيته انما يكون بوجود خاصته التى تراد منه ، كاكتساب العلوم والمعارف ، والاتصاف بالكمالات بالنسبة الى الانسان ، فانه لم يكن انساناً لصورته التخطيطية وشكله الظاهرى ، وانما كان انساناً واستحق الرفعة على جميع أنواع الحيوان لكونه يمكنه أن يدرك ما لا تدركه من الخيرات والفضائل ، فعلى قدر ذلك تكون انسانيته لا على قدر ما يتوسع فى المآكل والمشارب وغيرها ، فان الحيوان أقوى منه فيها ، فاذا تجرد عن تلك المزية وانسلخ عن تلك الخاصة نزل عن رتبة الانسانية الى رتبة الفرس أو الحمار أو غير ذلك من الحيونات ، ولو تفنن ما شاء أن يتفنن فى الملاذ الحسية ووسائلها ، فغاية أمره فى ذلك ان يكون حيواناً قوياً لا انساناً على الحقيقة لفقد خاصة الانسان منه ، أو تقول ايفاء لحقه أنه سيد أفراد الحيوان فى هذا العالم ، حيث أمكنه من اعداد الوسائل التى تلزم للحيوانيــة ما لم يمكنها ، واذا صح ان نسوى بين الكمالات الحسية الحيوانية والكمالات المعنوية الانسانية ، والسعادة الفانية الجثمانية ، والسعادة الباقية الروحانية ، صح ان نقول انه نصف انسان لا انسان ، وليسكن جأشك ، وليهدأ روعك ، وارجع الى عقلك وانصافك ، حتى تنصفنى ، فانى داخل معك على شرط التخلى عن التعصب وعن كل ما علق بالاذهان ، وان مضت عليه الدهور المتطاولة ، حتى يمكننا ان نعرف الحق ونرجع الى الانصاف

(بيان ان طالب الدنيا محال عليه ان يستريح)

لكل انسان مطلب يرجوه ، وأمنية يبتغيها ، ويظن ان سعادته في الوصول اليها ، ويحسب انه عند ذلك يكمل هناؤه ، ويتم صفاؤه

وبودى أن يعرف ان النفس الانسانية لاتزال متحركة لما فيها من قبول الفيض الدائم ، وانها لو سكنت لكانت نفس حيوان لا انسان فطر على ألا يقف ولا ينتهى

بودى أن يتحقق ذلك ويتحقق معه ان نفسه لم تقتصر على ما طلبته منه الآن الا لكونه منتهى ما تبصره من طريق الاطماع ، ولا تبصر ما وراءه لعدم الطماعية فيه ، حتى اذا وصلت اليه أمكنها ان تبصر مسافة أخرى ، وتطمع في الوصول الى غايتها ، ولا تزال هكذا الى غير النهاية فلا يمنعها عن الطلب الا عدم الاستعداد له ، فاذا يرقت الى درجة من الدرجات تجدد لها استعداد لنيل الدرجة التى تليها ، فيتجدد لها شوق اليها ، فاذا نالتها تجدد لها استعداد آخر الى درجة أخرى ، فلا تهدأ أصلاً ولا تسكن أبداً ، ولا تنتهى مطالبها ، ولا تفرغ حاجاتها ، بمقتضى استعدادها

تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقي

وان كان ذلك لا يقع فى علمك الا شيئاً فشيئاً على نحو ما ذكرنا ، ولهذا قال بعض فلاسفة أوربا لا نتيجة لكثرة البحث عن السعادة الا توسيع دائرة الالم

فليس الطريق اذاً الى الراحة أن تصدق ماتخدعك به نفسك ، وتسعى فى تحصيل مايشبعها ، اغترارا بما تعدك به ، فانها لاتشبع ، وان ذلك من قلب الحقائق ، فان أبيت الا ان تطلب الراحة بتحصيل كل ماتريده منك فاعلم انك قد أضعت الراحة فى سبيل طلب الراحة ، كما هو شأن اكثر الخلق ، بل الطريق أن ترجع اليها فتفهمها أن السعادة انما هى فى راحة القلب ، وصفاء العيش ، لا فيما تظنه من كثرة الاموال ، وسعة الآمال ، فان ذلك يوجب كثرة الطلب ، وكثرة الطلب توجب كثرة الالم ، حتى تصل الى مطلوبها (ولن تصل اليه) فهى كالطفل الذى ينبغى أن نريحه ونحافظ عليه ، بما نحدد له من الحدود حتى تسكن نفسه فيستريح ،

فان سارعت الى كل مايطلبه منك ، رجاء راحته فلايزال يبكى ، وتملى عليه نفسه ماشاء لها تفننها وشرهها ، فلا تستريح انت ، ولا هو فتكون قد أسأت اليه والى نفسك ، وانت تظن أنك من المحسنين ، ولا اراك مبعداً اذا قلت أن الغاية اسم بلا مسمى ، فان الامور لاتقف عند غاية ابدا ، ولكن الذى وقف انما هو استعدادك لاهى ،

هذا ولست اريد منك أن لا تكون عاملا نشيطاً قائماً بما تحدده لك الشريعة ، وتقتضيه الحكمة ، ولكن أريد الذى تعرفه من نفسك اذا رجعت الى وجدانك وانصافك ، وتجردت عن أهوائك وشهواتك ، فتطلب المال رشيداً حكيماً ، عارفاً انه وسيلة الى غيره لامقصود لذاته ، كى تكون فى عيشة راضية ، وحالة سامية ، وكى لا يضيع منك المقصود

فى سبيل طلب الوسيلة ، فلا تكن ممن يحرفون الكلم عن مواضعه ، أيدك الله

(بيان أن الناس متساوون فى السعادة والراحة لولا توهم باطل)

يظن كثير من الناس اذا رأى من هو أعلى منه منصباً ، وأكثر خدماً وحشماً ، وأوسع داراً ، وأوفر رياشاً وأثاثاً ، انه فى غاية الهناء ، ونهاية الصفاء ، ويتخيل له لذة فيها وابتهاجاً بها ، على نحو مايقدره فى نفسه وخياله لو وصل اليها ،

وانى أقول لك أنه معذور فى هذا الظن ، لان نفسه الآن لاتطلب أكثر من هذا ، فاذا أدركته كان ذلك غاية سرورها ومنتهى نعيمها ، وقد غاب عن ذلك الناظر المتلهف أن هذا المنعم فى نظره لايزيد نعيمه عن نعيمه ، فان الذى يراه من تلك النعم الكثيرة لاتنفعل بها نفس ذلك الامير أو الوزير انفعال سرور وابتهاج كما تظن فانها بكثرة تكررها عليه صارت معتادة لاتلتفت اليها نفسه ، ولا ينشرح بها صدره ، فلافرق بين حاله وهو فى عربته ، وبين حالك وأنت ماش على رجليك ، ولا بين مايدور بنفسه وهو فى قصره المشيد ، وبين مايدور بنفسك وأنت فى بيتك الذى ورثته عن أبيك ، فان النفس انما تنفعل بالشىء مرة أومرتين ثم لاتحس به

ثم لدى هؤلاء الذين يعجبك حالهم وان يقولوا تسمع لقولهم من التعب الشديد والألم الزائد مالايحس به غيرهم ، فان لهم من الضرورات

ماليس لك، وعليهم من الواجبات ماليس عليك ، وما كان ضرورياً في حقهم كان كماليا في حقك ، ثم يهمهم بعد ذلك أن يحافظوا على جاههم ومراكزهم كما يهم أصحاب الأموال أن يحافظوا على أموالهم ، وأن ينموا ثروتهم ، فهم معرضون لما لا يطرأ عليك من الطوارىء الكثيرة في جاههم وأموالهم وجميع أحوالهم ، مما يتكدر له عيشهم ، ويتألم به احساسهم ،

وكثرة المصائب على قدر كثرة الاشياء المحبوبة ، فانك تتألم بما يصيب كل شيء من هذه المحبوبات الكثيرة ، (فان شئت أن تقل مصائبك فقلل محبوباتك) ولذلك قال القائل بالنسبة الى بعض المحبوبات وهو بان يسمى حكيماً أولى من أن يسمى شاعراً

يقولون مالك لاتقتني   من المال ذخراً يفيد الغنى
فقلت وأفحمتهم في الجواب   لئلا أخاف ولا أحزنا

ويقول غيره

ولربما يلقى الغنى بماله   أضعاف ما يلقى الفقير بفقره

فان شئت أن تغبط أحداً على ما نال من السعادة (ولا سعادة الا في النفوس) فاغبط ذلك الفقير الذي عرف مورد رزقه فرضي به واطمأن اليه ، فسكنت نفسه ، واستراح قلبه ، فهو يبيت كل ليلة على فرح كامل ، وسرور شامل ، ليس عنده من التجارات مايحتاج الى تدبير ، ولا من الوظائف مايدعو الى تفكير ، ولا من الجاه مايحمله

ثقيل الأعباء ، ولا من العظمة والأبهة مايخاف عليه من هبوب الهواء ،

وانى وحقك كثيراً ماوجدت الخادم أنعم بالا من المخدوم ، وله من التمتع بقصره وبستانه ولطف هوائه وبهجةمائهوتغريدأطيارهوحسن منظرأشجاره ماليس للسيدالذى لايرى ذلك الافى قليل من أوقاته ، وان رآه كان مشغولا عنه لامتلذذاً به ،

ومن اللطف الالهى وان شئت فقل القهر الربانى أن الأنسان يبدوا ماعليه من النعم ، ويخفى مالديه من النقم ، فيرى الرائى حسن حاله ، ولا يعرف دخيلة أمره ، فيظن أنه فى نعيم ، وهو فى عذاب أليم ، فيتنغص عليهعيشه ، ويتكدرصفوه ، ولعلهذا المتلهف الآسف محسود من غيره أيضاً ،

وما ذلك كله الا لمزيد الجهل ، وغلبة الوهم على العقل ، ومما ينبغى أن تلتفت اليه كل الالتفات أن الضرورى للانسان قليل جداً وان أقل شىء يكفيه ،

نصف رغيف مشبع لمن أكل فالذل ياهذا لماذا يحتمل

ومن الغلط الذى أوجب العناء وأضاع الهناء مايقع فى الوهم من أن كثيراً من الاشياء ضرورى وربما كان من الحاجيات أو الكماليات لامن الضروريات كما تتوهم أرشدك الله ، ومما استولى على النفوس وكان أس الشقاء فى فريق كبير من المسلمين أن مراعاة الناس عندهم على مايقتضيه الجهل والترفع الكاذب ، من أوجب

الواجبات وأول الضروريات ، فاذا صدر من أحدهم مالايناسب علو مركزه الذى بناه له الوهم وشيده له الخيال ، سقط فى يده وكاد يموت من الأسف (وكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أوتهوى به الريح فى مكان سحيق) ولو عقل لعرف أن الناس لاينفعونه بشىء الا اذا توهموا منه المنفعة ، وقتاما فاذا رأوه قد سقط راغوا منه روغان الثعلب وطاروا عنه طيران الذباب ،

(الكافر يطلب الدنيا والمؤمن يطلب الدنيا والآخرة)

لعلك فهمت من كلامنا فى كثير من المواضع أن الانسان لا ينبغى له أن يطلب الدنيا بوجه من الوجوه لما سبق لك من كثرة ما اشتملت عليه من آلام وأكدار ولكن اذا عرفت أن الانسان لا بد له من مأكل ومشرب وملبس ومسكن حتى يدفع عن نفسه ضرر الجوع والعطش والحر والبرد ، عرفت أنه لا بد له من مال يصل به الى تلك المطالب الضرورية والا ذهبت حياته وضاعت سعادته وما لم يكن عندك ما تسكن اليه نفسك تكدر عليك عيشك وتشوش عليك أمرك حتى فى صلاتك ومناجاتك بمقتضى حكم الطبيعة البشرية .

والمؤمن من أرفع الناس همة وعلى قدر همة الرجل تكثر واجباته وتكبر مروءته فتعظم أثقاله وهو الذى لا يزال لسان حاله يقول :

أريد بسطة كف أستعين بها   على قضاء حقوق للعلا قبلى

فاذاً الدنيا وسيلة الى دوام الحياة وفعل الخيرات وصفاء العبادة وتمام السعادة، فالروح لا بد لها من بدن، والبدن لا بد له من دنيا ولكن هناك فرق كبير بين المؤمن والكافر فى طلبها وسنشرحه لك أتم شرح فكن معى بالانصاف كما كنت معك بالانصاف

المؤمن يطلب الدنيا ليتوصل بها الى سعادته الباقية وليسير على راحلتها الى محل قراره فهي فى نظره لا تتجاوز رتبة الوسائل التى تراد لغيرها ولا ترتفع الى درجة المقاصد لذاتها وان كان لا بد منها وقد أثمر هذا النظر للمؤمنين أن يتمتعوا بقلوبهم وتمام حريتهم اذ لم تستعبدهم الدنيا بمحبتها كما استعبدت أبناءها المتعشقين لها المتهالكين عليها ولم تأخذ من قلوبهم الا كما تأخذ الوسيلة من قلوب ذوى العقول السليمة ، ومن أجل ذلك قل منهم الخصام وتم بينهم الوئام ولا تظن أيدك الله انا نرى أن المؤمن لا يتوسع فى الدنيا ولا يكون بعيد النظر فيها فانه هو العاقل الحكيم بحكمة دينه وتعليم سيده ، ولكنه يعمل كل ما يعمله فيها لله غير غافل عن مقصده الذى يريده فيتوسل بكل شئ منها الى فعل الخير واكتساب الاجر

المؤمن يتعاطى الاسباب المشروعة ولكن لا يذل لها ذل العاشق لمعشوقه ولا يخضع لها خضوع العابد لمعبوده لان قلبه مع مسبب الاسباب لا مع الاسباب فهو دائماً يستمد منه الرشد والمعونة فيما يريده علما منه أن بيده مقاليد الامور فان شاء أضله فى السير وأوجد له من العقبات مايحول بينه وبين مطلوبه وان شاء هداه السبيل

ويسر له من الاسباب ما يعلم ومالا يعلم ، ولديه تعالى من الاسباب الخفية مالا يصل اليه علمك وتدبيرك ، ولئن علمته فلن تصل اليه قدرتك ، وليس لتصريفه تعالى حد يقف عنده أوقانون لايخرج عنه بل مالاتعلمه من الأسباب الخفية أكثر مما تعلمه ، ولست تدبر الا على حسب علمك وقد ينقلب مادبرت ولايكون ماقدرت ، وكثيراً ما كانت المقتضيات موانع والمضار منافع ، واذا لم تكن قد اهتديت الى ذلك بما وصلت اليه من العلم فلعلك اهتديت له بما حصل لك من الحوادث

المؤمن لايموت أسفاً ولاينتحر غيظاً اذا فاته شيء من الدنيامهما كان لأنها ليست كل المقصود عنده ولاتمام السعادة فى نظره ولأنه يعلم أن الله على كل شيء قدير ، فان شاء أعطاه اضعاف ماضاع منه وأن لم يعلم له سبباً ولم يعرف اليه طريقاً ، فليست الأسباب منحصرة فيما علم ولا الطرق مقصورة على ماعرف ولأنه كثيراً ماوجد الخير فيما كان يظنه شراً وكثيراً ماوجد الشر فيما كان يظنه خيراً ، وطالما استتبعت الأفراح الاتراح والشرور السرور ، فغلب عليه الركون لله عزوجل والثقة به والتوكل عليه وتقليد كتابه العزيز فيما قال (وعسى أن تكرهوا شيئاًوهوخيرلكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرلكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون) فعزاه هذا الخطاب فهان عليه المصاب فثلج منه الصدر وخف عليه الامر

هذا وهناك فروق كثيرة أعرضنا عن ذكرها اكتفاء بما لعله يكفيك

(القول الفصل فيما جاءت به الشريعة)

« من اللذائذ البدنية والمطالب الدنيوية »

قد علمت أن الانسان مركب من جزء علوى سماوى وجزء مادى أرضى وأنه لابد له بمقتضى هذا الجزء المادى أن يتغلغل فى المحسوسات ويوغل فى وادى اللذائذ الجثمانيات ولاشىء عليه فى هذا بل بذلك تحصل سعادته وتتم راحته ، وقد اعتنت الشريعة بذلك أتم اعتناء فرسمت له قواعد وحددت له حدوداً وقالت (ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه وانما خيركم من عمل لدنياه وآخرته) وقالت (لارهبانية فى الاسلام) (أن لبدنك عليك حقاً وأن لزوجك عليك حقاً) الى آخر مابينت من الحث على العمل الذى تصلح به دنياك ، وماشرعت لذلك من مسائل النكاح والطلاق والبيع والشراء والمضاربات والشركات وحدود التعديات والجنيات محافظة على تلك الحقوق الجثمانية التى أقامت لها وزنا كبيراً وشأنا خطيراً وأن من أول ماتقصده من غرس خلق الشجاعة فيك أن تدفع بها غائلة من يتعدى عليك فى حق من حقوقك المشروعة وما بالغت الشريعة فى شأن الامام العادل حتى كان يوم واحد من أيامه بعبادة ستين سنة وحتى كان من الذين يظلهم الله فى ظل العرش الامن أجل اقامة العدل بين الناس فى تلك

الحقوق ، ولا وردت لعنة الظالمين فى الآيات العديدة الا من أجل ذلك ، ولا استعاذ صلى الله عليه وسلم من العجز والكسل الا وقد لاحظ ما يترتب عليهما من مضار الدنيا والآخرة الا أنك اذا لم تتفان فى طلب تلك اللذائذ ولم تتهالك عليها وراعيت حدود الله فيها سعدت سعادة كبرى وصفا عيشك صفاءً يطلبه قلبك وان ضللت عنه فى سيرك

وأما اذا كنت ممن يعدو وراء الاوهام وينخدع بأضغاث الاحلام ويغره لمعان السراب فيحسبه من لذيذ الشراب شقيت شقاء لا سعادة فيه وكددت كداً لا راحة معه وطلبت أن تستأثر بكل شئ فوثبت وثب الوحوش على اخوانك وبنى نوعك تفترسهم افتراس الذئب الضارى نائية الغنم وتستلب منهم ما استطعت اليه سبيلاً حتى يكون لك من رفعة الجاه ووفرة المال وضروب اللذات ما ليس لاحد سواك في بلدك أو جهتك أو قطرك أو الدنيا كلها على حسب ماتسمح به درجتك وتوصلك اليه قدرتك

وهذا الذى فى نفسك من التكالب الحيوانى على جمع المال والحرص على قتل غيرك لتنفرد بالحياة كلها وما ركب فيك من ذلك الشره الذى لا يتناهى حتى لا يساويك أحد ولا يدانيك انسان فتكون وحيد دهرك وفريد عصرك على ما يزعمه شيطانك (ولو أنصفت لعرفت انك وحش اخوانك ومفترس أقرانك)

كل ذلك الذى يدور بنفسك وتطلبه على موجب شرهك

وجهالك هو بعينه فى نفس كل واحد من بنى نوعك ، فلا تلبث أن يقوم فى وجهك قومة الاسد فى وجه من يريد أشباله ، فلا يزال يساورك حتى يصرعك أو تصرعه وبين هذا وذاك يضيع منكما الصفاء ويقضى على ما كان لكما من الهناء بفضل غلبة الاهواء وعدم معرفة حقيقة السعادة والشقاء

واذاً تنحل الروابط الانسانيــة بل علاقات القرابة الابوية كما شاهـدنا ونشاهد فتتفكك أجزاء الامة ويكاد ينهار بناء المجتمع الانسانى لولا لطف الله تعالى ووجود الـكاملين فيه

ولذا كان غرس مكارم الاخلاق التي توقف النفوس عندحدها وترسم لها طريق السعادة الحقيقية وتنفخ فيها روح الانسانية وتعـلو بها عن الصفات البهيمية من أول الضروريات التى يتوقف عليهـا صلاح الـكون وبقاء النوع الانسانى حتى لا يذهب فريسـة الشره وضحية الاطماع

لافرق بين الافراد وبين الأمم فى ذلك ، وكثيراً ما يحسون بما شرحنا وأن مآل ذلك الى التلاشي والدمار ويشعرون بأن غريزة الشره التي فيهم لا يكاد يقنعها مطلب من المطالب أو تشبعها غايةمن الغايات

وعند ما يتحرك فيهم ذلك الاحساس الحق يطالبون عقدموتمر للسلام العام حتى يوقف النفوس ايقافاً قهرياً عند ما حد لها

فالخلاصة ان المطالب الجثمانية واللذائذ الحسية هى أس السعادة

ومناط الراحه اذا عرفت المقصود منها ووقفت بها عند حدها المشروع والا كانت سبب التحاقد والتحاسد ومبعث التنافر والتدابر ومثار التكالب والتغالب ومذهبة السرور ومجلبة الشرور ومجمع البلاء وأس الشقاء

ولذلك احتجنا الى الشرائع التى تمحو من نفوسنا رذائل تلك الغرائز وتنقش فيها فضائل الاخلاق حتى نحيا حياة طيبة ونأمن من انحلال نظام مجتمعنا الانسانى وانهدام بناء وجودنا البشرى

ويحسن بنا هاهنا أن ننبهك الى أمرين عظيمين :

الاول أن مكارم الاخلاق التى تجب فيما بين الناس ويتوقف عليها معاملتهم وصلاح حالهم لا تتم على ما ينبغى الا ممن أخذ الدين بمجامع قلبه فامتلأ خوفاً من الله ورجاء فى الله فوقف عند ما حد له من حدوده وشرع له من رسوم قائلاً لنفسه وبنى نوعه (تلك حدود الله فلا تعتدوها) فكانت معاملته للناس فرع ذلك الاصل الثابت فى أعماق قلبه ومشيدة على ذلك البناء الذى أسس على التقوى ، وأما من لم تكن معاملته فرعاً عن معاملة الله تعالى ولا مسببة عنها بل لما يقصد من أمر يعود عليه ونفع يرجع اليه فليس له من مكارم الاخلاق الا صورها وأشباحها لا حقائقها وأرواحها ، بل تستطيع أن تقول أنه ليس من مكارم الاخلاق الحقيقية فى شئ لانه انما يعمل لأغراضه ويسعى لغاياته فهو معها لا مع الكمال ، فلا يلبث أن يتلون بالالوان المختلفة على حسب ما تقتضيه الظروف وتشير اليه الغايات

وكذلك من أخل بواجبات المعاملات فيما بينه وبين الناس فقد أخل بمعاملته مع الله ، لان له تعالى فى كل شأن من شؤون الخلق حقاً أوجبه عليك وحدا أمرك بالتزامه . ولا يتصور أن ينفرد حق الناس عن حق الله تعالى كما بين ذلك عند ذكر مراتب الذنوب وما فيها من الحقوق المتعلقة بالخلق والخالق معاً أو بالخالق فقط ولا ثالث لهما، فهما مرتبطان ارتباط الأس بالبناء وممتزجان امتزاج الأرواح بالأجساد فاعرف ذلك واحرص عليه

والامر الثانى أنه قد ورد عن على كرم الله وجهه أوعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (اعمل لدنياك كانك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) وهو مما يناسب موضوعنا الذى نحن فيه بل هو من أول الشواهد عليه ، ولسنا نحمله على الحث على الاجمال فى طلب الدنيا كما يقول بعضهم فان من عرف أنه يعيش أبداً عرف أن ما لم يحصله اليوم حصله غداً ، فاجمل فى الطلب ولم يكثر من التعب ، ولكنا نقول هذه الرتبة التى اشار اليها الحديث لا يستطيعها الأكابر الرجال الذين لم تأخذ الدنيا من قلوبهم مأخذها من قلوبنا اليوم فهم يعملون فيها بأمر الله لا يبالون لمن تكون ثمرة أعمالهم موقنين بأن الملك لله وأن الخلق عيال الله فهم يتقنون ما يعملون مراعاة لما أوجبه تعالى عليهم فيما اقامهم فيه ، قائمين فى ذلك بمراده لا بمرادهم متوجهين اليه تعالى بأرواحهم وحقائق ذواتهم ، وان كنت تراهم منهمكين فيها بظواهرهم وأبدانهم فكانت دنياهم على أحسن ما يكون وآخرتهم

على اتم ما يتصور . فدنياهم لآخرتهم وآخرتهم لربهم (وانما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى)

هذا وأظنك قد رأيت من يستدل بهذا الاثر على الاجتهاد فى طلب الدنيا التى أصبح من أسرائها وأول عبيدها ، معتذراً عن نفسه مبرراً قبيح خطئه وسيئ عمله فرحا بصدر الحديث غافلاً عن عجزه

على أن القلب ليس له الا وجهة واحدة متى توجه اليها بالمحبة لم يمكنه أن يتوجه الي غيرها (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) فاذا طلبتها محباً لها شغوفاً بها معطياً اياها رتبة المقاصد التى تراد لذاتها أخذت بكل قلبك بمقتضى تلك المحبة شئت أم أبيت (شأن المحبوب مع المحب)

ولا يتأتى لك أن تجمع فى القصد الذاتى والحب القلبي بين الفانى والباقى كما لا يتأتى لك أن تجمع بين الحركة الى السفل والحركة الى العلو ولا بين المشرق والمغرب فهما ككفتى الميزان متى رجحت احداهما خفت الاخرى وكالأناء الممتلئ ماء لا يدخله هواء الا على قدر ما يصب من الماء .

فاذا كنت مع الدنيا على تلك المحبة القلبية وذهبت تطلب الآخرة ذهبت اليها بلا قلب لا محالة (ولكن بلا قلب الى أين تذهب)

اذا علمت ذلك علمت انه لا يمكنك الجمع بينهما والعمل الصحيح لهما الا على ما شرحنا ، فاحذر من الجهلاء وكثير من العلماء

الذين أصبحوا من أكبر عشاقها وأول دعاتها فكانوا ضرراً على الدين وفتنة للمسلمين

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها فكيف اذا الرعاة غدوا ذئابا

(منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة)وقد قالوا أن فساد الرعية بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء فامعن النظر أيدك الله فى هذا الموضوع والذى قبله وزن محبة الدنيا ومحبة الآخرة فى قلبك ، واعرف الحق بوجدانك وانصافك فيما بينك وبين نفسك ، وليس يهمنا أن تعترف لنا بعد بما وصلت اليه ، ووقفت عليه ولكن يهمنا ألا يخدعك الوهم أو يضل بك الفهم

(تتمة للموضوع بذكر سانحة فيه)

سرماوردمن احاديث الزهد فى الدنيا هو أن الانسان يحبها بطبعه حباً شديداًفيغلب عليه الهوى والشهوةفيكاثر ويفاخر ويحاسد ويحاقد ويكون جرثومة الشرور كلها اذا ترك وأمياله الفطرية

فاقتضت الحكمة أن يزهد فيها حتى ترتاض نفسهوتنكسرسورة هواه حتي اذا تكمل بالاخلاق المحمودة وتطهر من الاوصاف الطبيعية السيئة وانقاد لحكم الدين والعقل وصار مهبطاً للنور والحكمة أباح له الشرع أن يمسك الدنيا ويتوسع فيها ما شاء لأنه حينئذ خير لا شر فيه ، ولست أنكران على الامراء والكبراء الذين بيدهم

زمام الامور ان ينظروا فى مصالح الدنيا بأوسع نظر ويطلبوها أكبر طلب لما فى ذلك من النفع العميم والفضل العظيم

وبعبارة أخرى نقول ليس يخفى أن الانسان مجبول على محبة الدنيا والافراط فيها كما قال تعالى (بل تحبون المال حباجما) وقال (بل تحبون العاجلة) وهذه المحبة غير المعتدلة ينشأ عنها التحاقد فالتحاسد فالتنازع فالتقاتل (نتائج طبيعية يستلزم بعضها) بعضاً فرأت الشريعة ان تزهد الناس في الدنيا تقليلاً لتلك المفاسد وتفريغاً للقلوب حتي تستعد لمحبة الله تعالى مكان محبة الدنيا فاذا تطهرت النفس بفيض الانوار ومعين مياه الاسرار وذاقت من اللذة المعنوية واستجلاء جمال الحقائق الربانية ما صغر لديها تلك اللذائذ الحسية وكشف فى عينها تلك المطالب الجسمانية اباحت له الشريعة أو طلبت منه بعد ذلك الكمال ان يرجع الى الدنيا ثانية بذلك العقل النورانى والقلب الرحمانى حتى يفيض خيره ويظهر بره فانه لا يعرف اذ ذاك المصالح الشخصية ولا المطالب النفسانية وليس يعنيه الا المصالح العامة واقامة ميزان العدل كيفما كان، واحقاق الحق حيثما وجد، تابعاً فى ذلك الحكمة، غير مجاف للرحمة لا فرق عنده بين قريب وبعيد، ولا صغير وكبير، واصلاً الى درجة من يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ناظراً فى الاشياء كلها بنظر الله عز وجل، لابساً بمقتضى ذلك الاستعداد الرفيع تاج الخلافة عنه تعالى، آمناً من ان تغشاه الظلمات أو تفترسه الشهوات فهو فى حالتيه هاتين فى نظر الشريعة بمنزلة الطفل أو السفيه الذى اذا لم

تحجر عليه كان الى الشر أقرب منه الى الخير حتى اذا تم رشده واستقام أمره أبحنا له ان يتصرف كما يشاء لمكانه من العقل والحكمة فلا نخاف من ذلك ضررا عليه ولا على الناس فهذا هو شأن الشريعة مع بنيها تأمرهم بالرياضة والزهادة على سبيل الاستحباب حتى اذا طهرتهم من أدناس الجبلات ونقتهم من أرجاس الطبائع وأمنت عليهم وعلى الناس منهم قالت لهم لا تثريب عليكم اليوم فافعلوا ما شئتم فأنتم الحكماء الذين يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم والعلماء الذين أصبحوا درياقاً للامم ودواء الشعوب

(الشرعيات)

« الشريعة منبع السعادة »

سر معي على ما أحب عسى أن تجد ما تحب وإياك والرعونة فطالما حرمت أهلها من خيرات وحجبت عقولهم عن حقائق فحرك معي الفكر أيدك الله وتجرد عن كل ما تملك نفسك وانطبع فى مرآة قلبك عن تقليد واستحسان لا عن دليل وبرهان

اذا غلب عليك الأنصاف وصادفك الرشد وفعلت مااتفقنا عليه وجدت الشريعة قد جاءت بسعادة الروح والبدن جميعا والانسان كما علمت بالبرهان فيما تقدم مركب من جزء علوى سماوى وجزء مادى ارضى وأنك لا تسعى وراء مطالب الابدان وما تحتاج اليه ألا من

حيث أنك حيوان لا من حيث أنك انسان وعلمت أن كل حيوان يطلب المطاعم والمشارب وما يقيه من الحر والبرد الى غير ذلك وأنه لا قيمة لما يشاركك فيه الحيوانات وان كنت فى طلبه أوسع تدبيراً وأتقن صنعا وأعظم تفننا واستحققت بذلك أن تكون سيد الحيوانات كما قلت فى بعض ماسبق لك، ولكن الوصف الذى صيرك انسانا وألحقك بالملائكة هو أنك أعطيت نفسا شريفة تشاكل بها الملائكة وتستعد لأن تعرف من جلال الله تعالى وجماله ما لا يعرفه غيرك ويمكنك أن تترقى فى الكمالات دائما وتنخرط فى سلك العالم الأعلى الذى لا يلحقه ألم ولا يشوبه نقص وأن تفارق عالم الحيوان الذى تؤذيك فيه البعوضة ويسقمك فيه الحر والبرد وتزعجك الاحلام وتخيفك الاوهام

وبمقتضى ذلك الجزء الروحانى الذى ليس له حد محدود فى الترقى فى الكمالات (وعلى قدرها تكون اللذة والنعيم) كانت هذه الحياة الحيوانية غير كافية لروحك ولا موفية حق استعدادك فكان لك بمقتضى حكمة الحكيم حياة أخرى لا تنفد حتى يتأتى لك فيها أن تأخذ كل مايقتضيه استعدادك وتوجبه حقيقة ذاتك مما لم يخلق له الحيوان ولا يمكنه أن يصل اليه

ولولا ذلك لكان غيرك من المخلوقات أسعد منك حالا وأنعم منك بالا ولكان ايجادك على هذا الوجه من السفه بمكان (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون) وقد سبق لك أيضاً أن لذة هذا الجزء الروحانى انما هى بالعلوم والمعارف

والانوار والاسرار وأنه قد يصل الى حد تنفعل عنه الاشياء كلها ويكون في نعيم بلا كدر وصفاء بلا تشويش (١) وقد جاءت الشريعة تعالجك من الأمراض التي أحاطت بك وتحاول أن توصلك الى هذا الحد وتظهر فيك خاصة الانسانية ولا تعجل علي يرحمك الله فاني معترف معك بأنها جاءت تحث على مصالح الأبدان وسعادتها أيضاً وقد أفضنا القول في ذلك ، فاذاً قد جاءت الشريعة بسعادة الابدان والارواح ، وان شئت فقل بسعادة الدنيا والآخرة فشرعت العبادات البدنية عسى أن تدخل الى قلبك من الانوار وتذكرك من العظمة الالهية ما توفى به قسط الروح وما يجلو مرآة القلب مما تراكم عليها من ظلمة وعلا عليها من صدا بل وما تنتفع به في مصالح البدن أيضا فانه اذا انجلت مرآة قلبك تجلى فيه الحق حقاً والباطل باطلاً وظهر لك قبح الصفات الذميمة من الحقد والحسد والطمع والشره ، وحسن العفة والسخاء والشجاعة والاقتصاد وسلامة الصدر الى آخر الفضائل والرذائل وتقوى عقلك بذلك المدد النوراني فاجتنبت ما يشينك وتحليت بما يزينك فطاب عيشك وتم سرورك والا حقت عليك الكلمة وأحاطت بك الشقوة ولم تغنك أموالك ولا أولادك متى كنت فيها على غير تأييد الهي ونور رباني (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها) فيضيع منك طيب الحياتين ويفوتك تحصيل السعادتين (ومن أعرض عن

(١) قد جاء التشويش والتهويش جميعا خلافا للحريري الذي جعل التشويش لحنا

ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) بصرك الله فى أمرك وهداك الى رشدك ولا جعلك ممن نسوا الله فأنساهم أنفسهم بمنه وكرمه

(ذكر شىء مما جاءت به الشريعة على التفصيل)

جاءت الشريعة بتفقد أحوالك فى نفسك وفى أسرتك وفى جيرانك وفى الناس أجمعين فاوجبت عليك ألا تخاطر بنفسك (ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) وقد ورد النهى عن النوم فوق سطح البيت اذا كان بلا حاجز يمنعك من السقوط رحمة بك واعتناء بشأنك كما ورد الوعيد الشديد فيمن قتل نفسه، وبما أورثته فى القلوب من الرغبة والرهبة من الله عز وجل امكنها أن تردع الناس عن أن يخاطروا بأنفسهم أو يلقوا بها الى المهالك وليس فى امكان القوانين الوضعية أن تردع الناس عن قتل أنفسهم بوجه من الوجوه ، وليس يغيب عنك ما تسمعه كل وقت من حوادث الانتحار فى أوربا (بلاد القوانين والمدنية)وقد سرى ذلك بطريق العدوى لقوم منا لم يدخل الايمان فى قلوبهم ولا استقرت تعاليمه فى نفوسهم

جاءت الشريعة موجبة عليك أن تراعى زوجك فقالت (خيركم من كان خيره لاهله وشركم من كان شره لاهله)وقالت (أن الرجل ليحشر مع المتجبرين يوم القيامة وليس عنده غير أهل بيته) وجاء فى القرآن العزيز

(لا تعبدون(١) الا الله وبالوالدين احساناً وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا) بدأ بتوحيده تعالى لانه أساس كل خير ثم بالاحسان الى الوالدين لانهما أقرب الناس اليك وأمنهم عليك ثم بذوى القرابة لمكان قرابتهم وعلى حسب درجتهم ثم باليتامى الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، ثم بالمساكين من الناس ثم بعموم الناس كافة الى غير ذلك مما ورد فى الكتاب والسنة

جاءت الشريعة بالحث على معاملة الجار بالحسنى حتى قال صلى الله عليه وسلم (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)

جاءت بأبلغ ما يكون من الحض على عمل الخير مع من تعرف ومن لا تعرف حتى جعلت أماطة الاذى عن الطريق شعبة من شعب الايمان

بالغت فى الحث على آداب الاجتماع حتى حرمت عليك أكل الثوم والبصل اذا أردت حضور المحافل أو دخول المساجد حتى أسقطت عنك الجمعة بذلك اذا لم تجد ما يزيله ابعاداً لضررك عن الناس

طلبت منك الاغتسال على سبيل الوجوب أو السنيه يوم الجمعة لما يكون فى ذلك اليوم من الاجتماع ولم تكتف بذلك بل ندبتك بعد الى التطيب والتعطر ثم أمرتك أن تمضى اليها بالسكينة بعداً بك عن الرعونة والطيش واستبقاءً لما فى باطنك من الخشية وفى ظاهرك من الوقار

---

(١) والنفي فى الآية بمعنى النهى وهو ابلغ منه كما قال علماء المعاني

ندبتك الى ادخال السرور على أخيك المسلم بأى وجه من الوجوه ووعدتك عليه أحسن الجزاء

عقدت بين المؤمنين عامة عقد الاخوة الذى تقلهم الى دائرة الاسرة الواحدة على تنائى ديارهم وتباعد أقطارهم (انما المؤمنون اخوة)

بالغت فى محبة بعضنا لبعض حتى جعلتها شرطا فى الايمان (لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا)

بالغت فى أمر النصيحة حتى جعلتها الدين كله (الدين النصيحة)

بالغت فى ترك الأذى حتى جعلته هو الاسلام (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)

بالغت فى أمر الاخلاص وعمل الخيرات لوجه الله تعالى وحذرت من الرياء الذى يفسد النفوس ويحبط الاعمال ويقلب الفضائل رذائل حتى جعلته شركا (أن الشرك اخفى فيكم من دبيب النمل فى الليلة الظلماء)

عرفت مقدار الميل الطبيعى الى الظلم فحذرت منه بأبلغ مايكون حيث قالت (مامن أمير عشرة الايجاء به يوم القيامة مغلولة يداه الى عنقه فلا يفكه الا العدل ، بل شددت فى الأمر جدا على مايقتضيه العدل الالهى فلم تدع أحداً من المسئولية وكان لها فى ذلك أعلى نظر وابلغ حكمة فقالت (كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته)

عرفت ماجبلت عليه النفوس من الاوصاف الذميمة ومن السعى وراء أهوائها وشهواتها مما يضيع عليك الحياة الطيبة ويحرمك من السعادة الأبدية من حيث تشعر ومن حيث لاتشعر كما شرحناه فيما سبق

عرفت ذلك بما لا يصل اليه أكبر بيداجوجى (١) فى العالم فنبهتك أن تحذر من نفسك حذرك من عدوك أو أشد فانها اخفى مكرا وأعظم ضرراً لان متابعتها تذهب بنعيم الأبد وقد قال القائل

أأنت عدو أم صديق لنفسه ... فانك ترميها بكل مصيبة
ولو فعل الاعدا بنفسك بعض ما ... فعلت لمستهم لها بعض رحمتى

عرفت ذلك كله فقالت (أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك) (أن النفس لأمارة بالسوء)

عرفت مقدار تسلط الهوى علينا فحذرتنا منه كل التحذير وعرفتنا مكانه من نفوسنا ومبلغ سلطانه على قلوبنا حتى جعلته الها يعبد من دون الله لما علمت من مسارعة النفوس الى طاعته وطيرانها نحو اشارته ، شأن العابد مع معبوده والعبد مع سيده فقالت فى بيان تلك الألوهية (أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه) وفى التحذير من أتباعه (ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) وفى الترغيب فى مخالفته (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى)

رأت أن كثيراً من الناس يتخبطون فى أودية الاوهام والخيالات

(١) عالم من علماء النفس وأستاذ من أساتذة التربية

غير مستعملين عقولهم فارادت ان تخلصهم من أتباع الظنون فقالت فى معرض الذم لقوم كان هذا شأنهم تنفيراً من مثل حالهم (ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئاً) وقالت (وان تطع أكثر من فى الارض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون) فبينت أن سبيل الله لا يسلك باتباع الظن والتخرص وانه لا يهدى اليه الا العقل السليم والتفكر القويم ولذلك أكثرت من قولها (ان فى ذلك لآية لقوم يعقلون ، ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) ثم تقول فى توبيخ قوم (أولم يتفكروا) (أولم ينظروا) الى غير ذلك

عرفت نفاسة الوقت وأن النفس ميالة الى اللغو وضياع الأوقات فيما لا ينفع فأرشدتنا الى ذلك وأكثرت من الحث عليه (والذين هم عن اللغو معرضون) (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) (ان الله يكره أن يرى عبده فارغ القلب من عمل الدنيا والآخرة) (من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه) وقد قال بعض الصالحين قد عملت بهذا الحديث أربعين سنة ولا تزال تتجدد فوائده وتترادف عوائده ولم أفرغ منها بعد

عرفت ما للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الفوائد وما هو مركوز فى الطبائع من مراعاة الناس فيما تميل اليه نفوسهم فقالت (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر)(أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم) وبينت لنا أن ترك ذلك من موجبات

سقوط الأمم فقالت في بيان جريمة قوم استحقوا بها المقت واللعنة (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون)

عرفت ماجبلت عليه النفوس من محبة الدنيا والتطلع اليها وما يكون فى قلوب الفقراء من الحقد على الاغنياء والحسد لهم ومايكون فى نفوس الاغنياء من محبة أموالهم والحرص عليها فأوجبت لهم قسطا من مالهم يؤخذ منهم كرها(وان بقتال) وندبتهم بعد ذلك الى الصدقات ووعدتهم عليها الثواب الجزيل حتى تذهب الشحناء وتجتث البغضاء من قلوب الفقراء فيتم الصفاء ، وحتى تطهر نفوس الأغنياء من رذيلة الشح (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) وندبت الى القرض وجعلته أفضل من الصدقة وعملت على توثيق عرى المحبة وتربية خلق المروءة فى نفوس الجميع فحرمت الربا

فانظر بصرك الله الى أى حد وصل الناس من البعد عن الفضائل ولو أنصفت لأعطيت الاشترا كيين بعض العذر فيما يفعلون وقد كان لهم من الدين الاسلامى أكبر دواء فى ازالة هذا المرض القتال للأمم الفتاك بالشعوب

عرفت حاجة الأنسان الى الدنيا وانها وسيلة سعادته وأنه عظيم الشره فيها وأن ذلك سبب شقائه فقالت مراعية للأمرين جميعاً (من طلب الدنيا حلالا فى عفاف كان فى درجة الشهداء)

حثت على التقوى وذكرت علامة المتقى ثم عرفت أن نفسه لابد أن تغلبه بعض الشيء فتسوقه الى مالا ينبغى فوضعت له الدواء

الناجع وأرشدته الى مايصلح به حاله مع الخالق والمخلوق فقالت (اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن) وقالت لا يبلغ الرجل درجة المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة مابه بأس

عرفت من النفوس أنها تتأثر بأقل شيء فتكمن الحقد والشر ، وكثيراً ما يكون لصاحب الهفوة مقصد حسن أوعذر مقبول فيما صدر منه ، فحضت على الأصلاح بين الناس وجعلته من أفضل الأعمال فقالت (لاخير فى كثير من نجواهم الامن أمر بصدقة أومعروف أو اصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً)

عرفت أن النفوس تحب مزيد الأنتقام ولاتقف عندحد العدالة فى المجازاة (والظلم من شيم النفوس) وأن لصاحب الذنب من جهله وبواعثه التى استولت على نفسه الضعيفة حتى ساقته الى أن يقارف ذلك الذنب بعض العذر فيكون العفو أقرب الى الرحمة وأبعد عن الحيف فأكثرت من الحث عليه فقالت (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله) (ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور)

عرفت مقدار مافى النفوس من الجهل ومحبة العاجلة والتأسف على الفائت الذى يكاد يتلفها ويذهب بأيمانها حيث قصرت النظر على الاسباب ولم تترق منها الى مسبب الأسباب غير عالمة أن للأمور من الأسباب الخفية والمعدات القريبة والبعيدة مالايدخل

تحت علمها وقدرتها ، وانما هو راجع للفعل الالهي والتقدير الأزلي فكانت أشبه شيء بالنملة التي تعتقد أن الكتابة من القلم اذ لم يمكنها أن تشاهد اليد ولا تعرف الأعصاب المحركة لها ، ولا أصل ذلك كله من القدرة والارادة

عرفت ذلك من النفوس وأنها مجبولة على هــذا الجهل فداوتها بأنجع الادوية وأخرجتها من الظلمة باشراق نور الحقيقة فقالت : (ما أصاب من مصيبة فى الارض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير) جمعت مجــامع الآداب والفضائل ، حاثة على العدل الذى هو الوقوف عند الحد المطلوب فى كل شيء وهو الفضيلة الجامعة للفضائل كلها ، ناهية عن الرذائل جمعاء فقالت موجزة آمرة وناهيــة (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى)

سلكت بك كل طريق ودخلت بك من كل باب الى مكارم الاخلاق فتارة تذكر لك ثمراتها وما يترتب عليها فى الدنيا كما قال صلى الله عليه وسلم (من وصل رحمه زيد له فى عمره ووسع عليه فى رزقه أو كما ورد) وتارة ترغبك فيها بما لك عند الله من حسن مثوبته لك ومزيد رضاه عنك

ومن أعظم أبواب مكارم الاخلاق ما أمرتك أن تشعر به نفسك فى كل عبادة من الخضوع لعظمة الله تعالى والرهبــة من جلاله حتى يمنعك ذلك الخوف وتلك المراقبة من ارتكاب الدنايا وحتى يرجع بك

نور العبادة الى طهارتك الذاتية وصفاتك الاصلية وحتى تعلم أن لك حظا آخر غير حظك من الدنيا فلا تحبها الحب الشديد الذى أخذ بكل قلبك فتكالبت عليها تكالب المتهالكين فيها فكثرت منك المنازعات والمخاصمات لانها محبوبك الوحيد وكل من نازع أحداً فى محبوبه الوحيد فهو عدوه لا محالة ، وقد كان من حق الدنيا ألا تأخذ الا بشئ يسير من قلبك لا بمجامعه او بتعبير آخر لا تأخذ الا بظاهره دون باطنه حتي يصفو عيشك ويستقيم أمرك ويستريح الناس من شرك وتتم بينكم المحبة والولاء

ولو أخذنا نشرح ما اشتملت عليه الشريعة من أسرارها الحسية والمعنوية لطال بنا القول وستسمع فى الخاتمة شيئاً من أسرار الصلاة

وقد عرفوا الآن من أسرار الطهارة أنها تنفع فى أمراض كثيرة أخصها ما يكون بالأنف

وناهيك مايزيل تغير رائحة الفم من المضمضة (ثلاثا) واستعمال السواك مع الحض الشديد عليه حتى كادت توجبه وخصوصا بعد النوم ، وما فى ذلك من المحافظة على الأسنان وماينتظم فى سلك آداب الأجتماع ، وليس يقل عن ذلك مافى غسل القدمين كل وقت من ازالة الروائح التى تنبعث منهما اذا طال مكثهما بلا تعهد ، الى غير ذلك من الفوائد الطبية والحكم الروحانية مما لا محل لذكره الآن

عرفوا من تلك الاسرار بل من أسرار ماجاء به الدين الاسلامى عموماً ماجعل الكثير منهم ينتصر له معجباً به مبتهجاً بما جاء فيه

موقنا أن دين الاسلام على غير ما عليه المسلمون اليوم على حين أن أبناءه يحاربونه فى بلاده بجهلهم تارة وتقليدهم أخرى

ولو لم يكن من آيات الشريعة الأسلامية الا أنها جاءت بتلك الأصلاحات كلها فى زمن يسير على حين أن غير المسلمين لم يهتدوا الى بعضها الافى قرون عديدة لـكفاها اعجازا لدى المنصف المتبصر

هذا والمقام واسع جداً ولم يمكنى أن أبرز الاشيئاً يسيراً مما فى نفسى وكل مافى نفسى ليس الاشيئاً يسيراً من تلك الاسرار (قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) ووجوه الأعجاز الراجعة الى معانيه أكثر من وجوه الأعجاز الراجعة الى لفظه وحسن نظمه ، ولا بد أن يكون قد تحرك منك الأنصاف وصادفك التوفيق فعلمت سر قوله صلى الله عليه وسلم (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) وقوله تعالى (وانه لـكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

(مقارنة الشريعة بالقوانين الوضيعة)

الشريعة جاءت باصلاح الظاهر والباطن وراقبت الفرد فى أعمال نفسه وأخلاقه التى يتخلق بها وخلصت روحه من مضيق سجن البدن وفتحت له نوافذ كبيرة يشرف منها على عالمه الفسيح فتأخذ

الروح حظها من وطنها الاصلى وتشفى غلتها من سلسال منهله العذب وتمتع نظرها بجمال رياضه المونقه ثم تستضيء منه بنور لامع تبصر به فى ظلمات هذا العالم ما ينفعها ومايضرها ومايسعدها ويسعد أمتها ثم ترشد بذلك اللألاء أبناء نوعها ثم حركت فيها الاحساس بالخالق عز وجل ومحبته والنظر فى آياته والفكر فى عظمة ذاته ثم شرعت له معاملة مع الله تعالى الذى يراقبه فى خلواته وجلواته ومعاملة مع أسرته ومعاملة مع الناس كافة وهى الانسانية الحقيقة التى يشرئبون اليها ولا يستطيعون الحصول عليها ويدعون انهم من عشاقها ، وكثيراً مايجنون عليها ويكونون من ألد أعدائها ، ولو نظرت الى قوانينهم لوجدت فيها مايستخرج من قلبك أيها المؤمن شكر الله عز وجل ، وأظنك تعرف انه لايراد من تلك القوانين الاحفظ النظام العام لا اصلاح الافراد فى كل شئونهم (كما هو مرمى الشريعة المطهرة) فهى لا تكفل السعادة للافراد على الحقيقة ، وانما تكفل وحدة الامة وراحة الحكومة القائمة بشئونها

ومع هذا فسل الخبير بأحوالهم ينبئك عما ظهر لهم من النقص فيها حتى بالنسبة الى غرضها الذى ترمى اليه مما أوجب كثرة الجرائم والشرور فاهتدوا الى تعديلها بما يقربها من قوانين الشريعة الاسلامية فاهتدت المانيا الى منع المضاربات الا على وجه مخصوص يقرب من

المعاملات الشرعية وانجلترا الى منع الزنا رسمياً الى آخر ما يعلمه الباحثون عن أحوالهم

وقد عرفوا من أسرار الشريعة شيئاً كثيراً فاعترفوا لها فى مسألة تحريم الخنزير وتحريم الخمر والمقامرة والضرورة الى الطلاق وكثرة الزواج

وان فرنسا لتئن الآن أنيناً شديداً مما عليه أبناؤها كما أن فلاسفة ألمانيا لهجون بذكر فوائد الاكثار من الزواج ويغبطون المسلمين الذين يصيرون فى زمان يسير ذوى عدد كثير بفضل كثرة الزواج (مع ملاحظة أن الشريعة حدت لذلك حدوداً وشرطت له شروطاً) واذا كنت قد علمت أن الشريعة جاءت باحثة عن السعادتين معرفة اياك كلا الطريقين كما قالت (وهديناه النجدين) علمت أنه لا يمكننا أن نقارن بينها وبين القوانين الوضعية من حيث البحث عن السعادة الروحية لانه مما انفردت به الشريعة المطهرة ؛ وكان يكفينا ذلك فرقاً كبيراً بينهما خصوصاً بعد ما علمت رتبة السعادة الروحية الانسانية الباقية من رتبة السعادة البدنية الحيوانية الفانية وانما يمكننا أن نقارن بينها وبين هذه القوانين فيما اشتركا فيه من البحث عن السعادة البدنية

فاذا قارنا بينهما من تلك الوجهة بعد ما تقدم لك فى هذا الموضوع والذى قبله كان للشريعة القدح المعلى أيضاً فانها تردع النفوس عن ارتكاب الشرور والقبائح كيف كانت وحيث كانت اذ جعلت عليها

رقيباً من أعماق قلوبها يصيح بها زجرا ويملأها رعباً عند ما تهم بمعصية أو تتوق الى قبيح

لا فرق بين أن تكون وسط العواصم تشرئب اليك الاعناق وترقبها العيون وبين أن تكون وسط الصحراء الكبرى حيث لا انسان ولا ديوان لأنه استقر فى قلبك أن الله رقيب عليك حيثما كنت (وأنه يعلم السر وأخفى)

وأما القوانين فلا يهمك أن تحافظ عليها متى وجدت الى ماتريد سبيلا ولم تخف شاهداً أو دليلاً ، ولا يسعنا الا ايجاز القول فى هذا الموضوع الواسع ، وسنعمل كتاباً نبين فيه بعض أسرار الشريعة فيما جاءت به من الجزئيات والمسائل الكلية ونتكلم على القوانين الغربية وعلى آراء الغربيين فى الاخلاق والعادات وعلى ما قاله فلاسفتهم بالنسبة الى الدين الاسلامى حتى تعرف أن الله جمع لك في تلك الشريعة الغراء من الاسرار ما لم يهتدوا الى بعضه الا فى مئات من السنين ، ولعلهم فى كل قرن يهتدون الى جملة منها حتى يكون الدين كله لله (وما اهتدوا الى ذلك الا بعد ان برحت بهم الحوادث وأوجعتهم الكوارث) وقد منحك الله ذلك كله بغير تعب ولا نصب ولكنك تأبى الا أن تسير سيرهم وتمرمرهم حتى تهتدى بعد كما اهتدوا ، وليتك تتسائل عن آرائهم الاخيرة التى يصرخ بها أكابرهم هناك حتى تستريح من ذلك العناء الذى لا تدرى أين يذهب بك فقد رضيت لنفسك (والقضاء لا مرد له) أن تتلاشى أنت ولغتك

ودينك وعاداتك وجميع أحوالك فى تقليدهم فيما يجأرون منه فى بلادهم

ولعلك قد عرفت من كلامنا فى بعض المواضع مقدار مركزهم من الانسانية الحقيقية، أرشدك الله الى دينك حتى تتعرف أسراره ، وأودع فيك المحبة له والغيرة عليه ، والانفة من ان تتلاشى أمتك فى غيرها وسدد نظرك قبل ان يحل الصغار ويحيق الدمار

(الاسلام دين الرحمة والحكمة)

« لا دين القسوة والتعصب »

يحسن بناءها هنا أن نورد لك هذه المقالة التى رددنا بها على من طعن على الدين الاسلامى بأنه لا يعرف معنى العدل ولا يأمر بغير القتل لما فيها من الفوائد الجمة وما لها من المناسبة التامة بهذا المقام وهذا نصها

خفض عليك أيها المسلم المشفق على دينه الحنيف دين الفطرة ولا يهولنك ان رماه أعداؤه بالتعصب ونقض العهد واباحة الظلم وسفك الدماء الى آخر ما أملاه عليهم ضميرهم الممتلئ هوى وقلبهم المتقد حقدا على الاسلام والمسلمين

فأمر دينك بما له من القوة الذاتية والمتانة الطبيعية أجل من أن تؤثر فيه هذه الترهات أو تطمس نوره الساطع غياهب تلك المفتريات فدعهم يعوون خلف حصونه المنيعة ويستعوون من قلدهم ممن لم يعرف مكانهم من العلم ولا مكان الدين الاسلامى من مكارم الاخلاق

وسنورد عليك فى مقالنا هذا من البراهين القاطعة والحجج الدامغة

ما ينطق بأنه الدين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

ثم نتبع ذلك بما اشتمل عليه من حكم سامية وأسرار عالية فلا يسئمك طول البيان ولا كثرة ما نأتى به من برهان

فمن لى بمن يحرك احساس الحياء من نفوس أولئك المتفيهقين حتى يخجلوا من جهلهم وكذبهم على الدين أنه يبيح نقض العهود ولا يحترم مبادئ العدالة ، وقد غاب عنهم أنه دين يقول كتابه المبين (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، يعظكم لعلكم تذكرون) (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم)ويقول (الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين) (وان أحد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) (يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق) دين يقول نبيه صلى الله عليه وسلم (من آذى ذميا فأنا خصمه يوم القيامة) وأظنك لا تجد من عبارات التحذير وقوارع الزجر أبلغ من هذا

دين يقول خليفته أبو بكر الصديق فى كتاب لبعض عماله(عليكم بالعدل وتباعدوا عن الجور ولا تغدروا ان عاهدتم ولا تنقضوا ان صالحتم) الى آخر ما قال فى كتابه

دين يقول خليفته عمر بن الخطاب لبعض قواده(نح منازل أصحابك

عن قرى أهل الصلح والذمة ولا يدخلها منهم الا من تثق به) ثم قال في آخر كتابه (واعلم ان أشقى الرعاة من شقيت به رعيته)

دين يقول خليفته على بن أبي طالب للأشتر النخعي حين ولاه على مصر (وان عقدت بينك وبين عدوك عقدة او البسته منك ذمة فتمم عهدك بالوفاء ، وارع ذمتك بالامانة ، واجعل نفسك جنة دون ماأعطيت ، فانه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد اجماعا عليه مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود ، فلا تغدرن بذمتك، ولا تختلن عدوك ، واياك والدماء وسفكها بغير حلها فانه ليس شيء أدعى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها)

وان تعجب بعد هذا فعجب قولهم أن دين الاسلام يبيح الظلم ولا يعرف غير الايذاء وسفك الدماء بعد ما يقول كتابه الكريم (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين) (أنه لا يفلح الظالمون) (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولا هم يستعتبون) وبعد ما يقول صلى الله عليه وسلم (الظلم ظلمات يوم القيامة) ويقول (عقوبتان معجلتان فى الدنيا الظلم وعقوق الوالدين) فمن لى بمن يوصل الى نفوس أولئك المتعنتين ذلك العلم مكان تلك الجهالة

ان دين الاسلام يأمر بنيه بالرحمة لكل شيء لا لخصوص النوع الانسانى فقد قال صلى الله عليه وسلم (ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء ، وقال (فى كل كبد حرى صدقة) وكل حيوان فيه تلك

الكبد الحرى، وان دينا يقول دخلت امرأة النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها ولا هى أطلقتها لا يتصور فيه أن يأمر بسفك دم الانسان ظلما ونقض عهده حيفا مع مزيد حثه على الرفق بالحيوان الاعجم، فدين الاسلام دين لا يعرف القسوة ولا يأمر بغير الرحمة لكل ذى روح من الحيوان فضلا عن الانسان وهو القائل (ولقد كرمنا بني آدم)

ولعمر الانصاف ان دينا هذا شأنه لجدير أن ترحب به النفوس وتتسع له الصدور حتى يدخل فى شغافها ويستقر فى أعماقها وفوق محل حياتها

وقد كان الواحد من المسلمين يعذب بكل أنواع التعذيب وتوقد له النار ليرمى فيها كى يرجع عن دينه فيأبى الا أن تخرج نفسه من بين جنبيه ولا يخرج دينه من سويداء قلبه ويقول

ولست أبالى حين أقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى

وقد قال هرقل ملك الروم لأبى سفيان بن حرب حينما سأله من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه) فقال لا فقال هرقل (كذلك الدين اذا خالطت بشاشته القلوب) فهكذا كان الدين وهكذا كانت أربابه الذين عرفوا ما يدعوهم اليه مما كان لهم شفاءً من أمراضهم وسعادة فى أنفسهم أحسوا بها أحساسا هون عليهم القتل دونه

دين يصدع بالحجة قبل كل شىء ولا ينخذل أمام برهان

دين يملك النفوس المنصفة بمجرد ما تعرف أصوله وتقف على مباديه

دين يدعو الى كل خير ويأمر بكل فضيلة ويسوق الناس الى ما يوجب رفعتهم وينتهي بهم الى سعادتهم

نعم هذه قواعده المتينة وقوانينه الرفيعة وان أمره فوق هذا، فانه لما رأى الانسان كثيراً ما تلعب به الاهواء وتغلبه الشهوات وكان يمكنه أن يحافظ على ظاهر تلك القوانين ولا تقوم عليه حجة بعد المحافظة على أشباح هذه الرسوم مع ما له من القصد السيء فيما يأتي ويذر، فيكون ظالما يلبس ثياب العادلين ومتدنسا يتسم بسيمى المتطهرين

علم ذلك فعلمنا أن المحافظة علي تلك الرسوم الظاهرة لا قيمة لها فى نظر الدين فقال « ان الله لا ينظر الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم » وقال (انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى) وقد قال تعالى (واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه) (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) وعلم صلى الله عليه وسلم أن الاشياء تتشابه فأمرنا بالاحتياط عند ذلك فقال « دع ما يريبك الى مالا يريبك » وقال « الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات فمن اتقي الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه » وقال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) (وأنه يعلم السر وأخفى)

فأنت ترى (وقد أفصح الصبح لذى عينين) أن الاسلام لا يريد من أبنائه الا الحق الصراح الذى لا يعتريه ريب والعدل الكامل الذي لا يشوبه ظلم ولا يبنى أموره الا علي المصالح الحقيقية والحقائق الواقعية

وانى لأعجب كل العجب أن يوصم الاسلام بذلك الذى يرميه به أعداؤه وكتابه ينادى بأن الله يجازى على ما فى الضمير ويحاسب على الفتيل والنقير ، فما أدرى كيف صمت آذانهم عن سماع ندائه العالى وعميت أبصارهم عن رؤية شمسه المشرقة (ولكن هى الاهواء تعمى وتصم)

(الدين منبع السياسة الحقيقية والتربية الصحيحة)

ان مثلى وقد أردت أن أبين سعة نظر الدين وعظم سياسته وحسن تربيتـه وبيان أن ضرر التربية الحديثة أقرب من نفعها مع ماعليه المسلمون اليوم من ارتباك أحوالهم واختلال أعمالهم لمثل رجل فقير اتضعت مكانته وسقطت من النفوس حرمته لكن كرم محتده وطاب منبته ، فاذا قام يفاخر الامراء والكبراء لم يحفلوا به ولم يصغوا اليه ورأوا أنه قد جاء شيئاً اداً (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا) قائلين لو كان آباؤه من العظماء الاجلاء لم يكن هو من الفقراء الاذلاء مقتفين فى هذه البرهنة نهج قريش حيث تقول فى حق الدين وأهله (لو كان خيراً ما سبقونا اليه) واذلم

يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم . ولكنى سأصدع بصريح الحق معتقداً أن فى الأمة خيرا كثيراً بين أعماق قلوبها فأقول:

يظن فريق من الناس أن الدين يباين السياسة وأن كل متدين ساذج لا يدرى كيف يعامل الناس على اختلاف طبقاتهم ولا يمكنه أن يدير شيئاً من الأشياء ولا أن يسوس أمة من الأمم بل ولاطائفة من الطوائف فتراهم اذا أرادوا أن يرموا أحداً بالبله أو الغفلة قالوا انه رجل صالح وأغناهم ذلك عن الاسهاب والاطناب ، وقد جهلوا أن سعة النظر واحكام التدبير وقوة الحزم وبالغ الحكمة ليست الا للمؤمنين الكاملين (المؤمن ينظر بنور الله)

وأن السياسة الحقة التى لا يلحقها شر ولا يخشى لها عاقبة انما هى سياسة الدين الذى أخرج الناس من الظلمات الى النور فى كل شئ حتى أمكنه أن يقول (ما فرطنا فى الكتاب من شئ)

نعم ان الدين لا يعرف سياسة المصالح الشخصيه الا على وجه اندراجها فى المصالح الكلية حتى لا يفرق الانسان بينه وبين غيره فيحب لأخيه ما يحب لنفسه ويعرف أنهم جميعاً كالبنيان يوهنه سقوط لبنة منه وانه لاثبات له الا بأجزائه التى يشيد بعضها بعضاً كما أنه لا يعرف سياسه الكذب والخداع والنفاق الى غير ذلك مما يقتل الفضائل فى النفوس ويجعلها ذئاباً وثعالب وأسوداً وعقارب فتموت الأمة بموت تلك الأخلاق وتتربى فيها ملكات الشر وصفات الخبث وتذهب منها الشفقه والرحمه والنخوة والمروءة وتحل محلها القسوةوالشره

والتباغض والتحاسد فيما بين أفرادها أو فيما بينها وبين أمة أخرى مما يوجب الدمار وينهدم به بناء العمران عاجلاً أو آجلاً وتشقى به الامم والافراد جميعاً ، وليس يعلم ما تأتى به سياسة ساســة العالم من الشر المستطير الذى ستراه أو يراه أبناؤك الا الله تعالى ،وأنها نفوس وحشية يضلها الشره فلا تبصر موضع الصواب ثم يسوقهـا الطمع الى حتفها وأن تملأ الدنيا ناراً والقلوب رعباً وتذهب بذلك سعادتها وسعادة غيرها ويضطرها هذا وذاك الى ضروب السياسة التى تسمعها من الغدر وعدم الوفاء والتلون بألوان الحرباء ، غير مبالين بظهور فضائحهم وكذب نصائحهم ، وكأنهم فسدت انسانيتهم وبقيت حيوانيتهم ، فما نتيجة سياستهم الا شقاء حاضر ودمار منتظر

وانما الامم الاخلاق مابقيت فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

تلك السياسة التى تميت الاخلاق وتحيي النفاق وتذهب بالنعيم وتأتى بالعذاب الاليم حقا ليس يعرفها الدين ولا يدير دفتها رجال المؤمنين

فسياسة السياسيين من أبناء الدنيا انما تدور على خدمة الشهوات والسعي وراء مطالبها على أى وجه وبأى وسيلة والغاية لديهم تبرر الاعمال (وان أغضبت الخالق وضج منها المخلوق)

وسياسة الدين تدور على مقاومة الشهوات ومصادمة الهوى فى كل مايأباه العقل ولا ترضاه الفطرة فهي سياسة حكمية الهيه، وتلك

سياسة شهوية شيطانية ، فالدين لا يعرف الا السياسه التى تنتج الالفة والمحبة وتقدم العمران وتوجب الهناء الحقيقى والفوز السرمدى

يأمرك الدين باحترام ذوى المكانة من الناس والشفقة على غيرهم وأن تكظم غيظك وتعفو عمن ظلمك من غير أن تكمن الحقد فى صدرك وتظهر خلاف ما تبطن

نعم يأمرك عند مقاومة عدوك أن تكون شجاعاً ، مقداماً ، بعيد النظر ، واسع السياسة ، متين التدبير ، معدا له كل ما تستطيع من قوة مبيحالك أن تخدعه بكل ما يمكنك وقد قال (الحرب خدعة) وليس ذلك قادحا فى الفضيلة ولا طاعنا فى مكارم الاخلاق بل هو من أكبر الفضائل وأشرفها وهو الحزم والحكمة ، ولا تبعة عليك بعد أن آذنته بالحرب وانك ستفعل معه كل ما تصل اليه قدرتك وتدبيرك

جاء الدين بالمداراه وجعلها من أوجب الواجب قال صلى الله عليه وسلم (أمرت بالمداراة كما أمرت بالفرائض) ولكن تداريه لأجل أن تدفع شره وتأمن مكره حيث لا تستطيع أن تقاومه

تداريه مداراة لا تضر بحق ولا توقع فى باطل ، غير مبالغ مبالغة المنافقين ولا مسترسل استرسال الكذابين ، ولكنك تستعملها استعمال الدواء على قدر ما تحتاج اليه ، تفر بذلك من أن تثير شراً بلا فائدة تترتب عليه فتكون جاهلاً يقترف العبث ، وسفيهاً يخالف الحكمة حتى اذا خفت أن تعلوا دولة الباطل أمرك الدين أن تجاهر بالحق ولا تخشى فى الله لومة لائم

حظر عليك الدين أن تكذب ولكن أباح لك أن تستعمل التورية مكان الكذب كما قال صلى الله عليه وسلم للأعرابى الذى سأله وهو يريد فتح مكة وكان لا يعرفه (نحن من ماء) وكان من دأبه صلى الله عليه وسلم اذا أراد أن يغزو جهة ورى بغيرها ، وكل ذلك محافظة على فضيلة الصدق وبقاء ملكته فى النفوس

جاء الدين بطاعة المرءوسين للرؤساء كما قال تعالى (وأولى الامر منكم) ومشاورة الرؤساء للمرءوسين (وشاورهم فى الامر) واحترام الطبقة الدنيا للطبقة العليا « أنزل الناس منازلهم » كما جاء برحمة الاقوياء للضعفاء فعل كل ذلك كى تتم المحبة بين الجميع وتكون الروابط على أكمل وجوهها

جاء الدين بالتواضع وذم الكبر حتى جعله شركا ولا شئ كما تعلم يحرج الصدور مثل الكبرياء

جاء الدين بالتعاون والاتحاد وطلب من كل أحد أن يعمل من الخير ما يعود على عشيرته وأمته فقال (على كل مسلم صدقه ، الأمر بالمعروف صدقه ، واماطة الأذى عن الطريق صدقه ، واعانه الرجل حتى يحمل على دابته صدقه ، والكلمة الطيبة صدقة ، فمن لم يستطع فليكف عن الشر فهو له صدقه) وقد قال « يد الله مع الجماعة » وقال (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان)

يحثنا الدين على خشونة الملبس والمأكل وعدم التغلغل فى الرفه والنعيم ويأخذ نفوسنا بعض الاخذ عن الدنيا حتى تتم الراحة وتأخذ الروح حظها من عالمها ولا تكون من الذين (نسوا الله فأنساهم أنفسهم)

كى يمكنها أن تلتجئ اليه وتعول فى كل أمورها عليـه وأن تطفئ ببرد هـذا اليقين ما تأجج من نارما يصيبها فى هذا العالم ولا تتفانى فى لذائذه وشهواته التى تقطع الأرحام وتفكك أواصر المحبة وتقضى على المصالح العامةوتقصر النظر على المصالح الخاصة حتى اذا سمعت ممن أصبح أسير اللذات وعبد الشهوات ما يعجبك فاعلم أنه قوال لافعال وأنها شهوة كاذبة ان لم تكن لغرض سافل،وهيهات أن يقاوم مارسخ لديه من محبه تلك اللذائذ وذاك النعيم الذى يسوقه اليه طبعه وتجذبه اليه ملكته التى رباها فى نفسه طوعاً أو كرهاً (شأن الشهوات كلهـا اذا تملكت النفوس واستولت علي القلوب)

وانظر ان شئت فى عشاق الدخان الذى هو أقل اللذات بل المعتادات كيف يحنون اليه ولا يصبرون عنه فضلاً عن غيره مما هو أبهى وأشهى

هذا الترف هو الذى جعل الناس كلهم يتقلبون فى الشقاء وقلوبهم تتقد حنقاً على القضاء وتكاد نفوسهم تميز لهفاً على مظاهر النعيم والملك العظيم حتى الوزراء والملوك ، ولست أدرى من ذلك المغبوط الذي أدرك ذاك النعيم وذاك الملك الجسيم

فنتيجة الترف أن ترى الظواهر فى جنة عاليـة والقلوب فى نار حامية مع تسلط تلك الملكات الرديئة على أربابهـا حتى تقهرهم على محبة الذات وترك الواجبات فيصير كل منهـم فرداً تقطعت الوصلة بينه و بين غيره،ان لم يكن عدوه المبين الذى يقطع دونه سبل المنافع

ويسد أمامه وجوه الخير والنجاح (نتيجة طبيعية لمحبة الذات وتربيــة ملكة الشهوت) فضلاً عما يحدثه الترفه ونعومة العيش من الجبن والخور وضعف العزيمة والاخلاد الى ما لا ينبغي الا للنساء فلا يستطيع أن يقاوم عدواً مهاجماً اذ لا تساعده نفسه الشحيحة بالحياة ولا جسمه الذي له تلك الواجبات المحترمة والقوانين المقدسة

وليس يغيب عنك ما فعلته العرب في الحرب الطرابلسيــة من الافاعيل بفضل شجاعتهم وخشونة عيشهم وتربيتهم البدوية وصيانة بلادهم ممن يفسدها بذلك الترف الذى أفسدنا وقضى على شجاعتنا وكل سعادتنا ولا ندرى الى أى حد يصل بنا بعد أن جعل الوزير يئن والامير يتأوه وصاحب الالوف من الفدادين يتذلل للمرابين ويبيت يفكر فيما عليه من الديون

هذا وأرجوك أن تنظر نظرة بسيطة بعد ما تقــدم فيما تأتى به التربية الحديثة من التفريق بين المرء وذويه، ودخوله في كل ما لا يعنيه وغرس رذيلة القسوة، واماتة المروءة والهمة والشفقة حتى على أخيه وأبيه مع ما كان بيننا في العهد السابق من التراحم والتآلف والمروءة وحمل بعضنا أثقال بعض وتعاوننا في كل شدة ومهمة الى غير ذلك مما يرشدك اليه انصافك ان لم يغلبك هواك

فالخلاصة أن التربية على غير مبادىء الدين ترمي بالانسان في هوة لا يستطيع منها مفراً ولا يجد فيها مستقراً ، فان سنح له من نتوء تلك الهوة ما يضع عليه احدى رجليه زلقت به الاخرى فهوى أبعد

مما كان ، واذا تنسم بعض النسيم الذى يصل اليها أحيانا لم يلبث أن يزول ذلك عنه ، ثم يختنق بهوائها الفاسد ولا يزال كذلك يعانى صنوف العذاب (يأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت) حتى يذهب الى حيث شاء الله أو يعمد الى الانتحار تخلصاً من ذلك الشقاء كى يصل الى مركز يستقر فيه وما هو بواصل اليه (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا)

لا يجد من نور اليقين ما يتسع به صدره فيهون عليه أمره وتستقر روحه فى مركزها الذى تحن اليه من عالمها الأعلى فتنزل عليها السكينة وتحفها الطمأنينة فتعيش هادية مهدية وراضية مرضية بل أخذته الدنيا فلم تدع منه شيئاً حتى مات أسيراً فى يديها وهو متلهف عليها فهو معها (كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه) وهى معه (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً) فضاع منه نصيب قلبه وبدنه جميعا وناهيك قول الله تعالى (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى)

وأما تربية الدين فهى التربية التى يعيش بها الانسان هادئاً مطمئناً يتبادل الصفاء والهناء هو وأخوانه المؤمنون قد اتحدت مبادئهم فلم تختلف أهواؤهم ولم تتباين آراؤهم (كحالنا اليوم) فضلاً عما له من السعادة الروحية التى هى أصفى وأرفع من السعادة البدنية

وأما غيره فليس له من تلك اللذة شئ لانه مشغول عنها منكس القلب نحو العالم الادنى

وليتك تصدق أن المؤمن يجد من لذة الأكل والشرب وهبوب النسيم وأزهار الرياض ونغمات الطيور ما لا يجده غيره لان له نصيباً روحانياً لا يعرفه غير أهله

ولعلك بكلامنا هذا يهيج منك خالص الايمان ويتحرك لديك صادق الوجدان فتفهم ما يشير اليه قوله تعالى فى حق الكفار (يأكلون كما تأكل الانعام)

وان كنت لا تتذكر تلك اللذة الروحانية التى كانت لك زمن الصحة وسلامة الفطرة عند ما يهب نسيم الاصيل أو يفوح شذى الأزهار أو يشرق نور الصباح وما كنت تجده اذ ذاك مما يكاد يسكرك بخمرة ذلك الجمال حتى يجعلك مبهوتاً مستغرق القلب لا على النحو الذى تعرفه الآن مما يجعلك تتحرك وتفكر، بل مما يلقى عليك سباتاً لذيذاً يملأ القلب نوراً ويفيض الدمع سروراً

فحرك من نفسك ذلك الشوق فعسى ألا تكون قد بطلت منك غريزته والا فلا تحكم على غيرك حكماً جائراً (ولا تقف ما ليس لك به علم أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا)

(أحاديث نبوية)

« فى مكارم الاخلاق »

قد رأيت هاهنا أن أوردلك جملة من الاحاديث النبوية وشيئاً مما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم حتى تتحقق أنه قد بعث ليتمم

مكارم الاخلاق وأنه أرسل رحمة للعالمين وحتى تقتدى به فى بعض ما كان عليه فقد قال تعالى (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) فعسى أن يتحرك بذلك منك احترام دينك ومحبة نبيك فتنتفع بذلك فى الدنيا والآخرة ، وقد سمعت بعض الناس يقول ان من العار والشنار ألا يدرس فن الاخلاق فى الازهر ولا يعرفه أهله فأجبته أن لنا فيما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم لغنى عن كل شئ وأن أهل الدين يعرفون من أسرار الأخلاق وطبائع النفوس مالا يعرفه غيرهم ، ولو قدر لسواهم أن يطلعوا على ما جاء فى الدين الاسلامى من مكارم الأخلاق وما يغرسه من الكمال فى النفوس لا لغرض ولا غاية لم يرموه بما رموه به ، غير أنى معك على أن المسلمين اليوم أبعد الناس عن الاتصاف بها وان جاء دينهم الحنيف آمراً بها حاثاً عليها حتى جعلها الغاية التى لم يرد سواها

وها أنا ذا أجاو عليك من حكم ذلك الدين ما يكون تبصرة وذكرى لأولى الألباب فأقول

قال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه ، ثلاث منجيات ، خشية الله فى السر والعلانية والقصد فى الغنى والفقر والعدل فى الرضا والغضب ، الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءاً من النبوة ، علو الهمة من الايمان ، ان الله يحب الرفق فى الأمر كله ، الذنب لا ينسى والبر لا يبلى والديان لا يموت فكن كما شئت فكما تدين تدان ،

أحب الاعمال الى الله تعالى أدومها وان قل ، اذا أراد الله بعبد خيرا فقهه فى الدين وألهمه رشده ، اذا رأيت أمتى تهاب الظالم أن تقول له انك ظالم فقد تودع منهم ، اذا غضب أحدكم فليسكت ، استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فان كل ذى نعمة محسود ، استنزلوا الرزق بالصدقة ، أشكر الناس لله أشكرهم للناس ، ان الله تعالى لا ينظر الى صوركم وأموالكم وانما ينظر الى قلوبكم وأعمالكم ، انما الصبر عند الصدمة الاولى ، ان أشد الناس ندامة يوم القيامة رجل باع آخرته بدنيا غيره ، ان من كنوز البر كتمان المصائب ، الاقتصاد فى النفقة نصف المعيشة ، والتودد الى الناس نصف العقل وحسن السؤال نصف العلم ، بروا آباءكم تبركم أبناؤكم وعفوا عن النساء تعف نساؤكم ، من تنصل اليه فلم يقبل لا يرد على الحوض يوم القيامة ، تعرف الى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن ينفعكم الله حتى تعملوا بما تعلمون ، حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة ، الحياء خير كله ، خير الامور أوسطها ، الدال على الخير كفاعله ، ان الله يحب اغاثة اللهفان ، رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم ، الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل ، السعيد من وعظ بغيره ، صنائع المعروف تقى مصارع السوء وصدقة السر تطفئ غضب الرب وصلة الرحم تزيد فى العمر ، الظلم ظلمات يوم القيامة ، عند الله خزائن الخير والشر مفاتيحها الرجال ،

فطوبى لمن جعله الله مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر وويل لمن جعله
مفتاحا للشر مغلاقاً للخير ، القناعة مال لا ينفد وكنز لا يفنى ، الكيس
من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى
على الله الامانى . ليس الشديد من غلب الناس انما الشديد من غلب
نفسه ، ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ويأمر بالمعروف
وينه عن المنكر ، ما أسر عبد سريرة الا ألبسه الله رداءها ان خيراً
فخير وان شراً فشر ، ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ولا عال
من اقتصد ، ما زاد الله عبداً بعفة الا عزاً وما تواضع أحد لله الا
رفعه . مداراة الناس صدقة ، ملاك الدين الورع ، من أرضى الناس
بسخط الله وكله الله اليهم ومن أرضى الله بسخط الناس كفاه
الله شرهم ، من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ، المجاهد من جاهد
نفسه وهواه ، المستشار مؤتمن فاذا استشير فليشر بما هو صانع لنفسه
المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى
الله عنه ، لا تنزع الرحمة الا من شقى ، لا خير فى صحبة من لا يرى
لك مثل ما ترى له ، لا يغنى حذر من قدر ، آية المنافق ثلاث اذا
حدث كذب واذا وعد أخلف واذا اؤتمن خان ، أبلغوا حاجة من
لا يستطيع ابلاغها فمن أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع ابلاغ حاجته ثبت
الله تعالى قدميه على الصراط يوم القيامة ، اتقوا دعوة المظلوم وان كان
كافراً فانه ليس بينها وبين الله حجاب ، اجعلوا بينكم وبين الحرام
ستراً من الحلال ومن لم يفعل ذلك كان كالراعي حول الحمى يوشك

أن يقع فيه ، أحب الجهاد الى الله تعالى كلمة حق تقال لأمام جائر ، اذا أتاكم كريم قوم فأكرموه ، اذا التقى المسلمان فسلم أحدهما على صاحبه كان أحبهما الى الله أحسنهما بشراً ، اذا خفيت الخطيئة فلا تضر الا صاحبها واذا ظهرت فلم تغير ضرت العامة ، أربع من كن فيه حرمه الله تعالى على النار وعصمه من الشيطان من ملك نفسه حين يرغب وحين يرهب وحين يشتهى وحين يغضب ، أرحموا ترحموا واغفروا يغفر لكم ، أستقم وليحسن خلقك للناس ، أفضل الاعمال بعد الايمان بالله التودد للناس ، أفضل الايمان الصبر والسماحة ، أقلوا الدخول على الأغنياء فانه احرى الا تزدروا نعم الله عليكم ، اكثر خطايا ابن آدم فى لسانه ، اكثر الناس ذنوبا يوم القيامة أكثرهم كلاما فيما لايعنيه ، ان الله تعالى أوحى الي ان تواضعوا ولا يبغ بعضكم على بعض ان الله تعالى خلق الخلق حتى اذا فرغ من خلقه قامت الرحم فقال مه فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك قالت بلى رضيت يارب قال فذلك لك ، ان الله لايحب الفاحش المتفحش ، ان الله يبتلى العبد فيما أعطاه فان رضى بما قسم الله له بورك له فيه وان لم يرض لم يبارك فيه ولم يزد على ما كتب له ، ان الله عفو يحب العفو ، ان الله تعالى يبغض كل عالم بالدنيا جاهل بالآخرة ، ان الله تعالى يحب معالى الامور ويكره سفسافها ، ان الله تعالى يعذب يوم القيامة الذين يعذبون الناس فى الدنيا ، ان الامير اذا ابتغى الريبة فى الناس أفسدهم ، الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولخاصة

المسلمين وعامتهم ، ان الشيطان للانسان كذئب الغنم يأخذ الشاذ القاصية فاياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد ، ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك ان يعمهم الله بعقاب منه ، ان أبر البر ان يصل الرجل أهل ود أبيه بعده ، ان حقا على المؤمنين ان يتوجع بعضهم لبعض، كما يألم الجسد اذا تألم عضو منه ، ان شر الناس منزلة يوم القيامة من يخاف الناس من شره ، ان لله ماأخذ وله ماأعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى ، ان لكل شيء توبة الا صاحب سوء الخلق فانه لايتوب من ذنب الا وقع فى شر منه ، انكم لا تسعون الناس باموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق ، أهل الجور وأعوانهم فى النار ، أول مايحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة فان صلحت صلح له سائر أعماله وان فسدت فسد له سائر أعماله ، الا أدلكم على أشدكم ؟ أملككم لنفسه عند الغضب ، الا يارب مكرم لنفسه وهو لها مهين الا يارب مهين لنفسه وهو لها مكرم الا وان الجنة حفت بالمكاره وان النار حفت بالشهوات الا يارب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا ، أيما عبد جاءته موعظة من الله فى دينه فهي نعمة من الله عليه فان قابلها بالشكر والا كانت حجة من الله عليه ليزداد اثما ويزداد الله عليه بها سخطا ، أيما راع غش رعيته فهو فى النار ، أيما وال ولى شيئا من أمر امتى فلم ينصح لهم كنصيحته لنفسه كبه الله تعالى على وجهه يوم القيامة فى النار ، كفى بالمرء علما ان يخشى الله وكفى بالمرء جهلا أن يعجب بنفسه ، كف شرك عن الناس فانها صدقة منك على نفسك ، كم من جار متعلق

بجاره يوم القيامة يقول يارب هذا أغلق بابه دونى فمنع معروفه عنى ، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت

(ذكر شيء من شمائله صلى الله عليه وسلم)

كان أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس ، كان أصبر الناس على أذى الناس ، كان أبغض الأخلاق اليه الكذب ، كان اذا اطلع على أحد من أهل بيته كذب كذبة لم يزل معرضا عنه حتى يحدث توبة ، كان اذا رفع بصره الى السماء قال يامصرف القلوب ثبت قلبى على طاعتك ، كان اذا مشى لم يلتفت ، كان أكثر أيمانه لاومصرف القلوب (أى لما يعلم من سرعة تقلب القلب وعدم ثباته على حال واحد كما قال ان القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن فكان يغلب عليه هذا المشهد صلى الله عليه وسلم) كان خلقه القرآن (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون) الخ ، كان طويل الصمت قليل الضحك ، كان أسمح الناس وأطيبهم نفسا ، كان يقول للخادم ألك حاجة ، كان لا يضحك الا تبسما ، كان لا يواجه أحداً بشيء يكرهه ، كان يأتى ضعفاء المسلمين ويزورهم ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم ، كان يقبل بوجهه وحديثه على شر القوم يتألفه بذلك ، كان يكثر الذكر ويقل اللغو ويطيل الصلاة ويقصر الخطبة وكان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين

والعبد حتى يقضي له حاجته ، كان أحلم الناس وأعدل الناس وأعف الناس لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه ، كان أشد الناس تواضعا وأسكنهم فى غير كبر وأبلغهم فى غير تطويل وأحسنهم بشرا لا يهوله شيء من أمور الدنيا ، كان يجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ويكرم أهل الفضل ويتألف أهل الشرف ويصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم ، لا يجفو على أحد ، يقبل معذرة المعتذر اليه ، كان يمزح ولا يقول الا حقا ، يضحك من غير قهقهة ، يرى اللعب المباح فلا ينكره ، كان لا يمضى له وقت فى غير عمل لله تعالى أو فيما لا بد منه من صلاح نفسه ، لا يحتقر مسكينا لفقره وزمانته ، ولا يهاب ملكا لملكه ، كان لا ينتقم لشيء صنع قط الا ان تنتهك حرمات الله ، وما خير بين أمرين قط الا اختار أيسرهما الا أن يكون فيه اثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس عنه ، وما كان يأتيه أحد حرا أو عبدا أو أمة الا قام معه فى حاجته ، كان لا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ، كان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا وكان أرأف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس ولم تكن ترفع فى مجلسه الأصوات ، كان أجود الناس كفا وأوسع الناس صدرا وأصدق الناس لهجة وأوفاهم ذمة وألينهم عريكة وأكرمهم عشيرة من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله ، كان يقول لا يبلغني أحد منكم شيئا أكرهه فانى أحب أن أخرج اليكم وأنا

سليم الصدر ، كان يسأل الناس عما فى الناس ويحسن الحسن ويقويه ويقبح القبيح ويوهيه ، كان دائم البشر فى جلسائه سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ، كان لا يذم أحداً ولا يتطلب عوراته ، كان اذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤسهم الطير واذا سكت تكلموا ، كان لا يغضبه شيء ، الى آخر شمائله الرفيعة صلى الله عليه وسلم

(آيات من القرآن العزيز)

هذا ما أردنا أن نسوقه اليك مما كان عليه صلى الله عليه وسلم من محاسن الشيم (ولا بأس أن نورد لك من القرآن العزيز ما يذكرك بما فيه من الحكم والمواعظ وضروب السياسات وفنون التعليمات والدعوة الى مكارم الاخلاق حتى تعلم حقا أنه الكتاب الذى من عمل به نجا ومن تمسك به عصم ولعل كثيرا من شباننا لم يسمع تلك الآيات أولم يلتفت اليها فى عمره وسيعجب كل العجب من غفلته أو غفلة المسلمين عنها وهى فى كتابهم وبين أيديهم فنقول قال الله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الارض ان الله لا يحب المفسدين ، أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور ، وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفى وأصلح فأجره على الله ، ولا تجعل يدك مغلولة

الى عنقك ولا تبسطها كل البسط ، ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا . ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ، من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ، ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه والى الله المصير ، توبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ، أطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين ، لا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ، ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا ، ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن ، وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا ، وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، واستعينوا بالصبر والصلاة واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا ، ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ، وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ، ولا تتبعوا

خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين ، ولا تكونوا كالذين نسوا الله
فأنساهم أنفسهم ، واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا
أن الله شديد العقاب ، فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ، كونوا
قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ،
وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله
وليقولوا قولا سديدا ، يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ، يأيها الذين آمنوا
اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ، يأيها الذين
آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ،
يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم
ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ،
يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه
ولا خلة ولا شفاعة ، يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم
لا يألونكم خبالا ، يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم
لما يحييكم واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وأنه اليه تحشرون ، يأيها
الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، يأيها
الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن أن بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا
يغتب بعضكم بعضا ، يأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبىء فتبينوا ،

(أوصاف المتقين)

الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس. الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالاسحار وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون ، الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما ، والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم بشهاداتهم قائمون ، أشداء على الكفار رحماء بينهم ، لا يخافون لومة لائم ، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ،

(أوصاف المنافقين)

يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، واذ قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا ، ولا ينفقون الا وهم كارهون ، مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الارض قالوا انما نحن مصلحون ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب

بما أشركوا بالله الى آخر ما جاء في أوصافهم ويكفيك من السور ما جاء في تلك السورة (والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ومن الآيات قوله تعالى (من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)

الى غير ذلك مما جاء في الكتاب العزيز مما عرفه العلماء واعترف له الحكماء ، وبالجملة (فهو للذين آمنوا هدى ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد)

فقل لنفسك واخوانك (تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فاولئك هم الظالمون) وقل لمن غلب عليهم الجهل وأحاطت بهم الشقوة (ياقوم اعملوا على مكانتكم انا عاملون وانتظروا انا منتظرون ولتعلمن نبأه بعد حين)

(عجيب أن يعادوه في بلادهم ويدعونا اليه ههنا)

أردنا أن نذكر لك هنا هذه المقالة التي نشرت في بعض الصحف لما لها من العلاقة بهذا الموضوع واليك نصها :

ثارت ثائرة المسلمين من جراء تألب المسيحيين (نصراء العدل والانسانية) ضد انتشار الاسلام طمعا في أن يوقفوا سيره السريع وتقدمه المدهش على حين أن لا مرسل يبشر به ولا قوة تعضده ولا مال ينفق عليه بل لا مدافع يرد هجمات أعدائه عنه ولا ناصر ينصره امام الصائلين عليه

دهش المسلمون لذلك الاجتماع الذى كان بمدينة لندره (أكبر مدن العالم علاقة بالمسلمين) عقد ذلك الاجتماع للمفاوضة فى الوسائل التى توقف سير الاسلام وتكفل تقدم المسيحية مما يخيل للانسان أنهم أشربوا فى قلوبهم حب التوراة والانجيل فاذا نظر فى أحوالهم ذهب به العجب كل مذهب حيث يرى انهم طاردوا رجال الكهنوت مطاردة العدو اللدود الذى يريد أن يذهب بسعادة البلاد وتقدم أهلها ويقف عقبة كؤودا فى طريق كل خير وفلاح ، وكان لهم الحق فيما فعلوه فان رجال الكهنوت طالما قرروا أن العلم عدو الدين ، بل اذا نظرت فى التاريخ واطلعت على ما كانت تفعله محكمة التفتيش فى كل من يدور بنفسه رأى أو يتحرك فى رأسه فكر من مصادرة الاموال وازهاق النفوس بأفظع الوسائل (الاحراق بالنار) مما لا محل للافاضة فيه علمت أن محاربة رجال هذا شأنهم لمن أوجب الواجبات وأول الضروريات ، وقد أدرك العلم ثأره فقام أبناؤه يطاردون رجال الكنيسة بكل الوسائل مستهزئين بما كان لهم من سخافات وجهالات مبتهجين بما وصلوا اليه من التخلص من أغلال الكهنوت الى باحات العلم وحرية الفكر ، حتى تعدوا فى ذلك حدود الآداب اذ جاءوا بأحدى بنات باريس وسموها العذراء وذهبوا بها الى الكنيسة وفعلوا هناك ما أرادوا أن يمثلوا به شعورهم نحو الدين وتعاليمه المقدسة

رجعوا الى الانجيل فنظروا فيه وما لبثوا أن أهملوا تعاليمه وكانوا أول المجافين له والناقمين عليه رأوه يقول أن الغنى لا يدخل ملكوت

الله وأن دخول الجمل فى سم الخياط أيسر من دخول الاغنياء فى رحمة الله فعلموا أن فى ذلك تأخرهم واضمحلالهم وظهور الامم عليهم فنبذوه وراء ظهورهم ، وعملوا بقول القرآن (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) وبقوله صلى الله عليه وسلم (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا)

رأوا الانجيل يقول من لطمك على خدك الايمن فأدر له خدك الأيسر وعلموا أن فى ذلك الذل الابدى والشقاء السرمدى فضلا عن مضادته لمقتضى الطبائع البشرية فأهملوه ، وعملوا بقول القرآن (من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) وبقوله (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)

رفع دينهم مقام أبناء الكنيسة عن درجة البشر وقال لهم ما حللتموه فى الارض فهو محلول فى السماء وما ربطتموه فى الارض فهو مربوط فى السماء فرأوا أنه لا معنى لهذه الميزة مع كون الكل من بنى نوع واحد فمالوا الى ما جاء به الاسلام من تعظيم أمر العقل الانسانى وعقد المساواة بين جميع أفراد البشر ومطالبة الجميع بالتفكر والتدبر ،

سوى الاسلام بين الناس جميعا حيث يقول (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم) عظم أمر العقل حتى قال (ان الله يقول للعقل ما خلقت خلقا أعز على منك) وتراه يوبخ من لم يستعمل عقله بمثل قوله (أولم يتفكروا) (أولم ينظروا) الى غير ذلك وهو كثير ، لم يرفع من شأن

الرؤساء الدينيين حتي يستبدوا بالرأى وينفردوا بالسلطة بل أمر أكبرهم وهو (سيدنا محمد) صلي الله عليه وسلم أن يشرك غيره معه اعترافا بحق العقل واحتراما لمواهب النوع الانسانى فقال (وشاورهم في الأمر)

رأوا ذلك الذى جاء به الاسلام أولى ببني الانسان وأبعد عن الاستبداد وتقييد العقول بما يقضى عليها فساروا على نهجه وتركوا نهج الانجيل الذى لا يفهمون له معنى ولا يعقلون له سرا

جاء الانجيل بالزهادة فى الدنيا وحبب الى الناس اعتزالها بأبلغ مايكون وأقصى ما يتصور ودعاهم الى الرهبانية وسكنى الصوامع، فرأوا أن ذلك قاض على سعادتهم موجب للدمار وخراب الديار فى القريب العاجل، فعدلوا عنه عدول الصحيح عن مكامن العدوى المهلكة الى ما جاء به الدين المحمدى الذى يقول (لا رهبانية فى الاسلام) وقد سرى ذلك الشعور حتى الى قسسهم فأصبحوا يديرون المدارس والمستشفيات ويحررون المجلات ويشاركون الناس فى كل ما هم فيه، ولو شئنا أن نعدد ما خالفوا فيه دينهم ووافقوا فيه الدين الاسلامي علما بأنه الطريق الى سعادتهم لأتعبنا القارىء وأمللنا السامع لكثرة ما جاء فى الدين الاسلامى الذى عرفوا أنه دين المدنية والعمران فارتقوا بفضل تعاليمه التى أشرقت عليهم شمسها من سماء الاندلس على يد المسلمين الفاتحين، فلم يرتفعوا الى أوج العز الذى نراهم به اليوم الا عند ما هجروا دينهم وتقربوا من ديننا، كما اننا لم نهبط الى حضيض الذل الا من يوم فارقنا ارشاده العظيم وطريقه القويم فلم نعمل بما ندبنا اليه

وحضنا عليه وأما هم فاجابوا داعى الله وتفكروا وتدبروا فسادوا وأفلحوا حيث تمسكوا بما حض عليه القرآن فى مثل قوله (ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب) (أولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء) ففتحوا أبصارهم للفلكيات والجويات وعلوم النبات والحيوان وغير ذلك، تمسكوا بهذا الاصل الاسلامى وأهملوا أصلهم المشهور (الدين عدو العلم) وكأننا تبادلنا واجبات الاعمال الدينية فعملنا بمقتضى المسيحية وعملوا بمقتضى الاسلام. رأوا القرآن يبالغ فى أمر الحيوان ويرفع من شأنه حتى قال (وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم) وقص علينا فى النمل ما لفت أنظار الباحثين هناك الى أمر الحيوانات حتى أصبحوا ولديهم من العلماء من يقدس شأن القرآن كل التقديس

رأوا القرآن يقول (وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج) فبحثوا عن ذلك حتى عرفوا ان فى كل نبات ذكرا وأنثى وأمسوا ولهم الايادى البيضاء فى علم النبات، رأوا القرآن يقول (وأرسلنا الرياح لواقح) فبحثوا عن ذلك (منذ عهد قريب) حتى علموا ان الرياح تلقح أنواع المزروعات خصوصا الاشجار الكبيرة، نظروا الى ما جاء فى القرآن من مكارم الاخلاق وعلم الاجتماع وأنواع السياسة وشرح أحوال النفوس فأصبحوا به فلاسفة فى كل ذلك، وان علماءهم ليشهدون للقرآن أكبر شهادة لما يكتشفون من أسراره السامية وعلومه الجمة كل يوم مما

عرضنا لذكر شيء منه في بعض مقالاتنا ولعلنا نتعرض له في مقالات ضافية اذا سنحت الفرصة

فما بالهم (وقد تركوا دينهم وما سعدوا الا بدينه) يشنون الغارة الشعواء عليه اليوم ، هل يجازى المحسن بغير الاحسان، أم يليق طمس الحقائق الناصعة ممن يزعمون أنهم أكابر بني الانسان؟؟؟ أليس ذلك شأن الغاصب المستبد الذي يغتصب المال ثم يتبجح بغناه على صاحبه معيرا اياه بالفقر والمسكنة ، هل هذا شأن الكريم الذي يأبى أن يقابل الاحسان بالاساءة، هل هذا شأن الحر الذي لا يرضى ان يجازى المعروف الا بالمعروف

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني
وكم علمته نظم القوافي فلما قال قافيــة هجاني

أيها القوم ان العصر عصر علم ونور وحرية واستقلال فلا تطمعوا في غير مطمع ولا تنزعوا الى شر منزع فالحقائق ليس يطمسها التاريخ وان طمستموها ، والشموس لا تؤثر فيها الترهات وان موهتموها ، والتفنن في الوسائل المختلفة لا ينفع امام العيان ، والقوة لا سلطان لها على القلوب التي لا تذعن الا للبرهان

(قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الـكاذبين)

(أسباب الشقاء التي يجب البعد عنها)

هي أشياء كثيرة غير انا نعد لك منها أهمها لنعرفك به أو نلفت

من نظرك اليه فنقول أهمها الترف الذى ألجأ ذويه الى اكتساب المال من غير وجوهه المشروعة واضطرهم الى الذل فى تحصيله حتى يتوصلوا الى ما يريدون من زخرف باطل، ونعيم كاذب . وأمات منهم خلق المروءة والمواساة، لان ذلك من فضل المال ولا فضل عندهم، ومنها الاسراف وعدم الاقتصاد وهو نتيجة الترف ولكنه قد يكون ناشئا عن ضعف الرأى وعدم الحكمة فى التصرف فيكون بلا ترف ولا فائدة أصلا ويلتحق بالعبثيات الصرفة ، وبودى أن تعتني الحكومة بأمرهم فتشفق عليهم اشفاق الاولياء الرحماء على الأبناء الضعفاء فتضع في أعناقهم سلاسل الحجر حتى لا يتصرفوا على مقتضى نزعات الاهواء واثارة الشهوات بلا عقل ولا بصيرة ، ولا غرو فهم من السفه بالمكان الأول وأحسب ان هذا أعظم دواء للأمة تداوى به أدواؤها المالية فكم من سفيه لم يحجر عليه ولم يلتفت اليه حتى كادت تذهب ثروة الامة وهناؤها بفضل ذلك السفه وغفلة الحكومة عنه، ومنها عدم تنظيم الأوقات وصرف الكثير منها فى غير ما ينفع ، وعلى الانسان أن يعمل لنفسه نظاما يتبعه ولا يحيد عنه فى كل شيء ولا يصدق نفسه فى أنها غنية عن النظام وليست تفعل الا اللائق أو اللازم فانها جاهلة أو خداعة تهوى الاطلاق وتفر من التقييد وان كان فيه صلاح حالها ، والانسان طويل العمر جدا اذا كان من العاملين، وما أظهر له أنه قصير العمر وأذهب حياته بلا فائدة الا عدم الزامه نفسه قانونا مخصوصا حتى ضاعت أوقاته واختلت أعماله، ومنها الاكتفاء بالعلم فى تهذيب النفوس

وعدم تعويدها الفضائل : والعلم قليل الجدوى فى ذلك كما علمت، ومنها عدم غرس الدين فى نفوس النشء على ما يجب وعدم تمرينهم على ما جاء فيه وتركهم للتعاليم المدرسية أو ترك ولاة الامور الاهتمام بذلك وليس هناك شىء يردع النفوس عن القبيح ويأخذ بها عن شهواتها ويصل بها الى كمالها مثل الدين وقد تقدم لك ما يكفيك ومنها عدم رياضة النفس واشعارها بالفضائل بالمطالعة فى كتب الدين والاخلاق آنا فآنا (فان النفوس تحتاج فى حفظ صحتها الى الرياضة بذلك العلم كما تحتاج الأبدان الى الرياضة المعروفة) وعدم تحريك الاحساس الديني فيها من وقت الى وقت حتى ضعف فى أغلب الناس أو كاد يقضى عليه بالكلية (والغفلة والنسيان من طبع الانسان) واذا استمر القلب على التوجه الى وجهة واحدة كاد يجهل ماعداها أو يعلمه علما لا يترتب عليه أثر (وتعهد النفوس فى رياضتها يجب أن يكون قبل تعهد الأجسام) ومنها انكار الروحانيات وقصور النظر على الطبيعيات وهو أساس الشقاء وسبب البلاء

وقد جاء ذلك من البعد عن علوم الدين وما ورد فيه ومن تقليد الغربيين الذين لا يعرفون غير علوم الأجسام لانها وجهتهم (ولكل وجهة هو موليها)

ولهذا أكثرنا لك من الكلام على الروح واثباتها وخصائصها حتى ترق عنك تلك الغشاوات وترجع الى دينك وما جاء فيه

ومن المصائب الكبرى التى تعوقك عن كل خير وتسوقك الى

كل شر أن تفهم أنك قد وصلت الى كل شيء وأن لا شيء وراء ما علمت

ومنها عدم ملاحظة استعداد النشء فكثيرا ما يكون الولد قوى البنية ميالا للحركة تتعبه الاعمال الفكرية (لأنه لم يخلق لها) ويرتاح للاعمال البدنية ولو اشتغل بها لكان له نتيجة حسنة تعود عليه وعلى الناس فيسعد فى نفسه وتسعد به أمته ولكن والده تحمله الأنفة أو المحافظة على أن يكون مثله بل الجهل وعدم التبصر أن لا يعامه ماهو مستعد له من الصنائع والاعمال فتراه يرسله الى الازهر أو المدارس طمعا فى الشرف الرفيع والمستقبل الباهر فيقهره على غير ما خلق له فلا يزال يعانى مشاق الحياة الجلوسية ومتاعب الاعمال العقلية حتى يغلبه استعداده أخيرا (وقد فات زمن التعليم) فيشقى شقاء طويلا وتفقد الأمة عضوا من أعضائها كانت تنتفع به لو لم يكن أشل أو مجزما يخاف على جسمها منه، ولو تبصر الناس ولاحظوا ذلك وهو أصل كبير فى التربية وأرسلوا الى التجارة من يصلح لها والى الصناعة من يميل اليها على اختلاف أنواعها والى العلم من خلق له لأتوا للرقى من بابه وللسعادة من أقرب طرقها .

اذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

(غلطات ينبغى التنبه لها)

هى أكثر من أن تحصى ونذكر لك منها ما عن لنا فى الوقت

ولعله من أهمها أو مما يلتحق بأسباب الشقاء وربما دل عليه ما تقدم بالالتزام ولكننا لا نكتفي بالدلالة الالتزامية علما بخطورة الموضوع واهتماما بكثرة النصيحة للمسلمين فنقول

منها ما يقع بين العلماء قديما وحديثا من كثرة الخلاف وولوعهم بالجدل والتوسع في القيل والقال انقيادا لخلق طبيعي في النفوس وهو حب الترفع والعلو والانفراد بالكمال أو السبق فيه والانفة من الغلبة والخذلان فترى الواحد منهم يجادل ويناضل ويفرغ كل ما في وسعه مستشعرا لذة الانتصار خائفا من عار التأخر في ميدان المنازعة ، وكثيرا ما يكون ذلك حجابا عن الحقيقة وصارفا للقلب الى نحو ما يقهر الخصم لا ما يظهر الحق وربما كان الخلاف لفظيا ولكن حجبهم عن ذلك طلب التقدم والتفوق على الاقران وفي بعض المواضع يكون الكلام في حقيقة تعلو عن الافهام فيطول النزاع فيها سيرا مع الخيالات والأوهام وهو شقاء للعلماء والمتعلمين والعلوم جميعا وطالما ترتب عليه أضرار كثيرة وستسمع أكثر من ذلك في هذا الموضوع مع ذكر أمثلة له ان شاء الله تعالى .

ومنها اعتقاد ان التربية هي تعليم العلوم التي تدرس في الازهر أو في المدارس بدون تربية ملكة الدين القويم والأخلاق الفاضلة التي هي التربية الحقيقية لا ما زعموه

ومنها عدم معرفة الشريعة وأسرارها وتربية ملكتها في القلوب حتى خالفوها في أعمالهم وأحوالهم فشقوا في الدنيا والآخرة ، وما من انسان

اتبع هواه ولم يتقيد بأوامر الشريعة التى أنزلها الحكيم العليم الا ضل فى سيره وشقى ماديا وأدبيا وان كان أذكى الأذكياء وأعظم المفكرين

وانظر الى أمتنا المصرية ان شئت تجد أسعدها أبلدها وأشقاها أذكاها وما ذاك الا لكثرة تصرفه على غير ما جاءت به الشريعة الغراء (والذكي كثير التقلب ولو الى موجبات شقائه)

ومنها التزام طريقة واحدة فى تأليف الكتب وعدم تقريبها بالتسهيل والايضاح على حسب ما يناسب كل جيل وكل زمان حتى سدت طرق العلم الصحيح فى وجوه من يريدونه ومن وصل منهم الى شيء فقلما يصل الا الى قشره ، بعيدا عن لبه وروحه ، فلو أزيلت التشكيكات والخلافات وانمحى التعقيد وحجب الاصطلاحات التى ما أنزل الله بها من سلطان لعرف المسلمون كثيرا من أسرار دينهم ولكانوا الى السعادة القصوى أسرع منهم الى الضلالة اليوم

ومنها عدم التفرقة بين الرقى الحسى والرقى المعنوى واعتقاد أن صاحب الرقى الأول هو صاحب الرقى الثانى ، ومن هنا قلدنا أوربا فى كل شيء ، ولو أمعنا النظر لعرفنا اننا فرطنا كل التفريط فى تقليدها فى الصناعة والتجارة وأسباب الثروة كما أفرطنا كل الافراط فى تقليدنا اياها فى الاخلاق والعادات على حين أن الواجب عكس ذلك الذى فعلناه فانه لا شعور أرقى من الشعور العربى ولا عاطفة أسمى من العاطفة الشرقية (وخصوصا الاسلامية) التى تتم بها الانسانية الحقيقية

فانظر ان شئت الى اكرام الضيف والغيرة على الحرم وصلة

الأرحام والمروءة والنجدة (لا فى نظير مقابل) مما لا يوجد بأتم معانيه الا فى الشرقيين، وان شئت فالتفت الى ما يكون منهم من كثرة المبراة والصدقات ، وأما أوربا فى هذا الباب فقد نزعت منها الرحمة والحنان حتى على بناتهم وأخواتهم فضلا عن بقية بنى الانسان خصوصا على الشعوب الاجنبية ، وحوادث التاريخ أكبر برهان على ذلك فلا تراهم يفكرون فى غير سياسة التغالب لابتلاع الشعوب الضعيفة بالطرق المختلفة . وسر ذلك انه غلبت عليهم محبة المصالح الشخصية وانحصر الكمال عندهم فى الكمال المادى (وما تسمعه عنهم مما يخالف ذلك فهو من السياسة أيضا) فان شئت فقلدهم جهدك فى الحسيات وتباعد عنهم ما استطعت فى المعنويات والعادات ، وهل أتاك نبأ الذين يلقون بأنفسهم في البحر كل ليلة قبل طلوع الفجر طلبا للراحة من الجوع على مرآى ومسمع من القوم هناك بلا رحمة تعطفهم عليهم (ولو باقراضهم بعض النقود بلا فائدة)

ومنها عدم تنمية الثروة التى هى مناط القوة وأساس السعادة ووسيلة اصلاح الدين والدنيا باهمالنا طرق المكاسب من التجارات وتأليف الشركات التى يستفيد منها أغنياؤنا الذين لا يدرون كيف يستعملون الاموال وينتفع بها فقراؤنا الذين لا يعرفون كيف يطرقون أبواب العمل فكانت النتيجة أن انحطت الامة بفقرائها وأغنيائها، وناهيك أن ما تعلم من كثرة أرباب الشهادات الذين يطلبون ان يزج بهم فى سجون الوظائف الصغيرة التى يكتنفها الذل ويحيط بها الشقاء ومع هذا فلا يجدون

اليهاسبيلا، فلو ألفت الشركات المختلفة كما تفعل الامم الاخرى لفتح من أبواب الارتزاق وينابيع الثروة ما يصلح حال الامة ويرتقى بها الى شأو بعيد فى مضمار الحياة فى أمد قريب

ومنها عدم تعليم الصنائع المختلفة التى يتقدم بها العمران وتتم بها القوة،وما أصبحت أوربا سيدة أمم الدنيا الا بالبراعة فى الصناعات وفنون الاختراعات التى صيرت الأمم امامها عزلا بلا سلاح، وجدير بالمسلمين أن يعلموا ان ذلك مما جاء به الدين الحنيف وحث عليه بل جعله من فروض الكفاية التى يأثم الجميع بتركها وقد نص العلماء على ان الاشتغال بكل ما يحتاج اليـه فرض كفاية فاذا خلا البلد من حجام مثلا كانوا آثمين جميعا لتركهم ذلك الواجب . فلابدع ان يكون المسلمون آثمين اذا لم يكن لديهم من الاسلحة الجديدة وكل مايحتاجون اليه فى عصرهم هذا من الوسائل المختلفة ما يدفعون به عدوهم ويصلون به الى سعادتهم ،ألا وأن الدين يؤثمهم باحتياجهم الى الابرة فضلا عما يتوقف عليه حفظ دينهم واصلاح دنياهم، فليعلموا ان ذلك من الدين وان كلما يتوقف عليه الواجب فهو واجب

ومنها تضييع الامة لفضلائها حتى يميتوا ماتوقد من ذكائهم ونشاطهم فيحرموا خالص نصائحهم وباهر أعمالهم وآرائهم وينتهى الامر بقتل عاطفة محبة الامة من نفوسهم ويأسهم من فلاحها ، ومنها عدم التحرى فى اسناد الوظائف الى أربابها واعطائها لغير مستحقيها اعتمادا على شهادات مدرسية عالية (كما يزعمون) من غير أن يسألوا عن سيرة

الرجل وما تملك نفسه من الاميال والعواطف ومايترفع به عن ارتكاب الدنايا من كريم الاحساس ويسوقه الى طلب معالى الامور من شريف الوجدان .

و بودى ان يمتحنوه من حيث لا يشعر فى تلك العواطف التى ترتبط برقى الأمة وسعادتها أشد الارتباط كما يمتحنونه فى تلك العلوم المدرسية

ومنها ضعف احترام الرؤساء السياسيين والدينيين على ما كان يجب له وشدة الولوع بكثرة الخلاف والنزاع (وكل مازاد عن حده انقلب بضده) مما فرق الآراء وباين بين الاهواء فلم تتحد كلمتهم على الحقيقة وان اتحدت فى ظاهر الأمر ، فذهبت وحدتهم وبذهاب وحدتهم تذهب قوتهم لا محاله ، وليس كل فرد أهلا للرأى بل من الواجب كما يقول بعض الحكماء تقليد فريق من الناس لغيرهم ، ولأن يجتمعوا على ضعف من الرأى خير من أن يتفرقوا على صواب فيه ، وان اجلال صغار المسلمين لأكابرهم فيما مضى لهو الذى كان يمسك بنفوسهم وقت الشدة فيجعلها كالحلقات التى تكون سلسلة واحدة تجاذبت أجزاؤها وتكهربت حلقاتها فبأقل حركة تكون فى بعض أطرافها يتحرك الجميع حركة واحدة لا تتميز ابعاضها فى أسرع ما يكون وعلى أتم ما يتصور .

ومنها الاقبال على العلوم النظرية أزيد مما يجب لها دون العملية التى هى أهم بكثير لامتنا المصرية

ومنها ان فريقا منا اذا وجد من له نبوغ فى فن من الفنون وأصبح معجبا به قلده فى كل شيء وكأنه يسرى الى وهمه ان ذلك العظيم

لا يفهم الا حقا ولا يقول الا صوابا ومن هنا قلد كثير منا عظماء علماء أوربا اعتمادا على مالهم من حسن الصيت ورفعة المنزلة عند الناس فى كل شىء حتى فى الالهيات والنبوات مع كونهم من علماء الطبيعة أو غيرها من الحسيات ، ولو تبصر أولئك المقلدون من أبنائنا لعرفوا ان العقل ليس له الا وجهة واحدة متى توجه لشيء أتقنه كل الاتقان ولكنه لا يكاد يعرف موضع الحق فيما سواه وان كان من أظهر الاشياء عند ذويه ، فليس من الرأى أن تسأل الخليل بن أحمد وهو واضع علم العروض وصاحب أوزان الشعر عن موازين الحرارة أو ثقل الهواء ولا ان تسأل سيبويه وهو أعرف الناس بالاعتلال من الافعال النحوية وما صح منها عن علل الاجسام وصحتها

ومنها ما يقع للناس من الاشتباه فى الأخلاق الفاضلة لعدم وقوفهم على حقائقها وعسر معرفة الاوساط التي هى الفضائل ، أو لعدم صبرهم عليها فيميلون تارة الى الافراط وتارة الى التفريط ، ثم منهم بعد ذلك من يقرب من نقطة الوسط ومنهم من يكون فى نهاية البعد عنها فتكون رذيلته من أقبح الرذائل لما فيها من مزيد التفريط أو شدة الافراط ، فمن ذلك ما تجده فى بعض الناس من البخل وهو يعتقد أنه من المقتصدين فيرى ذلك حزما وحكمة غافلا عن كون الاقتصاد هو الوقوف عند نقطة الوسط بين التقتير والتبذير وهو الكرم بعينه ، فليس معنى الاقتصاد أن تكون ممسكا للمال حريصا عليه ، بل معناه ألا تصرف المال فى غير ما ينبغى صرفه فيه حتى تكون مبذرا ولا تمتنع من بذله فيما يجب مما تقتضيه المروءة وتحث عليه الشريعة من اكرام الضيف ومواساة الجيران

ومعونة الاخوان مما يفضل عن حاجتك، وليس معنى الاقتصاد ان تميت مروءتك ولا تؤدى ما طلب منك فان هذا لعمرك هو البخل بعينه ولكن نفسك مغالطة لك أو شهوتك حاكمة عليك

ومن ذلك ما عمت به البلوى من اماتة خلق الحياء من نفوس النشء وغرس الاخلاق الرديئة فيها من الوقاحة والبذاءة والخروج عن الآداب الشرعية والعرفية وضعف الاحساس بها ، وكثيرا ما تسمعهم يقولون يجب ان نربيهم على الحرية والشجاعة والصراحة لاعلى الخمول والضعف والجبن (كلمة حق أريد بها باطل) فقضوا بذلك على أشرف الخصال وأكرم الأخلاق الذى هو زمام النفوس عن ارتكاب كل ما يشينها حتى اذا ذهب منها لم تتحرج عن منكر ولم تبال بقبيح فيصير صاحبها ممقوتا عند الناس يحذرونه حذرهم للأفاعى ويكرهونه كراهتهم للأوبئة القتالة

فلا والله ما فى العيش خير ولا الدنيا اذا ذهب الحياء
اذا ما المرء كان بلا حياء تقلب فى القبيح كما يشاء

نعم نربيهم على الشجاعة بحيث لا تزعجهم الاوهام ولا تخيفهم الخيالات ولا يجبنون عن طلب ما لهم من الحقوق ولا تضطرب أعصابهم عند مقابلة الكبراء ومخاطبة الامراء لا بان يخرجوا عن الآداب فى حركاتهم وأفعالهم وأقوالهم حتى مع آبائهم كما رأينا ، ومعلوم أن النفوس أميل الى الرذائل وأنها تكره التقييد حتى بالآداب والشرائع

فلا بد من الضغط عليها حتى لا تسترسل مع متهواه استرسال الحيوان غير المروض ، وخصوصا النشء الذين لا تقوى عقولهم على نفوسهم ، والا فقد أفسدت ذوقهم وأمت احساس الآداب من نفوسهم فكنت مسئولا لدى الله والناس ولعلك تلاقى من ضرر ما صنعت مع بنيك بعد مايجعلك تندم ندامة الكسعى لما رأت عيناه ماصنعت يداه

ومن ذلك اشتباه العزة بالكبر وليست العزة الا ان تترفع عن الدنايا ولا تذل لاحد من أجل شهواتك وأغراضك لا ان تترفع على الناس تيها وعجبا وتدع الآداب والواجبات وحسن المعاملة مع الناس ، وقد رأينا من يقابل الناس بالانفة والكبرياء ويتقبض فى وجوههم انقباض البخيل فى وجه قاصده ، و ينظر اليهم نظر السيد الذي برئت منه الرقة وأحاطت به الغلظة الى عبده الضعيف ، وكانه بتلك الوظيفة أو الرتبة الوهمية أصبح من أفراد نوع آخر ، ولكنه أمام الرؤساء والكبراء ينزل من سماء هذا الترفع الى أرض التملق وحضيض النفاق مما دل على ان طبعه من ألأم الطباع ونفسه من أصغر النفوس ، وأما صاحب العزة فبينما تراه يلاطف الصغير و يجالس الفقير ، قد امتلأ رحمة وعطفا ، وحنانا ولطفا اذ تراه كبيرا فى مجالس الكبراء ، وعظيما فى محافل العظماء ، يتيه على الوزير ، و يصدع بالحق بين يدى الامير ، لا يكثر من الزيارات ، ولا يخضع للاشارات ، ولا يذل للغايات ، فاياك أن ترميه بالكبر الذى هو أبغض الأخلاق عند الله فانه صاحب العزة التى هى من أشرف المزايا وأعظم مكارم الأخلاق ، ولهذا جعلها الله من أوصاف المؤمنين فقال

(ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) مع كونه يقول (انه لا يحب المستكبرين) الى غير ذلك من الأخلاق التى تشتبه فضائلها برذائلها لدى كثير من الناس قلبوا الحقائق وسموا الاشياء بغير أسمائها وهو كثير جدا فى عصرنا هذا

تشكل فينا كل شىء بشكل ما يباينه والناس عنه نيام

(كلمة عن العلماء)

نذكر لك هنا ما وعدناك به فيما سبق فلعلك متشوق اليه فنقول أن الانسان يحب أن يعلم كل شىء وتتألم نفسه من الجهل بأى شىء وتأبى أن تتصف به متى استطاعت الى ذلك سبيلاً فان لم يساعدها العقل على ذلك وقوفاً عند حده وتحرجا عن أن يقفوا ما ليس له به علم حركت منها تلك الشهوة الغريزية الاوهام وهيجت الخيالات حتى تروى غلتها مما يرجع به الوهم من الماء الآسن ويأتى به الخيال من الملح الاجاج حيث لم تجد العذب الفرات

فلهذا تجد العلماء يخوضون فى كل شىء ولعله مما لا تصل اليه العقول فيكثرون فيه القول أخذاً ورداً واستحساناً ونقداً، وكلما أوغلوا بوادى الخلاف فى البحث عن الحقيقة أسرعوا فى السير عنها (لا اليها)

فمن ذلك ما أطالوا به من أن الصفة عين أو غير وأن ما ورد من اثبات اليد والوجه ونحوهما له تعالى يجب تأويله وارجاعه للقدرة

والذات أو يجب أن نعتقد أن لله يداً لا كالأيدى وهى غير القدرة ووجهاً لا كالوجوه وهو غير الذات وما يذكرونه من التأويل عند الخلف والتفويض عند السلف فى مثل ذلك، وليت شعرى هل عرفوا كنه الذات حتى يعرفوا كنه الصفات وهل تعرف الصفات أو يحكم عليها بدون أن تعرف الذات التى وجبت تلك الصفات لها بها اقتضاء ذاتيا وهل اذا أولوا اليد بالقدرة عرفونا اياها وأوصلونا اليها

كلا بل لا يمكننا أن نعرف كنه صفاته تعالى أصلاً فان القدرة التى يقع فى نفسك أنك تعرفها والارادة التى يخيل لك أنك عالم بها انما هى القدرة الحادثة والارادة الحادثة فان ظننت أنه يريد على نحو ما تريد أو يسمع على نحو ما تسمع أو يبصر على نحو ما تبصر فقد جهلت أو كفرت

واذاً لا فرق بين أن تؤول اليد مثلاً أو لا تؤولها، بل يمكنك أن تقول أن كل ما ورد من الصفات فهو من المتشابه عندنا بحيث لا يمكننا الوصول الى كنه معناه وانما نعرف ما هو من لوازمه وخصائصه لا غير ولا يصح أن نقيسه على ما نعلمه من نفسنا فانه قياس مع الفارق

وبالجملة فلا يمكننا أن نعرف ما هى الصفات ولا كيف يتصف بها بل ولا ما هى حقيقة الافعال ولا كيف يفعلها ما دامت الذات التى هى مصدر الصفات التى هى مصدر الافعال مجهولة لنا، وأنها الألوهية تحت حجاب العزة ذاتاً وصفة وفعلاً تجل عن أن تشبه شيئاً أو تقاس على شىء أو تصل عقول مخلوقاتها اليها بوجه من الوجوه، فرتبتهم الآثار

لا تتخطاها عقولهم ولا تتجاوزها أفهامهم الا الى الحيرة فى عظمة مبدعها وجلال خالقها لا أن يعرفوه أو يصفوه (سبحان ربك رب العزة عما يصفون)وستأتى لهذا الموضوع تتمة بعد ان شاء الله تعالى

ومن ذلك ما ملأوا به الدفاتر وأنفدوا فيه المحابر من الخلاف فى رؤيته تعالى ما بين مانع يرى انها تستلزم الحيز واللون والمقدار وغير ذلك من صفات الاجسام، ومجيز يرى أن الله على كل شيء قدير فيعارضه الآخر بان الرؤية على غير ذلك الوجه من المحال وقدرة الله لا تتعلق بالمحال الى آخر ما قيل ويقال

ولو دققوا النظر لعلموا أننا لا نعرف غير أحكام هذا العالم الجثمانى وأما ما فوقه من العوالم فله أحكام أخرى لا نعرفها ما لم نصل اليه

(ومن الجهل الفاحش ان نحكم على عالم باحكام عالم آخر)ولكن يمكننا أن نقرب الامر الى العقول فنذكرها بما سبق لنا من أن الروح تحت نواميس أخرى غير تلك النواميس الطبيعية فلها أحكام أخرى غير تلك الاحكام الجثمانية وأنها ليست خاضعة لسلطان النواميس الطبيعية فهى تؤثر فى الاشياء بلا مماسة ولا مجاورة وترى الاشياء بلا شرط من الشروط فهى ترى ما يكون أمامها كما ترى ما يكون وراءها وما يكون قريبا كما يكون بعيدا ويمكنها ان تتراءى المعانى كما تتراءى الأجسام لما بينها وبين المعانى من المناسبة فى اللطافة فليست المعانى أرق منها ولا عالمها فوق عالمها

فاذا يمكننا أن نقول أن سلطان الروح فى الدار الأخرى فوق

سلطان الجسم (عكس الدنيا) فتظهر مقتضياته هناك وتخفى مقتضيات الاجسام وتكون الأحكام السائدة هناك هى أحكام الارواح لا الاشباح

واذا كنت قد علمت أنها فى رؤيتها وجميع أفعالها على غير قوانين الاجسام علمت ان هذه الشروط وتلك التقييدات التى تعرفها انما هى للأجسام فلا يمكن حقيقة أن تقع الرؤية فى عالم الاجسام بدونها واما الحكم على الروح بها فهو حكم فاسد وقياس كاسد ، وأظن أن المقام قد أحاط به من الضياء ما تزول به ظلمة الخفاء غير أنى خائف من بعض الناظرين أن يكون ممن يحرفون الكلم عن مواضعه فيتمسك بما عسى أن يكون من كلمة خفية ويدع كلمات واضحات ثم يرميني بغير ما قصدت وينسب لي غير ما أردت وربما لم يحط به خبرا فلم يستطع عليه صبرا ولم يعرف له قدرا

على انه لو كان من ذوى العلم الواسع والنظر الشاسع وغلب عليه الانصاف وجانبه التعصب والاعتساف لوجد لى من علو المقام عذرا فلم يوسعني نكرا ولفرح بما ذللناه له من بدائع الاسرار وأنزلناه اليه من روائع الأنوار

(بيان السبب فى أن الدين لا يؤبه له ولا يرتفع صوته)

ما ذا على أن لا أكتمك ما فى نفسي وان كنت أعلم أنه سيحول بين كثير من الناس وبين ما أقول صبغة نفسه التى أحاطت به من كل

جهاته ولكنى سأحيلك على ما تعلم وما على بعد

وأنى ومحبتى للحق وشفقتى على أبناء المسلمين لست ممن يتحيز للعلماء أو يقدسهم في كل ما يأتون ويذرون ولكن ليس من العدل أن ننسى ما لهم لعظيم ما عليهم

واياك أن تفهم أنى ممن ينقم على تعلم العلوم الحديثة والصنائع الجميلة والمخترعات الجديدة مما يقدم العمران ويزيد المسلمين ثروة وقوة ويؤمنهم من خوف ويرفعهم من ضعة

ولكنى أريد أن يكون تعليم أبناء المسلمين على نحو ما أرسمه لك فى الكلام على العلم والتعليم بعد وهاك ما أريد أن أوجه نظرك اليه الآن

تعلم أن النفوس تنفر بطبعها من كل ما يصادمها فى أميالها فهى لا تريد أن تجعل هواها تابعا للحق بل أن يكون الحق تابعا لهواها (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن) ولا تستعد لقبول الحق الصراح حتى تطهر من كل ما علق بها وتتخلص من سلاسل الشهوات التى تجذبها نحو مطلوبها شاءت أم أبت وحتى تكون مذعنة لاحكام العقل الصرفة طالبة وجهة الصواب غير سالكة سبيل العناد ودون ذلك ما لاقى الانبياء وعانى الحكماء

وان رأيت من خلا من الاهواء وتطهر من أدناس التعصب والعناد فلا تجده فى الغالب الا خياليا تعلو الحقائق عن متناول ادراكه فهو الى الخيالات الروائية أميل منه الى الحقائق البرهانية لانها أقرب الى استعداده وألذ فى وجدانه خصوصا من لم يعود نفسه البحث والتنقيب

ولم يغرس فيها ملكة الصبر على الكد فى تمحيص الحق ودحض الباطل ، فهو انما يطالع الكتب تفكها وتلذذا لا طلباً للحق (الذى يشتاق اليه ويؤلمه ضميره من أجله وتطيل معه نفسه الحديث فيه) وان غالب المصريين من هذا القبيل ويعجبنى قول بعضهم ان الجد لاتهضمه معدة أكثر المصريين

وهذا ما قعد بكثير من الفضلاء عن تدوين معلوماتهم وبث معارفهم مبهوتين بما يرونه من صولة المبطلين ودولة الجاهلين مغمضين العين على القذى والحلق على الشجى عالمين أن هذا دور من الادوار التي تعترى الامم وان أمتنا فى أثناء تلك الحركة القسرية لم تستقر بعد

فالتيار لا يقاوم والعواصف شديدة لا تصادم ، موقنين أنهم لو أبرزوا للناس كتابا ينطق بالحق لكان عليهم طامة كبرى وداهية عظمى ، وظهر بين تلك الامة بأبشع المظاهر وأقبح المناظر والأمر فوضي والدين عدل به عن سننه وتحكمت فيه الآراء ولعبت به الاهواء وقامت قائمة الشهوات التى لا ينازعها شيء الا حطمته ، وكان من قدر الله أن قوى برهانها وعز سلطانها بما أتيح لها من الحرية غير المشروعة والتربية الجديدة التى ليس أساسها الدين ولا رائدها التبصر ، ولا وجهتها غير مطالب الاجسام ، وليس هناك مرجع يعترف له الجميع ، ولا حظر فى قول على قائل ، ولا أحد يحس بالجهل الذى هو فيه ، ولا غاية للخيال الذى يستمد منه

فاذا قام من يصيح بالناس (أن تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم)

هب فى وجيه زعانف القوم وأراذلهم يحقرون من أمره ويخفضون من قدره يصدون عن سبيل الله (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) (شأن المصرى الذى لا يعمل ولا يشجع عاملا)

فان قابلهم بما يستمد من بحر الحقائق قابلوه بما يستمدون من بحر الأوهام والخيالات، ولا غاية لهذا ولا ذاك (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك) وأمتنا الا ن (الا الذين أخلصوا دينهم لله وقليل ماهم)على ما يعتقد أولئك الزعانف بفضل تلك التربية الجديدةالتى لم تدع رذيلة من رذائل الغربيين ولم تستبق فضيلة من فضائل الشرقيين وربما رماه أولئك النفر بأنه أول الضالين وأكبر المبطلين

يارب جوهر علم لو أبوح به — لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال المسلمين دمى — يرون أقبح ما يأتونه حسنا

ومما يجعل المسلم يعض على يديه أسفا ويكاد يتميز غيظا أن الاجانب يعملون على تنصير المسلمين بالوسائل المختلفه من المدارس والمستشفيات وارسال المبشرين الى كل أنحاء المعمورة

وأما نحن فبدلا من أن نقوم بالواجب علينا أزاء ذلك حمية دينية أو غيرة وطنية فانا نعمل على اقتلاع أصول الدين من النفوس وغرس جذور الالحاد فى القلوب

وترى أولئك النفر اذا سمعوا ان امرأة تنبأت بأوروبا لم ينبسوا ببنت شفة ولم ينبض فيهم عرق لتكذيب ماسمعوا، بل يتساءلون عن أخبارها العجيبة (وأنبائها الصادقة) !!

ولو سمعوا أن بعض المسلمين قد وصل الى درجة الكشف وظهرت فيه خاصة من خصائص روحه التى شرحناها فيما سبق وأثبتها ابن خلدون فى مقدمته (حتى للكهنة من الكفار) قامت قيامة ألحادهم وهدرت شقشقة علومهم وعنادهم

فلهذا سكت أهل الحق فلم يسمع لهم صوت ولم يظهر لهم اسم فيما بين الكاتبين والمنتقدين صيانة لاعمالهم من العبث ونفوسهم مما عسى أن يحيق بهم ، منتظرين للدين فرجا قريبا ونصرا مؤزرا وأن يثوب الى الأمة رشدها ومحبتها لدينها وثقتها التى كانت لها بعلمائها الكاملين وان كانوا قليلين حتى تحترمهم احترام الطبيب فى طبه والحقوقى فى قانونه (وما ذلك على الله بعزيز)

وفى الناس فريق آخر قد جمدوا على ما ورثوه وليس يمكن تقويم اعوجاجهم واذابة جمودهم الا بتحليل كيماوى عظيم يتناصر فيه العالم والحاكم ، وأنا لنا باقتلاع تلك الجذور التى نفذت الى اعماق النفوس منذ آماد طويلة تسقيها الاوهام وتنميها الاهواء ويدافع عنها العامة ، وكثير ممن تزيا بزى الخاصة ، لا شك أن الامريكون أبعد منالا من الثريا وأصعب من اقتلاع شم الجبال ،

ومن البلية زجر من لا يرعوى   عن غيه وخطاب من لا يفهم

ولا تظن أنى أريد ان لا أخطىء العلماء فيما فعلوه ولا أوجب عليهم واجبات كان ينبغى أن يتعاونوا عليها ويتحدوا جميعا فى الوصول اليها ولكن أريد أن أشرح أمرهم حتى تعرف سرهم وجهرهم ،

وسيمر بك مقال مفرد فى العالم وما يجب أن يكون عليه من الواجبات وما ينبغى أن يتصف به من الكمالات .

(بيان الواجب في هذا الموضوع)

﴿ على الامة عموما وعلى مشيخة الازهر خصوصا ﴾

ما أجدر مشيخة الازهر وأرفقها بالمسلمين وأهداها الى موضع الضعف منهم لو عنيت بهذا الموضوع (وهو أول ما يعنى به) وما أرشد الحكومة وأعناها بحاجة الامة لو ذللت العقبات فى ذلك السبيل فاختارت من أفاضل العلماء من يكون أوسعهم نظرا وأقواهم حجة وأعرفهم بحال معاصريهم حتى يشخصوا الداء ويصفوا الدواء، ثم تخصهم بأمر الدين وبيان ما يرمى اليه من روح السعادة ومكارم الاخلاق وتحبيب أبنائه فيه والخوض بهم فى كل ما يقع فيه الاشتباه أو تذكره الجرائد أو المجلات عن أعداء الدين أو جهلة المسلمين ، ويكون من أعمال أولئك المختارين اصدار مجلة علمية دينية تأخذ الناس الى سعادتهم من حيث يعرفون لا من حيث يجهلون ، ومن حيث يأنسون لا من حيث ينفرون ، مع ايداع ذلك من روح العلم وسر الدين ولب الحق ما يأتى على أصول أمراضهم ويذهب باسباب الشقاء من نفوسهم ، شأن الطبيب الحاذق الذى لا تنسيه شدة المرض ولا شغفه بمقاومته أن يلاطف المريض ، ولا تمنعه ملاطفة المريض أن يضع له الادوية الحادة الفعالة فيما يستطيبه ولا يستبشعه ، ويسير به فى سبيل نجاته من حيث

يشعر ولا يشعر ، فتكون تلك اللجنة هي مرجع الامة في كل شأن من شؤون دينهم ، اليها القول الفصل ، ولديها الحكم العدل ، بالادلة المقنعة والبراهين القاطعة ، حتى تجهز بذلك على تلك الفوضى الدينية التي هي أضر الاشياء وأس كل بلاء

هذا وعلى الامة أن تعرف لذلك مكانه من الرشد والحكمة ومنزلته من حاجتها اليه واستفادتها منه

ان الامة كثيراً ما نراها تسخو انفوسها بالمبالغ الطائلة وتقف الاوقاف الجمة على ما لا قيمة له في نظر العقلاء ، وليس له من الفائدة التي يعتد بها الا ما يمليه عليها الجهل أو يحركه الغرض من وهم كاذب وخيال باطل ، فلو عنيت بأمر دينها عنايتها ببعض تلك الشؤون فاختارت من فضلائها من تثق بهم فخصتهم بما يرفع شأنها ويعز به دينها ، فيظهر ما فيه من الحكمة والاسرار ، وما انطوى عليه من الفضائل ومكارم الاخلاق مما يورثهم حياة جديدة يعود اليهم فيها مجدهم الاول ، ويذوقون فيها معنى الاخلاص في العمل ، ويتمتعون فيها بحلاوة الصدق والمحبة والاتحاد ، ويذهب عنهم هذا التفرق الذي أوهن عزائمهم وفكك روابطهم ، فترجع اليهم تلك القلوب التي لا تخاف غير الله ، ولا تخشى غير الله فيسري فيها روح التوحيد الذي لا يبقي معه شيء من ضعة الهمة وسفاسف الاخلاق ، وقد قال تعالى في حق غير الموحدين (سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما اشركوا بالله)

ومن ذلك تعرف ما يكون فى قلب الموحد من الشجاعة والثبات واليقين ، لو أرشدت الامة الى ذلك وعسى أن يكون قد حان وقت رشدها لوجدت من علمائها وفضلائها ما تقر به عينها ويجذبها الي سعادتها من أعماق نفوسها لا من أطراف جسومها ، ولرأت من مزايا دينها ما يقوم به أودها ، ولعرفت من حقائقه الناصعة ما تطمئن اليه وتبتهج به ،

ان الامة كثيراً ما تلقى التبعة على كواهل العلماء وترى أن من من الواجب عليهم أن يفعلوا ما يفعله المبشرون ولو مع أبناء المسلمين وفى بلادهم دون البلاد الاجنبية ، ويرون أن ذلك أول واجب عليهم ولو أنصفوهم لعرفوا أن عليهم من المسئولية ما لا يقل عن مسئولية العلماء ، عليهم ان يشجعوهم فيما يراد منهم ويزيل ما ينغص عليهم عيشهم ويفرق عليهم قلوبهم، حتى اذا لم تقم الحكومة (ولها العذر) بما كان يجب عليها من تأليف تلك اللجنة قامت الامة وهى أعلم بأمراضها وأدرى بمواقع الداء منها ، فاختارت من ترتضيهم لذلك وفصلتهم عن كل علاقة لهم بالحكومة (ولا نجاح لعمل لا يكون أساسه الحرية) فرتبت لهم المرتبات الكافية وطالبتهم بما تريد منهم

نحن لا نريد من الامة أن تسمح بما تسمح به أوربا وأمريكا لمبشريها ولا معشار عشير ذلك، وانما نريد من الامة أن تقوم لذلك العدد القليل الذى تختاره بما يكفل له حاجته ويحفظ عليه مروءته ويستعين به على ماشاء من ترجمة المجلات العلمية والفلسفة الجديدة

والآراء الاوروبية ، وبالجملة كل ما يقرره العالمون بالدين الاسلامى الذين يشهدون له أو الجاهلون به الذين يطعنون عليه ، وأما تكليفهم بعمل المبشرين وارشاد المسلمين وليس من بين وظائفهم التى استغرقت أوقاتهم وأخذت قلوبهم (وظيفة هداية وارشاد) وهى الوظيفة التى يجب الدأب عليها صباح مساء لما نراه يتجدد كل يوم وما نشاهده من عظم البلاء واعضال الداء ، ولا يكفي فيها الالتفات الوقتي ولا التفرغ العرضى ، مع عدم تكليف الامة السمحة بشئ زهيد من مالها ونذر يسير من ثروتها ، فهو من الاعتساف وقلة الانصاف أو ضيق النظر وسوء الفهم ، وانى أعتقد ان كل ما يحاوله الكاتبون والمرشدون والمقننون والمصلحون لا يمكن ان يأتى بنتيجة أو يكون له أثر صالح حتى ترجع الامة الى دينها الصحيح وتعاليمه الحقة (والا أخلت بالتنفيذ وان أصابت فى أصل التقنين) وكان نصيبها من ذلك كله نصيب من يداوى الظاهر ويترك الباطن أو يتلمظ تلمظ من يأكل الاطعمه الشهية وليس فى فمه منها شئ

اذا رجعت الامة الى تعاليم دينها وأصلحت أنفسها بما يغرسه الدين فيها فاضت الاعمال المبرورة والآثار الجميلة من منابع تلك النفوس بلا سائق يسوقها ولا مسيطر يهيمن عليها ، وكان كل فرد منها أمة وحده ، والا فمهما وضعت القواعد وعملت النظامات وقررت من الاصلاحات فلن تجد من يقوم بها على وجهها، بل تدفعه الاغراض والاهواء الى التوسع فى التأويل وسوء التنفيذ ، وكل من يحيطون به

من البيئة التى هو فيها على شاكلته لا تهمهم الا مآربهم الشخصية ومطالبهم الذاتية ، وان كانوا يقولون (بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم) فيكون ذلك شبحاً لا روح فيه وصورة ليس وراءها معنى ، فما لم تطهر نفوس الافراد من ملكاتها الخبيثة وصفاتها الحاكمة عليها (ولا طهارة لها الا بالدين القويم ومراقبة الله عز وجل فى السر والعلانية) فلن يفيد عناء الحكماء ولا تقنين الكبراء وكان قولاً باللسان فلم يجاوز الآذان ، وقد جاهرتك برأيى عسى أن يقع منك موقع استحسان فيهيج منك الامل ثم تكون من أرباب الهمة فتنبعث للعمل أو يحرك منك رأياً يكون أنفذ الى كبد الغرض المقصود وأسرع فى الوصول الى الغاية المطلوبة

(تكميل جليل فى فوائد متفرقة)

رأينا من الحكمة ومحبة الخير وبذل النصيحة أن نذكر لك ما تقر به عينك ويبتهج به قلبك ان شاء الله

ثم اذا خيل لك أن فى هذا التكميل ما هو مكرر فأقول لك ولا أطيل معك المناقشة أنه لم يذكر فى الموضعين على وجه واحد ولا أريد أن أكتفى بدلالة ملزوم على لازم ولا لازم على ملزوم فاننا نريد نتيجة مخصوصة ولعلنا بعد هذا كله نصل اليها فيرسخ بعض ذلك فى قلوب شباننا الذين أعضل منهم الداء وعز فيهم الدواء

ومن لنا بمن يبرز النصيحة الى أبناء أمته وأهل دينه فى صور

مختلفة ليترتب عليها المقصود منها فربما وافقت كل صورة من تلك الصور استعداداً من تلك الاستعدادات أو وجد فيها من المحاسن والزيادات ما ليس فى غيرها على حسب ما اقتضاه التصريف الالهي وقت ابرازها، وما على الا أن أخلص فيما أعمل على قدر ما استطيع وعلى حسب ما اعتقد (وانما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى) فدع عنك كثرة الجدال والقيل والقال وابتهج بما يسر الله لك ولا تعقني عما اريد أن أسوق اليك من الخير فانى سأطرفك بما تحب فأقول

يجب أخذ النفس بالخدع والحيلة والمغالطة حتى تصل الى الكمال المراد منها فانها سريعة الانخداع والركون الى الوهم ويمكن للعاقل أن يتخذ من ذلك وسيلة الى سعادته وتوليد الاحساسات الارتياحية عنده والسير بها فى طريق المقصود من غير أن تتألم

النفس من شأنها التلون والتلبيس على صاحبها لمكان الهوي والشهوة التى تعمى البصيرة، وسر ذلك أن القلب ليس له الا وجهة واحدة متى توجه اليها انصرف عن غيرها وان كان من أوضح الواضحات وأول البديهيات فاذا اقتاده الهوى لم يمكنه أن يوجه بصره الى غير ناحية الامر المحبوب

شدة القرب حجاب كما أن شدة البعد حجاب والعين لا ترى نفسها ومن هنا جهل الناس نفوسهم فلم يعرفوا دخائلها

النفس تأبى الا قضاء شهواتها ولو فسدت السموات والارض

ومن فيهن ، أ كثر ما يؤتى الناس من قبل ضعفهم أمام شهواتهم لا من قبل جهلهم بالنقص والكمال

الحرية الحقيقية أن تحرر نفسك من اسر الشهوات التى استعبدتك لمن لا يحصى عدداً من الشركاء المتشاكسين، فالناس كلهم فى الذل من خوف الذل وفى الفقر من خوف الفقر وقد قال أبو الطيب المتنبى

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر

محب المال قلما يرجى منه خير أو يتصف بفضيلة

الكامل يعطى كل وقت حقه وكل حال حكمه وغيره يجب عليه أن يأخذ بالقواعد العامة ولا يتخطاها

القوة الشهوية والقوة الغضبية أسبق وجوداً من القوة الفكرية وهو من أسباب ضعفها عن أن تقاومهما

الهوى اله لا يعرف من عابديه غير الامتثال والتسليم

الآثار التى تترتب على رذائل الاخلاق لا تكاد تتناهى

الفضائل أوساط والرذائل متفاوتة بحسب القرب والبعد من نقطة الوسط

الانسان اذا رسخ فيه الكمال تعدى منه الى غيره فكان اماماً مقتدى به تصلح به الامم وتسعد به الشعوب وكان له من الميراث النبوى على قدر ذلك

الانسان مستعد للبقاء السرمدى مع الفيض الدائم واللذة الصافية اذا طلب السعادة من وجهها والا فنى فناء النبات والحيوان بل كان شراً منهما

اجعل بدنك خادما لنفسك واجعلها سيدته تدبره تدبير السادات لعبيدها واياك أن تنزلها عن مركز سيادتها الرفيع الى حضيض العبودية فتنغمس فى سلك من كانوا أنفسهم يظلمون

السعادة على الحقيقة هى ما لا يلحقها كدر ولا يتقدمها ألم ولا يعتريها فناء ولا يحيطها خوف وليست الا فى السعادة المعنوية

يجب تربية الاحساس بالفضائل والآداب فى النشء وانهم مع مربيهم لأشبه شيء بالمنوم تنويما مغناطيسيا مع منومه وان الانسان قد يبلغ من التأثير في غيره الى حد ان يجعل المر الزعاف عنده حلوا لذيذ الطعم اذا أمكنه أن يغرس فى نفسه اعتقاد ذلك فان شأن الحواس والابدان مع النفوس ، والاعتقادات من أغرب الشؤون وأعجبها

لا تصلح أن تكون هاديا لقوم الا اذا علوت عن استعداد الكل حتى تشرف من أفقك الأعلى على تلك المراتب التى مررت بها زمن سيرك وترقيك، فتعطى كل أحد ما يناسبه وترقيه الى أفقه الذى يشتاق اليه ثم توقفه عنده فان الشوق علامة الاستعداد وفقده علامة فقده، ولا يصلح أن يكون اماما للناس جميعا الا من بلغ درجة الرسالة حتى يحيط بالاستعدادات كلها ويعرف ما يناسبها فيمكنه أن يداويها بما يليق لها

من الدواء وهو الانسان الكامل ، ما أوجب الشقاء الا نظر الناس الى الناس

الفقر كثرة الحاجة فكل من كان أكثر حاجة كان أشد فقرا ولو كان ملكا

اجتهد فى أن لا تهيج شهوتك خير من أن تجتهد فى تسكينها أو تحصيل مطلوبها بعد هيجانها

اجتهادك فى الوصول الى درجة الراضين أيسر عليك من تحصيلك مطالب الطامعين ، السعادة تجل عن أن تكون بهذه الاشياء الخارجية الفانية المكدرة التى نجدها عند أشرار الناس وسفلتهم أكثر من خيريهم وقلتهم

كل انسان يعتقد أن السعادة فى نيل مطلبه لا غير على تفرق أهوائهم وتباين آرائهم والسعادة وراء ذلك كله

اجتهد فى أن تملأ نفسك بالكمال لا أن تملأ بيتك بالمال فانه لا سعادة الا فى النفوس

النفس تتكمل وتزكو بأنوار العبادة متى صدرت من قلب امتلأ توحيدا وفاض اخلاصا ، وما شرعت العبادات الا لتطهير القلوب بما يدخل فيها من تلك الانوار

لم يقبل الانسان التقلب فى الاخلاق المختلفة والاحوال المتضادة الا بواسطة امتزاج الروح بالبدن والا كان شيئا بسيطا لا يقبل المتضادات

يجب على الانسان أن يحاول غرس ملكة الصبر فى نفسه وعدم

التأثر بالعوارض التى لا بد منها لكل من كان فى دار الحوادث والفناء وانك فى هذا الكون الذى تقتضى ذاته التغيير والتكدير وتأبى طبيعته البقاء والصفاء بمنزلة المحكوم عليه بالقتل نهائيا فلا سبيل له الا أن يوطن نفسه على الصبر ويحرك منها ملكة الشجاعة حتى يهون عليه ذلك المصاب الذى لا بد منه ، وأما الذين لم يمرنوا أنفسهم على هذا الخلق الفاضل وان أمكنهم أن يتشبهوا بذويه فى ضبط ظواهرهم فلا يمكنهم أن يحفظوا بواطنهم التى لم تنصبغ بصبغة الفضائل من التألم والاضطراب

ان من العار أن يصبر السراق وقطاع الطريق على ما يلاقون من المكاره ويتوقعون من المهالك فى سبيل عرض لا قيمة له ولا تصبر أنت على طلب السعادة الابدية

اذا تمت اللذة ساقت البدن من السقم الى الصحة ومن النقص الى التمام ويتعذر ذلك فى لذات الاجسام (فاطلبه ان شئت فى اللذائذ الروحانية)

يلزمك أن تعرف طبيعة الدنيا حتى توطن نفسك على مقتضياتها فلا تجزع عند حصولها ومن طمع فيما لا يكون أنه يكون فقد طمع فى المحال ومن طمع فى المحال لم يزل محزونا

ومكلف الايام ضد طباعها   متطلب فى الماء جذوة نار

دواء النفوس انما يكون باقتلاع الأدواء من أصولها وأن الذى قعد بالناس عن درجة الصحة الحقيقية مع كثرة تعلمهم هو ملاحظة فروع الادواء وآثارها لا مباديها ومناشئها

أقرب طريق الى السعادة هو الدين ورسوخه فى النفوس وهو أنجع وسيلة للاتحاد بين أفراد الامة وكثرة الخير وقلة الشر وراحة الحاكمين والمحكومين واذا خلت النفوس من الدين لم تكد تنفعها تعاليمها فان نظرها اذ ذاك يكون قاصراً على المصالح التى تعود عليها ،

ولذلك نراها تنقلب عن الفضيلة متى كانت مصلحتها الشخصية فى ذلك فانها هى المحور لديها، والمصالح كلها وان تعددت أنواعها ترجع عند التحقيق الى مصلحة الشخص ولا تجد أحداً يعمل لغير ذلك (الا المتدين الذى تخلص من الاغراض كلها وصار عمله خالصاً لوجه الله تعالى) وفضلاً عن ذلك فان الشريعة جاءت بأدوية كثيرة فى علاج النفوس ولا يوجد فى غيرها الا بعض تلك الادوية

من صحبك فانما يصحبك لغرض يعود عليه ولا يكاد أحد يعمل عملاً لغير غرض الا الكاملون من ذوى الدين الذين خلصوا من الاغراض كلها (وقليل ماهم)

اجعل المال وسيلة الى توفر صحة بدنك وراحة قلبك ولا تعكس الامر فتكون قد قلبت الحقائق وعكست المراتب وجلبت لنفسك الشقاء

الشريعة جاءت بطلب الدنيا والآخرة ولكن على ميزان عدل وحدود محدودة

الولوع بالاكثار من الملاهى انما هو لعدم تحصيل السعادة فى النفس، فلضيقها وعدم ابتهاجها وسرورها بلذاتها الذاتية احتاجت الى أن تتسلى بالمسليات الخارجية ، وربما اختارت السكر لتستريح من

ذلك الهم الذى يساوره ، وأذكر هنا قوله تعالى (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا)

ما قعد بأكثر الناس عن طلب السعادة الحقيقية الا توهمهم أنه لا سعادة وراء ما هم فيه وانها قاصرة على تلك السعادة التى كلها شقاء وعناء

انما غلب الطيش على الانسان دون الرزانة والاناة لوجود الوهم فيه وتسلط الشيطان عليه وهو مخلوق من مارج من نار فهو فى غاية الاضطراب

قهر النفس حتى تذعن لاحكام العقل ضرورى وان كان شديداً جداً لغلبة الشهوة وقوتها ولذلك سمى جهادا فى الحديث الشريف (أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك وهواك)

لا بد لك من النظر الى عالمك الاسفل بمقتضى الضرورات الطبيعية ومن النظر الى عالمك الاعلى بمقتضى الشوق الذاتى الى الكمال ، واياك أن تمنعك البيئة التى أنت فيها عن رجوعك الى مبدئك الاول بحالة أكمل وهو غايتك الاخيرة، فهو بمنزلة النتيجة التى لا بد فيها من الحركتين

اجعل الدنيا والآخرة بمنزلة امرأتين لا بد لك منهما ولكن احداهما من رعاع الناس وسفلتهم غير أنها ضرورية لخدمة الاخرى وأنت مسئول عنهما جميعاً

لا تستريح ما دامت قواك متغالبة متنازعة تجذب كل واحدة منها قلبك نحو مطلوبها

صالح أعداء قواك ولا تأمنهم وخادعهم ما استطعت فالحرب خدعة حتى يقوى سلطان عقلك وينتظم جيش علمك وتدبيرك ، واذا لم تكن غالباً فاحذر أن تكون مغلوباً

أخلاق الانسان وغرائبه لا تكاد تحصى ومنها ما لم يعرف الى الآن

النفس عدوة تفعل معك من الشر والوقوع فى المذلة والشقاء ما لا يفعله الاعداء واذكر هنا قوله صلى الله عليه وسلم (أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك) ولكنك مجبور على مصادقتها مع الحذر منها

من عرف الانسان بظاهره دون حقيقته فما عرفه وقد اقتدى بابليس فى ذلك حيث قال (خلقتنى من نار وخلقته من طين) فان ذلك لصورهما الظاهرية دون الباطنية

ان الانسان لا يصلح أن يكون خليفة عن الله تعالى فى أرضه ومخلوقاته حتي يكون خليفة عنه فى عوالمه التى فيه ولا يمكنه أن يعرف حقوق تلك العوالم الخارجية ويقوم بالعدل فيها على ما ينبغى ويعرف كيف يعاملها على ما يجب الا اذا كان كذلك فى عوالم ذاته الباطنية ولولا أن فيه تلك المراتب كلها ويتأتى له أن يعرفها من نفسه ويدرك واجباتها ومقتضياتها وكيفية معاملتها لم يصلح أن يكون خليفة عن الله على جميعها وهو سر بديع يفرح به من يعرف قدره

قد خلقت لملك عظيم ولكن قد عاقتك عنه الشهوات ومن استطاع أن يكون ملكاً كبيراً ثم رضى أن يكون عبداً حقيراً فليس بعاقل

أترضى من الملك الرفيع وعيشة مع الملأ الاعلى بعيش البهائم؟!

الانسان معرض لآلام كثيرة لم يعرض لها الحيوان ولذلك كان ضعيفاً حتى فى سلطان شهوته عليه ضعفا لا يكاد يوجد فى غيره من الحيوانات فاذا الحيوان أسعد من الانسان ان لم يدرك كماله المقصود منه

العاقل من أزال عن نفسه أدناس الرذائل حتى يطهر قلبه وتعود له صحته قبل أن يتمادى به المرض فتبطل منه تلك القوة التى تؤهله لان يسمع من الملأ الاعلى وأن يبصر عجائب الملكوت ، فاذا بطلت منه تلك القوة التى صار بها انساناً فقد وصل الى حد الموت واذا لا تنفع فيه العظات ولا تؤثر فيه العبر (فانك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين) وقد علمت أن للقلب بصرا يرى مالا يراه الناظرون وسمعاً كذلك الى آخر ما سبق لك (فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور)

الانسان قد يكون ذكياً جداً فى بعض الامور لكن يكون ناقص التعليم أو التركيب فيكون أحمق جداً فى بعض آخر والانسان انفرد من بين سائر أنواع الحيوان بأنه يجمع بين المتضادات وأنه قد يكون فيه قوة هائلة يستغرب منها وضعف شديد يؤسف عليه

الناس مختلفون فى الاستعداد الى الكمال فمنهم من بطل فيه

ذلك الاستعداد فلا يشتاق اليه أصلا ، ومنهم من له ما يحرك شوقه الى الكمال ولكن لا ينهض به الى السلوك فى طريقه فيقتصر على التشهي والتمنى لا غير ، ومنهم من قوى استعداده للكمال نوعاً ما من القوة فسلك طريق الخير وتوجه وجهة الكمال ولكن لم يلبث بعد السير فيه أن ضعفت عزيمته وفترت همته،ومنهم من علت رتبته عن ذلك فسار شوطاً بعيداً فى اكتساب الفضائل ولكن وقف به استعداده دون الغاية

النفس اذا قويت وتكملت وكان السلطان لها لا للجسم بسبب رجوعها الى فطرتها الاولى أمكنها ان تخوض البحار وتقتحم النيران فان هذا الكون بمؤثراته لا يؤثر فيها فانها من عالم أعلى لا يخضع لنواميس هذا الكون السفلي كما حصل للانبياء عليهم السلام، وان كان لا بد لك من الرجوع الى المقررات الحديثة أو بتعبير آخر الى العلوم الغربية فانظر الى ما ظهر لهم من حوادث التنويم المغناطيسى والي من خاض النار المتأججة ولم يؤثر فيه محاول النوشادر المركز كما فى مجلاتهم العلمية ، فاذا بلغك ذلك عنهم وصدقت به فاعلم أن سره ما ذكرنا

أنت مخلوق للحياة الابدية ولذلك أودع فيك النظر فى العواقب

يجب على طالبى طب النفوس المحافظه على صحتها بالجرى على قانون الحمية ورد صحتها اليها ان كانت قد زالت

لابد أن تقبل صديقك على مافيه من عيب حتي تنتفع بما فيه من خير

دواء كل داء من الادواء انما يكون بمعرفة أسبابه وعوارضه ، وأما تشخيص ما يكون من جزئيات الادواء ومعرفة أسبابها الجزئية وكيفية التحرز عنها فانما يرجع فى الحقيقة الى صاحبه وهـذه القواعد العامة الكلية تكون له معونة على ذلك ونبراساً يهتدى به فى ذلك الطريق حتى يمكنه أن يستخرج منها أحكاماً جزئية لادوائه الجزئية التى هو أدرى بها

يجب عليك فى معالجة أى داء من الادواء الاخلاقية أن تعلم وجه قبحه وحسن مقابله وما يترتب على كليهما فى الدنيا والآخرة ثم تعمل على اقتلاعه من نفسك بتمرينها على الفضيلة المرة بعد المرة ولا بد أن تلاقى عناء شديدا حتى تعتاد الفضيلة ، فلا بد لك اذاً من الصبر الصادق مدة هذا العلاج وعليك أن تتباعد عن كل ما يهيج منك الشوق الى ذلك القبيح ، فتتباعد عن رؤية الصور الجميلة مثلا فى علاج شهوتها حتى تنساها النفس فلا تزعجك من أجلها ، ولا تتعرض لما يثير غضبك حتى تتمكن منك فضيلة الحلم ، ولا تغشى مجالس عشاق الدنيا كثيرا حتى يخف عنك الشره فيها والحرص عليها والتألم من أجلها ، فالبعد عن أسباب الشر أعظم علاج وأنجع دواء ، والصبر عليه أيسر من الصبر عن شهوة النفس عند ما تراها حاضرة أمامها ، وان كان يلزمك عند ما يهيج غضبك أن تكظم غيظك ولا تسترسل مع نفسك وكذلك عند هيجان الشهوات كلها ، ولكن أخاف عليك أن تغلبك نفسك

قهراً عنك (والأشياء يسهل تلافيها قبل أن تصل الى غاياتها) ،

فتدارك كل شيء فى مبدئه والا خرج عن طوعك واختيارك ، وإياك أن تغشك نفسك او يخدعك وهمك فمقتضيات الطبائع لاتتغير وطالما كذبت عليك فيما وعدت وغشتك فيما زينت (فاذاً لابد فى كل علاج من العلم والعمل والصبر والحزم والحكمة حتى ترسخ ملكة الفضيلة المطلوبة فى نفسك فتستريح اذ ذاك من العناء وتكون لذاتك بعد فيما كنت تنفر منه أولا وما أجدرك اذ ذاك أن تقول :

ونفسى كانت قبل أمارة متى | أطعها عصت أو أعص كانت مطيعتى
فأوردتها بالقهر كل كريهة | وأتعبتها كى ما تكون مريحتى
فعادت ومهما حملته تحملته | منى وإن خففت عنها تأذت

اجتهد جهدك فى البعد عن خلطاء السوء وابعد بنيك عنهم فالحمية رأس الدواء ،

قد اكتشفوا من خواص المعادن والنباتات ماجعلنا فى عالم جديد ولا بد أن يكون فيك أيها الانسان من الخصائص والاسرار ما يفوق ذلك كله ،متى توجهت الى شيء فقدتقيدت به وانحصرت فيه

الدنيا أقل من ان تحتاج الى هذا التعب ونقصها أظهر من أن ينبه عليه ولكن أحبتها النفوس حبا شديدا فعميت عن نقائصها (وعلى قدر محبة الشيء يكون عمل الوهم فيه وتخلى العقل عنه)

ما تكبر المتكبر الا لصغر فى نفسه وانحطاط في همته ولولا ذلك ما استعظم ما تكبر به

يمكنك ان تحرك من نفسك احساسا ترتاح اليه فان ألمك انما يكون من تصورات تتصورها ، ويمكنك أن تقلع عنها بالسير في تصورات أخرى ولو بأسباب خارجية تعينك على ذلك أو بآمال تحركها من قلبك وان كانت كاذبة لان النفس تركن الى الوهم وتنخدع بالوعد فتغرق في لذة تلك الامانى وتغفل عن التفكير فيما يؤلم

حرك منالك اذا اغتممـ ـت فانهن مراوح

وقد صرح علماء التربية بأنه يمكن الانسان أن يولد لنفسه احساسات يرتاح اليها بل قال بعضهم يمكنه أن ينقل نفسه من طبيعة الى طبيعة أخرى وكثيرا ما يتسبب فيما يجعله صفراويا مثلاً بعد ان كان غير ذلك

يمكنك بالعادة أن تصل الى كل شيء فيصدر بلا تكلف ولا عناء كما تصدر عنك الافعال الطبيعية، وفى امكانك أن تتعود اى شيء، وفي امكان العادة أن تحولك الى أى شيء، والنفس الانسانية من اللطافة بحيث تقبل كل شيء

حافظ على وقتك بقدر ما يمكنك فان وقتك أنفس الاشياء في حقك بل يمكننا أن نقول لك ان وقتك هو نفسك فاتق الله في نفسك

لا تكثر من توقع الضرر فتقع فيه كمن يمشي على حائط اذا أكثر من تصور الوقوع لم يلبث أن يقع ، واذا أردت ان تعلله تعليلا فلسفيا

قلت ان الجوارح تسارع الى تنفيذ كل ما يقع فى القلب ولا يؤخرها عن ذلك الاصدور حكم منه لها بعدم التنفيذ، فيجوز أن يقع فى القلب تصور أمر من الامور فتسارع الجوارح اليه قبل ان يلتفت الى المنع منه فيقع المحذور فى لحظة التصور الذى طيرته الاعصاب الى الجوارح، ولو تأخرت لحظة صغيرة بقدر ما تلتفت النفس لو رد عليها ما ينسخه ولكنها لاتعرف الانتظار ولا التوانى، وان شئت فلاحظ نفسك عندما تريد أمرين مرتبين ترتيباً طبعيا تعلم انك اذا كنت مشغولاً بالثانى منهما ظهر على لسانك قبل الاول منهما ثم تذكر الترتيب فتدارك غلطك ، ولعل توقع الخير أو الشر من أسباب وقوعه لدى التصريف الالهى كما يشير اليه حديث(أنا عند ظن عبدى بى)

لا تقدم على أمر من الامور الا بعد الفكر والروية وتعود ذلك وعاقب نفسك اذا أقدمت على شئ متسرعة طائشة بمقتضى سائق الشهوة غير مسترشدة برأى العقل ولا مستضيئة بنور البصيرة

حرك من نفسك الهمة العالية حتي لا تطلب الا معالى الاشياء ولنا فى هذا المعنى

تفكر كيف ترقى للمعالى ولا تطلب صغيرات الأمور
فرب صغيرة ضيعت فيها زمانا كان ينفع فى الكبير
وفكرك فى مدى أمر كبير كفكرك فى مدى أمر حقير

أعدد لاعدائك (من الشره والحرص والغضب وأمثالها) عدة فى حالة الفراغ الذى يمكنك من التمرن على الفضائل وتعودها قبل ان تهجم عليك سباع تلك الرذائل

ان الصحبة فى غالب الناس مبنية على تبادل المنافع بل على المرابأة فيها وان الانسان لم يتحمل اثقال الاصحاب الا بناء على حكم الاوهام أو مقتضى الشهوات، وأن ماتلاقيه ممن تعرف أكثر مما تنتفع به منه

اذا ما ضاع منك اليوم خل — فلا تحزن عليه الدهر وافرح
فان الخل عبء أى عبء — فمهما اسطعت أن تلقيه فاطرح

قد يكون الانسان ساذجا فى أمر وفيلسوفا فى آخر

يكاد يكون الانسان اسما بلا مسمى فلا تدهش عند ما تسمع قول القائل :

لم يبق من جل هذا الناس باقية — ينالها الوهم الا هذه الصور

أو قول الآخر

أنى لأفتح عيني حين أفتحها — على كثير ولكن لا أرى أحدا

وان شئت فجرب حتى تعرف ذلك بالبرهان (ولكن خير لك أن تقلد فى هذا الموضوع)

ليس يرقى الانسان بصنعته فان النمل والعنكبوت أصنع منه ولا بحسن ملابسه فان كثيرا من الطيور أبهج منظرا وأرق نقشا ورقشا منه، بل ترقيه بالحقيقة على سواه انما هو باخلاقه وقوة استعداده لمعرفة مالا يصل اليه الحيوان من عظمة المبدع وجلاله

الخير المحض لا يوجد فى هذا العالم لمكان التغالب ومحبة الذات فكل ما يكون فيه سعادة قوم يكون ضرراً على قوم آخرين ولو من بعض الوجوه ، فاذاً الخير المحض لا يكون الا فى عالم آخر ، أو بعبارة أخرى لا يجده هاهنا من الناس الا من تخلص من سلطان جسمه وعلى عليه سلطان روحه فزالت عنه الانانية والمطالب الشخصية وصار ينظر فى الاشياء بنظر الله الحكيم الرحيم (وذلك لا يكون الا لكمل المؤمنين)

من سعادة المرء أن يتفق له فى صغره من يمرنه على الشريعة ويغرس فى قلبه محبتها وان من السعادة على الاطلاق أن توجد فى بيئه طيبة تسوقك الى كمالك

الانسان الكامل بالنسبة الى بقية الناس كالقلب بالنسبة الى سائر الاعضاء أو كالانسان بالقياس الى الحيوان

لا تطمع فى أن تؤخر قلبك عن شيء يحبه فان المحبة جذابة لقلب المحب شاء أم أبى ، واذا صرفته عن محبوبه لحظة كما تفعله فى صلاتك لم يلبث أن يجذب اليه بجاذبية المحبة ، وسر ذلك ان هذا الجذب طبيعى فان أخذك عنه أمر تكلفي فكرى لم تستطع ان تستمر عليه (والغفلة طبيعية فى الانسان) ولذلك لا تتم له الامور الفكرية مهما كانت عنايته بها ، فان شئت ذلك فاجتهد فى اخراج تلك المحبة من قلبك (والحب بالتحبب والبغض بالتبغض)

انما اعطاك الفكرى لا تقف عند حد ولكن شرفك فى أن يكون

الـكمال لك طبيعيا . ولو جعل أمورك كلها خلقية طبيعية لوقفت عنـد حد محدود، كل يطلب السعادة ولـكن قل من يهتدى اليها وأكثر الناس يظنون ما ليس بسعادة سعادة

كل يحاول حيلة يرجو بها　　دفع المضرة واجتلاب المنفعة
والمرء يغلط فى تصرف حاله　　فلربما اختار العناء على الدعة

وأما من عرف طريقها على التحقيق فلا يقعده عنها الا ضعف العزيمة أو غلبة الشهوة ولا تـكاد تجد فى الناس غير أرباب الشهوات ضعاف العزائم الذين لا يثبتون على السير فى طريق الـكمال وان كانوا يشتاقون اليه

لـكل الى شأو العلا وثبات　　ولـكن عزيز فى الرجال ثبات

السبب فى عدم ادراك الجهلاء اللذائذ الروحانية أنهم لم يتـكملوا فهم بمنزلة الصبيان الذين لا يدركون لذة الملك والجاه وهى من أعظم اللذات ، وفى امكانك ان تبطل استعدادك لاى شىء من الاشياء حتى لا تدرك له معنى وان كان من أحسن الاشياء وأنفسها

أكثر الناس الآن أشبه شىء بمن قالوا ان هى الا حياتنا الدنيا وان خالفوهم فى العقيدة

العقل كالبصر والشرع كالضوء ولا بد منهما

الشرع بمنزلة أكسير مفيد فى ازالة أمراض الحياة وأدواء الاجتماع وثمرته الفوز بالسعادتين وقد تولى ايجاده الحـكيم العليم

ان الذى أخر الناس عن العمل بالشريعة عدم بحثهم عما فيها

من الاسرار والحكم وما تمسك بها قوم الا ارتقوا مادياً وأدبياً وسعدو حساً ومعنى وفازوا بالدنيا والآخرة ، والتاريخ أكبر شاهد على ذلك وقد سماها الله تعالى روحا فى قوله (وكذلك أوحينا اليك روحاً من من أمرنا) وجعلها حياة فى قوله (لينذر من كان حياً)

كثيراً ما تستخدم احدى القوى الثلاثة (الشهوية والفكرية والغضبية) غيرها فى تحصيل مطالبها فيغضب صاحبها ويفعل ما يفعل من أجل شهوة المال أو الجمال مثلاً كما تستخدم الفكر عند شدة غلوائها وعظم سلطانها فى استنباط الحيل الى مآربها سالبة حريته بالكلية مبطلة منه مقتضياته الذاتية ملزمة اياه امتثال اشارتها والخضوع لأوامرها مهما كانت وكيف كانت فتتعاون القوى كلها على شيء واحد وتتوجه جهة واحدة وان كان المطلب فى الحقيقة لأحدها ولذته راجعة اليها دونهما

(الفرق بين أهل الدين وغيرهم)

الانسان لا يكون انساناً الا بالدين والا غلبت عليه الاغراض ما دامت القواعد التي يرسمها لا يراد منها الا المصالح الحيوية التي تفرق بينه و بين غيره

وما دامت هى المحور والاشياء لأجلها فلا بد أن يقدم مصلحته على غيرها وهى مقدمة بالطبع حتى ان المؤمن الذي يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة يمكنك أن تقول أنه يطلب المصلحة الشخصية

وهى ادخار الأجر وجزيل الثواب عند الله تعالى . ومن طلب مصلحة أمته فهو انما يطالب فى الحقية مصلحة نفسه ولكن ما ذكرناه فى المؤمن لا يمكن أن يكون فى غيره ولذلك بينما نجد الواحد من غير أهل الدين انساناً يدافع عن الانسانية بكل قواه نجده حيوانا يفترس بمخالبه كل ضعيف ويبتلع ما يمكنه أن يسيغه من بنى نوعه

وسر ذلك هو ما ذكرنا من أن نظرهم لا يتخطى المصالح الدنيوية والمنافع الحيوية فهم وراءها كيف كانت وأين كانت والمعلول يدور مع علته وجوداً وعدماً، ولا تكاد توجد فضيلة العدالة والانصاف الحقيقى الا اذا انتفت تلك المصلحة الذاتية والا فلا عدالة ولا انصاف

فالأمور كلها يمكننا أن نقول انها راجعة الى المصالح الشخصية وأن الانسان يحب نفسه ويحب كل شئ من أجلها ولكن هناك فرق كبير بين أهل الدين وغيرهم

انما سهل على الناس اتباع الغربيين وراق فى نظرهم أن يقلدوهم بسرور وابتهاج فى كل ماهم عليه لأنه جاء على مقتضى الهوى فسارعت اليه النفوس

من تطهر قلبه وانجلت عنه الغشاوات علم الحق حقاً والباطل باطلا فلا يشغله الا ما يعنيه

من استراح من قلق الطبيعة وحركاتها نحو الشهوات الطبيعية فقد سعد سعادة أبدية

قلما يثبت شئ على خلاف مقتضى الطبع فان أردت ثبات الأشياء وتمامها فحاول أن تجعلها طبيعية حتى يتم ما أردت

النفس يشغلها أقل شئ واذا اشتغلت به غفلت عن غيره وان كان لازماً من لوازمه

مبدأ الشهوات تصورات ثم أميال ثم شهوات ويمكنك أن تقمعها فى المرتبه الاولى والثانيـة لا فى الثالثه الا اذا كنت من المؤيدين

اذا هاجت الشهوة أبطلت حكم القوة النظرية بالكلية واستخدمت الوهم والخيال

أنجع علاج لاصلاح النفوس هو غرس محبة الله تعالى فى القلب حتى تذهب الاخلاق الرديئة وتظهر الفضائل ظهوراً طبيعياًوهكذا فى معاملة الاصحاب أو الرؤساء اذا تأصلت المحبة ظهرت الحقوق المطلوبة والآداب اللازمة بلا تكلف ولا عناء

ليس يراد منك ابطال قوة الشهوة والغضب فانه لا يمكنك الخروج عن حكم البشرية بالكلية وأيضاً هى مخلوقة فيك لحكم جليلة ولكن يراد منك ايقافها عند حدها واجتلاب الخير بها وعدم التوغل فى مقتضياتها

النفس مجبولة على رذائل كثيرة لا بد من ازالتها، ولكونها جبلية لم يحس بها صاحبها لانه لم يعهد نفسه خالياً منها وقتاً من الاوقات ولم تخلق فيه أضدادها من الفضائل حتى يعرفها

لو عرفت ما يلاقيه طلاب الدنيا من الاتعاب والمذلات والحسرات والحذر والوجل والنفاق لرحمتهم ورثيت لهم

لا تورط نفسك فيما يجلب لك الشقاء فى الدنيا والآخرة من أجل أولادك وأهل بيتك اغتراراً بمحبتهم وما تراه منهم فانهم انما أحبوك من أجل ما يعود عليهم منك لا من أجل ذاتك فلا تكن مخدوعاً فى عقلك مغبوناً فى عملك

لا تتكالب على طلب الدنيا بكايتك وأخرج نفسك منها طوعاً قبل أن تخرج منها كرهاً

لا بد أن تلاقى من شدائد الحوادث وآلام الامراض وحرارة الموت ما لا ينفعك فيه الا الملكات الفاضلة

اطلب تلك الحقائق التى تحس بها ولا تعرفها

تعرف الى ذلك العالم الذى تصير اليه بعد الموت لئلا تدركك هناك وحشة الغريب الذى أمسى بغير بلاده مع غير أشكاله

ليس من العقل أن تعلم كل شىء فى هذا العالم وتجهل كل شىء فى العالم الآخر ولا بد لك منهما

ليس من العقل أن تثبت قدمك وتوطد أمرك فيما لا بقاء له ولا تكون كذلك فيما لا فناء فيه

تعرف الى الروحانيين واعمل بعملهم حتى يكون لك فى العالم الآخر جاه (أو محسوبية)

من عجيب أمرك أنك تحب علو الجاه ورفعة الذكر فى هذا

العالم وترضى لنفسك بالخمول الابدى والسقوط السرمدى فى العالم الآخر الذى لا يزول

انك لم تخلق عبثاً ولن تترك سدى فتفكر فيما أنت صائر اليه لئلا تندم حيث لا ينفع الندم

لا تظن أنك هذا الهيكل الجثمانى والشكل الظاهرى فأنت شئ آخر أعلى وأغلى

حاول أن تدخل العلم الى أعماق قلبك ليتملك نفسك فتنتفع به واحذر أن يكون فى ظاهره فقط فتكون من منافقى العلماء الذين قالوا علمنا ولما يدخل العلم في قلوبهم

حيثما تقلبت وجدت كثيراً من أهل العلم ولكن قل من تكيفت به نفوسهم

(تأثير عمل الخير والشر فى نفوس العاملين)

ان الذنب ينكت فى القلب نكتة سوداء فاذا بادرت بالندم انمحى من قلبك ذلك السواد وان توالت الذنوب بلا تطهير النفس منها بماء التوبة اسود وجه القلب كله فكان بمنزلة المرآة التى فسدت بالكلية

وكثيراً ما يحركك الذنب الى الذنب ويسوقك الشر الى الشر حتى تصل الى أفظع الحالات وأسوأ الغايات كما قال تعالى (كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) فجعل معاصيهم فى بدء أمرهم سبباً لكفرهم وارتكابهم أفظع أنواعه وهو قتل الانبياء بغير حق

واذاً يكون قد تربت فيه ملكة الشر فلا يميل الى غير القبائح ولا يستحسن غير الخبائث ويكون ممن زين له سوء عمله فرأه حسناً

زين فى عينه القبيح كما   زين فى عين غيره الحسن

وحينئذ لا تنفع فيه المواعظ بل ولا العقوبات الشديدة ، وانظر الى حال اللص الذى يحكم عليه بالاحكام القاسية المرة بعد المرة وهو لا يرعوى ولا ينزجر، واذكر هنا قوله تعالى (انا جعلنا فى أعناقهم اغلالا فهى الى الاذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) فليس ذلك الا اغلال الملكات السيئة وسد الظلمات المتراكمة، وتأمل قوله تعالى (ولو ترى اذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) ثم قال (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون) وأن الانسان ليستغرب جدا عند ما ينظر فى هذه الآية كيف يعودون الى ما نهوا عنه بعد أن عاينوا النار ووقفوا عليها ولكن اذا عرف أن ملكة الشر قد تأصلت فيهم واندرجت فى سلك الغرائز الخلقية والطبائع الاصلية علم أنها لا بد أن يظهر مقتضاها قهراً عنهم، وقاك الله شر الملكات الخبيثة وأرشدك الى تدارك الامور فى مباديها قبل أن تغلبك وتخرج عن ارادتك

وأما الحسنة فتورث فى القلب نوراً فتزول ظلمته شيئاً فشيئاً فيتحرج عن القبيح بقدر ذلك حتى يصل به الامر الى حد لا يمكنه

معه أن يفعل شراً ولا يقارف معصية وهو معنى الحفظ والعصمة وان كان ذاتيا فى الانبياء

فاذا وصل الى ذلك زالت عمايته بالكلية فأبصر عجائب الملكوت وأدرك سر الآيات واطلع على المغيبات وأمكنه أن يخاطب الملائكة ويخاطبوه لانه التحق بهم وتمت المناسبة بينه وبينهم والروح كما علمت من عالم النور فخلقتها من جنس خلقتهم

ولعلك بعد ذلك تفهم سر الوحي وصلاحية الانبياء له دون غيرهم وما ورد فى القرآن من مخاطبة الملائكة لمريم حيث قالوا (يامريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) مع قوله تعالى (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) الى آخر ماورد فى القرآن والسنة

وصاحب هذا المقام فى لذة قد تصل به الى حد الوله لما يرد عليه من الاسرار والانوار والصفاء والبهاء واستجلاء الجمال الالهى بما لا يكيف مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فلا يزالون عاكفين عليه أو متحركين اليه

كذلك أرواح المحبين دائما   تحركها الاشواق للعالم الاسنى

وقد قال بعضهم نحن فى لذة لو علمها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف

وقال غيره

عجبت لمن يخرج من الدنيا وما ذاق غير لذة الحيوانات فيها

فاحرص على ما استفت فى هذا المقام من الاسرار النفيسة والحقائق البديعة وحرك من نفسك الشوق الى بهجة ذلك العالم الرفيع

الذى هو عالمك الاعلى وقو ذوقك لنيـل تلك اللذائذ التى هى أبهى من كل ماأنت فيه وأرق من كل مارأيت فى هذا الوجود

على نفسه فليبك من ضاع عمره　　　وليس له فيها نصيب ولا سهم

(خاتمة في بيان معنى العالم الذى نوه الدين بذكره).

يعتقد كثير من أهل العلم أنه ممن وردت فيه الآيات والاحاديث اغترارا بما معه من شهادة ما أنزل الله بها من سلطان أو تصنيف فى الفقه أو النحو أو البلاغة أو الاصول أو نحو ذلك جاهلا أن ما افتخر به من ذلك يوجد فى اليهودى والنصرانى وها هى كتب مدارسهم التى ألفها آباؤهم وعلماؤهم يشهد لها الناظر ويعترف بفضلها المنصف، وكثيراً ما سمعنا بشيء من هذا القبيل فى المسائل الفقهية عن مستشار نظارة الحقانية وعن سردار الجيش المصرى بالسودان، وماتسمعه عن مستشرقى أوربا أعجب وأغرب فهـم شركاؤك فيما علمت فلا بد أن يكونوا شركاءك فى خاصة ذلك العلم والا وجد الشيء بدون خاصته وهو محال فاذاً يجب أن يكون سر تفضيل العالم والثناء عليه من الله ورسوله راجعا الى شيء آخر وأن تـكون هـذه العلوم التى ترفعنا بها على الجهلاء وامتلأ نا بها عجبا وكبرا وغرورا وزالت بها سلامة فطرتنا وطهارة قلوبنا بما أورثتنا من الصفات المهلـكة ونخشى أن نـكون ممن قال الله فيهم (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) أشبه شيء بالصنائع التى يتعلمها المسلم واليهودى والنصرانى ولا يرجع بها الفاسق عن فسقه ولا

يتميز بها عن بنى نوعه الا على قدر ما يتميز العالم بصنعة النجارة مثلا عن الجاهل بها ، نعم يجب أن يكون سر التفضيل أمرا وراء ذلك كله وهو الذى جعل العلماء ورثة الانبياء وجعل خشية الله خاصة من خواصهم (انما يخشى الله من عباده العلماء) وكان مجلس واحد من مجالس العالم خيرا من عبادة ستين سنة ذلك العلم الذى يبلغ بك تلك الغاية ويحلك فى تلك المنزلة الرفيعة ومن أجله احترمك الجهلاء وعظمك الكبراء معتقدين أنك عرفت ما لم يعرفوه ووصلت الى ما لم يصلوا اليه

والقلوب الانسانية تحس بشرف العلم الاعلى ومكانة ذويه وتجل الروحانيين الربانيين اجلالها للملائكة المقربين وتنظر اليهم نظر أهل الارض لأهل السماء على موجب ذلك الاحساس الذى لايخلو منه انسان فيه روح الانسانية

ذلك العلم يجل عن أن يكون هو العلم باحكام الفاعل والمفعول والتصغير والتكبير والمسند والمسند اليه والحقيقة والمجاز وتناقض الموجهات وأحكام المختلطات وفروع الطلاق والبيع والجنايات الى آخر ما اشرأبت به الاعناق وعظم فيه السباق وتبجحت به النفوس وارتفعت به الرؤوس بل يجب أن يكون هو العلم بجلال الله تعالى وعظمته وبديع آياته وعظيم أسراره فى خلقه مع معرفة خفايا النفوس ودقائق مكرها وتلبيسها وكثرة دسائسها وسرعة طيرانها نحو شهواتها فيتهموها فى كل شىء ويعاملوها معاملة العدو المحتال، باحثين وراءها فى كل ما تشير به، خائفين من أن يكون لها فيه هوى دفين وشهوة خفية، مجاهدين لها ما عاشوا، ذائقين لقوله صلى الله

عليه وسلم (أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك) وقوله عليه السلام (رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر) وجلين من أن يكونوا ممن اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم فكانوا ممن عرفوا نفوسهم فعرفوا ربهم فامتثلوا قوله تعالى (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) فعزلوها عن منصب الرياسة فتخلصوا من غوائلها كلها فلم يتحركوا الا لله ولم يسكنوا الا لله ولم ينطقوا الا لله ولم يسكتوا الا لله متحققين (أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم) فصبروا على بلائه وشكروا على نعمائه بل رضوا بقضائه وسارعوا الى رضائه فلم يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضى وقدر بل سلموا له تسليما ، شأن العبد الصادق فى العبودية مع مولاه ، فرقين ان يندرجوا فى سلك من قال الله فيهم (ولو أنا كتبنا عليهم ان اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه) سائرين فى الدنيا على قدم الانبياء يتجرعون فى سبيل الحق شدة الاذى ، كاظمين غيظهم ، صابرين على ما أصابهم بل عافين عن الناس محسنين اليهم مشفقين عليهم على نهج من قال الله تعالى فى وصفه الكريم (حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) (فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) زاهدين في الدنيا راغبين فى الآخرة مقبلين على الله تعالى بكليتهم ، داعين اليه ما استطاعوا الى ذلك سبيلا عالمين أنها محل المحن ودار الفتن فلا يحبونها الا على نحو ما رسم الشرع لهم . مشفقين من قوله تعالى (يأيها الناس ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه

عدواً أنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) مستبصرين فيها
بما بصرهم سيدهم، موقنين بما وعدهم من نعيم وملك عظيم عالمين أنها
سريعة الفناء وشيكة الانقضاء يرون قريبا ما يراه الناس بعيدا

أرى الموت يغتال النفوس ولا أرى   بعيدا غدا ما أقرب اليوم من غد

(انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض
مما يأكل الناس والانعام حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت
وظن أهلها انهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا
كأن لم تغن بالأمس) مقتفين أثر من قيل له (ولا تمدن عينيك الى
ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك
خير وأبقى) واصلين الى روح قوله تعالى (سنستدرجهم من حيث لا
يعلمون) (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات
بل لا يشعرون) محبين للمرشد الاعظم والنبى الاكرم الذى هداهم
الصراط المستقيم وأخرجهم من الظلمات الى النور محبة تزيد على محبة
الوالد لولده والولد لوالده، متحققين بما جاء فى حديث البخارى من قوله
صلى الله عليه وسلم (والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون
أحب اليه من والده وولده والناس أجمعين) وما ورد فى حديث
البخارى أيضا (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)
فوصلوا بذلك الى روح اليقين حتى صارت مظان ثوابه مواقع
مرضاته تعالى مما تنشرح له صدورهم وتلتذ به نفوسهم، عالمين
أنهم لا يبلغون درجة الكمال وينتفى عنهم الحرج والمشقة ويصلون الى

محل الأمن الا اذا تخلل ذلك جميع أجزائهم ورسخ فى كل ذراتهم فيميلون اليه ميلا طبيعيا يتقاضى منهم المسارعة اليه والعكوف عليه اذ هو محل الانس وحضرة القدس مجتلين في تلك الحضرات من عرائس الجمال الالهى ما يفوق كل نعيم ويحتقر معه كل لذة سواه حتى قال قائلهم :

نحن فى لذة (لو علمها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف) فكادوا يهيمون بما يشاهدون من سبحات هذا الجمال ويذوبون عند ما يوغلون فى سرادقات ذلك الجلال مدهوشين مما يذوقونه فى تلك الحضرات من مناجاة وإلهامات وملاطفات وأنوار وأسرار فكانوا من قوم (يحبهم ويحبونه أعزة على المؤمنين أذلة على الكافرين) يتيهون على ملوك الدنيا استغناءً وعزة على حين أنهم يتواضعون للفقراء ويخضعون للضعفاء ولكن أبى لهم مقامهم الذى يعرفونه من أنفسهم وعزتهم التى يحسون بها من أعماق قلوبهم أن يتواضعوا لاهل العظمة والكبرياء وقد قال تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يفقهون) الى آخر ما يطول شرحه ولا يمكننا الآن أن نأتى عليه

وبالجملة فقد اتصفوا بكل فضيلة وتخلصوا من كل رزيلة وأدركوا من شريف الاحوال ورفيع المقامات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فكانوا بذلك ورثة الرسل وقادة الامم ودواء العلل وكواكب الظلمات وسرج المشكلات بهم تنحل العقد وتنفرج

الكرب (وراثة نبوية وخلافة الخية) ولذلك كانوا مرجع الامراء والكبراء حتى قال القائل

ان الاكابر يحكمون على الورى وعلى الاكابر تحكم العلماء

وقد قالوا أن الامة تفسد بفساد الامراء والامراء تفسد بفساد العلماء ، فانظر أين أنت من تلك المقامات والى أى حد وصلت من البعد عن تلك الصفات

أيها المتبجح بعلمك المترفع على بني نوعك الغافل عن كون الانسان لا يزال متعلماً طالبا من العلم ما يكون وراء ما علم وكلما ازداد منه ريا ازداد عطشاً وكلما زاد فضله بان له جهله وقد قال تعالى لأعلم العلماء وأعظم العظماء (وقل رب زدنى علماً) وقال (وفوق كل ذى علم عليم) وقال (وما أوتيتم من العلم الا قليلاً) وان العالم حقاً ليستحى من الله أن يتبجح بعلمه وهو يعلم أنه جعله محل الضعف والجهل والنقص والغفلة والنسيان ويرى أن العلم أمامه متسع الفجاج متلاطم الامواج وهو بساحله يرجو أن يتطاير عليه من بحره رشاش ينقع به مزيد غلته ويشفى به بعض علته وأن لم يعرف ذلك فهو من الجهلاء لا من العلماء

انظر الى ذلك كله ثم قل لى بعيشك هل أحببت النبي صلى الله عليه وسلم حباً وجدانياً يزيد على محبتك للناس أجمعين وهل صار هواك تبعاً لما جاء به بل هل سعيت الى ذلك سعيه يوماً من الايام وآلمك من أجله ضميرك وعاتبتك عليه نفسك أم هل أحسست بحب الله تعالى من أعماق قلبك حباً يهون عليك قضاءه ويخفف عنك بلاءه

أم هل صدقت فى بيع نفسك لله تعالى (وقد جعل ذلك من صفت المؤمنين فضلاً عن العلماء منهم) فخلصت أعمالك من الاغراض والشوائب حتى صارت كلها لله فلم تتكالب على أمورك الشخصية ولم تتهالك على شهواتك النفسية ولم تذل لأهل الدنيا ذل العبيد ولم تنافق لهم نفاق صغار النفوس لئام الطباع، وهل ذقت لعزة المؤمنين طعماً أو عرفت لها معنى، وهل أنت ممن قال الله فيهم (انما يخشى الله من عباده العلماء) أو ممن قال فيهم (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) وهل أنت ممن يحب لأخيه كما يحب لنفسه، وهل أنت ممن يقول لاخيه عند ما يقابله اجلس بنا ساعة نؤمن كما كان يقول ذلك أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بعضهم لبعض، وهل أنت ممن (اذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكيا) وهل وهل وهل الخ . . . .

أم أنت ممن أخلد الى الأرض واتبع هواه وقد أحاط به الشره واستعبده حب الدنيا فليس يهمه الا شئ يعود عليه ودرهم يصل اليه ففاتته عزة العلماء وثروة الاغنياء فهو لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء وهو بالجهلاء أشبه منه بالعلماء

نعم يوشك أن تكون من العلماء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم (أول ما تسعر به النار يوم القيامة عالم لم يعمل بعلمه فيطيف به أهل النار فيقولون له مالك وقد كنت تأمرنا وتنهانا فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه) كما

يوشك أن تكون ممن قال الله فيهم (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام) وقد أوحى الله الى بعض أنبيائه (قل لعلماء السوء ألسنتكم أحلى من العسلى وقلوبكم أمر من الصبر أفبي يستهزئون واياي يخادعون فوعزتي وجلالي لأتيحن لهم من الفتنة ما يدع الحليم حيران) وفي الاثر (لاتجالسوا من العلماء الا من يأخذ بكم عن محبة الدنيا الى محبة الله وعن الكبر الى التواضع وعن التباغض الى التحابب) ولا قدر للدنيا حتى نبيع بها السعادة الابدية ، وقد قال بعض الملوك عند ما حضرته الوفاة كنت أظن اني ملكت كل شيء فاذا كل شيء لا شيء

وفي الاثر أيضاً (أعظم الناس ندامة صانع المعروف عند من لا يشكره وعالم فرط في علمه فلم يعمل به حتى حضره الموت) وقد سقت لك ذلك عسى أن يحرك مني ومنك شوقاً الى العمل بالعلم وندماً على ذلك العمر العزيز وخوفا من أن يخاطبنا الله عز وجل يوم القيامة بقوله (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) ورجاءً في أن نكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا

نجب الايام بنا تثب ... ما أسرع ما تصل النجب
والشمس تطير بأجنحة ... والليل تطايره الشهب
والدهر يجد بفعل الجـ ... ـد فليس يليق بك اللعب
ما القصد سواك فخل هوا ... ك وكن رجلاً فلك الطلب

سل دهرك أين قرون لار | ض يجيبك انهم ذهبوا
ساروا عنا سيراً عجلا | فكأن مسيرهم الخبب
ما أفصحهم ولقد صمتوا | ما أبعدهم ولقد قربوا
يالاعب جد بفعل الجد | فليس الامر به لعب
واحذر دنياك وزخرفها | فجميع مناصبها نصبو
فكأنك والايام وقد | فتحت باباً فيه النوب
وبقيت غريب الدار فلا | رسل تأتيك ولا كتب
وسلاك الاهل ومل الصحب | كأنهموا لك ما صحبوا
فاذا نقر الناقور جثو | ت ويومئذ يوم عجب
فيصيح السمع ويجثوا الجمع | ويجرى الدمع وينسكب
وجميع الناس قد اجتمعوا | ثم افترقوا ولهم رتب
ذا مرتفع ذا منخفض | ذا منجزم ذا منتصب
فهناك المكسب والخسرا | ن وثم الراحة والتعب

(تم الجزء الاول ويليه الجزء الثانى فى الرد على الطبيعيين)

والحمد لله أولاً وأخراً وظاهراً وباطناً وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم